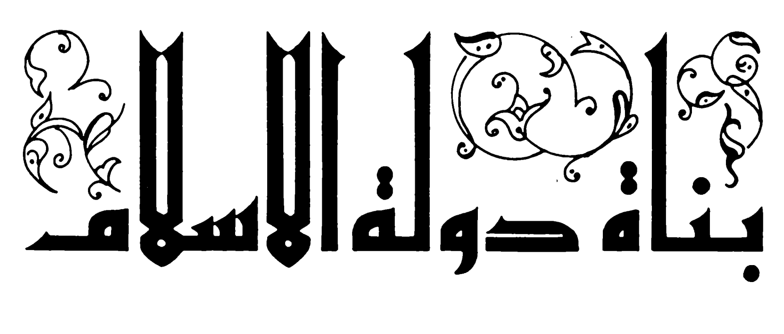
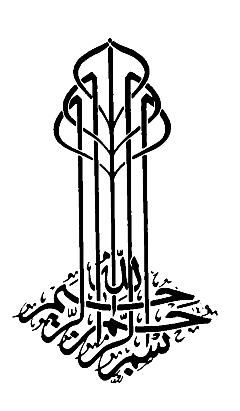


١١ - ٢٠

محمود شاكر

المكتب الإسلامي




بناة دولة الإسلام
١١ - ٢٠

الطبعة الثالثة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١١ -

ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم

الفَضلُ بنُ العَبَّاس

رضي الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبَلَغَ العبَّاسُ بنُ عَبْدِالمُـطَّلِب سِنَّ الشَّبابِ، فَخَطَبَ لَهُ أَخُوهُ الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ فَتـاةً فَاضِلَةً عُـرِفَتْ بالجَمَـالِ والهُدوءِ، هِيَ لُبابَةُ بِنْتُ الحَارِثِ الهِلالِيَّةُ، وَهِيَ أُخْتُ زَوْجِهِ سَلْمَى بِنْتُ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّة لأُمِّها، وَلَمْ يَلْبَثِ العَرُوسَان أنْ رُزِقا غُلاماً أَسْمَيَاهُ الفَضْلَ، وَأَصْبَحَا بِهِ يُكَنَّيَانِ.

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآمَنَ بِهِ مَنْ آمنَ مِنْ قَـوْمِهِ، وَجَحَـدَ مَنْ جَحَـدَ، وَكَـانَتْ أُمُّ الفَضْـلِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْها، المَرْأَةَ الثَّانِيَةَ التي أَسْلَمَتْ بَعْدَ خَدِيجَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَإِذَا كَانَ زَوْجُها العَبَّاسُ لم يُسْلِمْ إلّا أَنَّهُ كَانَ صَدِيقَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإنْ كَانَ عَمَّهُ - إلّا أنَّ السِّنَّ بَيْنَهُما قَرِيبَةٌ، فَـلا يَكْبُرُهُ إلّا بثلاثِ سَنَوَاتٍ، وَالصِّلةُ بَيْنَهُما وَطِيدَةٌ.

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ، وَلَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ، وَٱضْطُرَّ إلى الهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ، وَكَانَ لأُمِّ

الفَضْلِ غُلامٌ آخَرُ هُوَ «عَبْدُاللَّهِ» إلاّ أَنَّه كَانَ صَغِيراً، لَمْ يَزِدْ عُمْرُهُ على الثَّلاثِ سَنَواتٍ، وَبَقِيَتْ أُمُّ الفَضْلِ عَلَى إِيمَانِها، وَكَبُرَ طِفْلُها الثَّاني «عَبْدُ اللَّهِ» فَآمَنَ مَعَهَا، فَكَانَ وإِيَّاها مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ في مَكَّةَ الَّذِينَ لم يَتَمَكَّنُوا مِنَ الهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ.

وَعِنْدَمَا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلى المَدِينَةِ بَقِيَتْ أَعْدَادٌ مِنْ عَشِيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ، مِنْهُمْ أَعْمَامُهُ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَأَبْنَاءُ عَمَّاتِهِ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَني هَاشِمٍ.

وَكَانَ اللِّقَاءُ الأَوَّلُ في بَدْرٍ بينَ الإيمانِ وَالشِّرْكِ، فَأَيَّدَ اللَّهُ أَنْصارَهُ، وَهزَمَ أَعْدَاءَهُ، فَتَرَكَ الكُفَّارُ سَبْعِينَ جُثَّةً في سَاحَةِ القِتَالِ، وَمِثْلَهُمْ أَسْرَى بِأَيْدِي المُسْلِمِينَ، كانَ عَدَدٌ مِنْهُمْ مِنْ بَني هَاشِمٍ، مِنْهُمْ: العَبَّاسُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقِيلُ بنُ أبي طَالِبٍ، وَنَوْفَلُ بنُ الحَارِثِ ابنا عَمَّيِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لم يَكُنِ العَبَّاسُ ولا ابنا أَخَوَيْهِ خُصُوماً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا في عِدَادِ أَعْدَائِهِ، وَلَكِنْ خَرَجُوا مُكْرَهِينَ، وَكَانَ العَبَّاسُ صَدِيقاً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَرِيصاً عَلَيْهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ

كُلِّيّاً، وكانَ الوَحِيدُ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ يَوْمَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ التي تَمَّتْ بينَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأَنصَارِ.

وَفَدَى العَبَّاسُ نَفْسَهُ وابنَ أَخِيهِ عَقِيلاً، وإِنَّ بَني هَاشِمٍ الذينَ أُسِرُوا في بَدْرٍ قدْ أَسْلَمُوا، وأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَرْجِعُوا إلى مَكَّة لِيُقِيمُوا ما كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ السِّقَايَةِ والرِّفادَةِ والرِّئاسَةِ وذلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أبي لَهَبٍ إذْ كَانَتْ هَذِهِ الأُمُورُ مِنَ آخْتِصَاصِ بَنِي هَاشِمٍ. وَلَمْ يَشْتَرِكْ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ بَني هَاشِمٍ في حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كانَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في مَكَّةَ عَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يُعْلِنْ إسْلاَمَهُ بَعْدُ، وَيُرسِلُ إلَيْهِ أَخْبَارَ قُرَيْشٍ ويُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ.

وتَوالَتِ المَعَارِكُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وقُرَيْشٍ، ثُمَّ وُقِّعَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَلَكِنْ لم تَلْبَثْ قُرَيْشٌ أَنْ نَقَضَتْهُ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى مَكَّةَ لِيَدْخُلَها فَاتحاً.

وَالْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الطَّريقِ بَيْنَ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ بِعَمِّهِ العَبَّاس وأَهْلِهِ، جَاؤُوا إلَيْهِ مُهَاجِرِينَ،

مُسْلِمِينَ، طَـائِعِينَ، فَسُرَّ بِهِمْ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فَتَابَعُوا طَرِيقَهُمْ إلى المَدِينَةِ، وَرَجَعَ مَعَهُ العَبَّاسُ وَآبْنُهُ الفَضْلُ، وَهُمُ القَادِرُونَ على القِتَالِ.

وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ مَكَّةَ فَاتِحِينَ بِقِيَادَةِ رَسُولِهِمْ الكَرِيمُ، وَتَهَاوَتِ الأَصْنَامُ، وآنْهَارَتْ قَوَاعِدُها، وَزَالَ أَتْباعُها مِنَ البَلَدِ الحَرَامِ. وأَذْعَنَتْ قُرَيْشٌ، وأَسْلَمَتْ عَدَا أَفْرَادٍ قَلائل مِنْها لا يَصِـلُ عَدَدُهُمْ إلى العَشَـرةِ، فَرُّوا مِنَ السَّيْفِ لأَنَّهُمْ قَـامُـوا بأَعْمالٍ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ يَعْرفونَ ما قَاموا بِهِ، ولَكِنْ لم يَعلَمُوا بَعْدُ عَفْوَ رَسُولِ اللَّهِ الكَرِيمِ.

وَشَعَرَ أَهْلُ مَكَّةَ بِعَهْدٍ جَدِيدٍ، وَمَضَى يَوْمُهُمُ الأَوَّلُ، مِنْهُمْ مَنْ أَتَى البَيْتَ الحَرَامَ وَصَلَّى مَعَ المُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ في بَيْتِـهِ حَيْثُ أُعْطِيَ الأَمَـانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ في دَارِ أبي سُفْيَانَ حَيْثُ أُمِّنَ مَنْ فِيها.

وأَظْلَـمَ اللَّيْـلُ، وَبَـاتَ كُـلُّ في دَارِهِ يَحْلَمُ في العَهْـدِ الجَدِيدِ الذي سَيَكُونُ لَهُمْ عِزّاً، وَيَكُونُ كُلُّ فَرْدٍ لَبِنَةً مِنْ لَبِناتِهِ الأَسَاسِيَّةِ. وَقَضَى الفَاتِحُونَ لَيْلَتَهُمْ في مُعَسْكَرِهِمْ فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ نَصْرٍ، وبما مَنَّ عَلَيْهِمْ بإِعْطَائِهِمْ دُخُولَ البَيْتِ الحَرَامِ، وإِسْلامِ أَهْلِهِ، وَهُوَ مَهْوَى أَفْئِدَة العَرَبِ مَعَ وَثَنِيَّتِهِمْ

يَـوْمَذَاكَ. وَبَـاتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَتَهُ يُسَبِّـحُ بِحَمْدِ رَبِّـهِ حيثُ رأى النَّـاسَ يَـدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً، وأَنَّ قَوْمَهُ الذينَ أَخرجُوهُ منْ بَلَدِهِ قَدْ أَذْعَنُوا لأَمْرِهِ، وَبَاتُوا مِنْ إِخْوَانِهِ وأَصْحَابِهِ.

وبَدَتْ مَكَّةُ هَادِئَةً آمِنَةً لا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا ضَجِيجُ أَكَابِرِها السَّابِقِينَ، ولا هَذَيانُ سُكارَاها العَابِثِينَ، كُـلُّ مَنْ فِيها آمِنٌ مُسْتَقِرٌّ، هَادِىءُ النَّفْسِ، قَرِيرُ العَيْنِ.

وَصَدَحَ صَوْتُ بِلالٍ فَوْقَ الكَعْبَةِ: اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أكبرُ، دُونَ أَنْ يَمْنَعَهُ طاغِيَةٌ، أو يَقِفَ في وَجْهِهِ مُتَكَبِّـرٌ، أو يَحُولَ دُونَهُ زَعِيمٌ، بَلْ دُونَ أَنْ يَلْقَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ عَذَاباً، فَقَدْ غَدَا صَاحِبَ كَلِمَةٍ. وَأَصْبَحَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا، وَكَلِمَةُ الذينَ كَفَرُوا هِيَ السُّفْلَى.

أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ.

وَرَدَّدَتِ المُرْتَفعاتُ أَصْدَاءَ الأَذَانِ فَدَوَّتْ في الأَوْدِيَةِ... وَصَحَا النَّاسُ مَعَهَا، وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَيْها، فَرَدَّدُوا مَعهـا، وَقَدِ آرْتَفَعَ ما كَانَ يُرِينُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وآنْكَشَفَتِ الغَشَـاوَةُ التي

كانتْ عَلى أَعْيُنِهِمْ فَعَرفُوا الحَقَّ وَرَأَوْهُ، فَهُرِعُوا إلى طُهُورِهِمْ فَتَوَضَّأُوا وٱنْطَلَقُوا إلى البَيْتِ الحَرَامِ.

وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِهِمُ الفَجْرَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآن، فَكَانَتْ آياتُهُ نَدِيَّةً تَخْرُجُ من فَمِ رَسُولِ اللَّهِ فَتَتَلَقَّفُها آذانُهُمْ، وتَسْتَوْعِبُها قُلُوبُهمْ، فَذَرَفَتْ العُيُونُ عَلَى مَا مَضَى، وَبَكَتِ القُلُوبُ على خَوَالي الأَيَّامِ... فَٱسْتَقَرَّ الإيمانُ، وإنْ كانَ عِنْدَ قِلَّةٍ منْهُمْ يَحْتَاجُ بِهِم الأَمْرُ إلى مَزِيدٍ، ولكنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَأَلَّفَهُمْ.

وَبُويِعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّة جَمِيعاً، وغَدَوْا كُتْلَةً وَاحِدَةً. وَغَدَا مَهْوَى أفئِدَةِ العَرَبِ تَحْتَ رَايَةِ «لا إلَه إلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

وَضَجَّتِ القَبَائِلُ التي لَمْ تَشْرُفْ بالإسْلامِ بَعْدُ، قُرَيْشٌ سَيِّدَةُ العَرَبِ دَانَتْ بالإسْلامِ، والبَيْتُ الحَرَامُ غدا مُحَرَّماً عَلَيْهِمْ، وَكَيْفَ يَدْخُلُونَهُ وَقَدْ حُطِّمَتِ الأَصْنَامُ، وَزَالَتْ عَنْهُ مَظَاهِرُ الشِّركِ! لا... لا... لا بُدَّ مِنْ جَوْلَةٍ تُعِيدُ الأَمْرَ إلى ما كانَ، وتَنْصُرُ آلِهَتَها، وَتَرْفَعُ أَصْنَامَها.

كَانَتْ أَقْرَبَ القَبَائِلِ إلى مَكَّةَ «هَوَازِنُ» و «ثَقيفُ» في الطَّائِفِ، قَرِيبَةً مِنَ الحَرَمِ ، وَهِيَ أَقْوَى شَكِيمَةً وأَكْثَرُ نَفِيراً.

آسْتَعَدَّتْ هَذِهِ القَبَائِلُ، وَجَمَعَتْ جُمُوعَها، وَٱلْتَفَّتْ حَوْلَ (مالِكِ بنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ) سَيِّدِ هَوَازِنَ.

وَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بما يَتُّم فَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ لِمُلاَقَاةِ أَعْدَائِهِ، وخَرَجَ مَعَهُ ألفانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا حَدِيثاً، وَعَشَرَةُ آلافٍ مِمَّنْ سَارِ بِهِمْ مِنَ المَدِينَةِ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وخَرَجَ مَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ وَأَبْنَاءُ أَعْمَامِهِ الأَقْرَبينَ. وَوَلَّى عَلَى مَكَّة عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ أميراً. وسارَ باتِّجاهِ الشَّرْقِ مُوَلِّياً وَجْهَهُ نحو هَوَازِنَ التي اجْتَمَعَتْ وَثَقِيفُ وَمَنْ مَعَهُما مِنَ الجُمُوعِ.

رَابَطَ أَعْدَاءُ اللَّهِ في وَادٍ من الأَوْدِيَةِ الضَّيِّقَةِ مُخْتَفِينَ في شِعَابِهِ، ومُتَخَفِّينَ في ثَنِيَّاتِهِ، مُسْتَعِدِّينَ للانْقِضَاضِ في كُلِّ لَحْظَةٍ، مُنْتَظِرِينَ وُصُولَ المُسْلِمِينَ لِمُبَاغَتَتِهِمْ، والوُثُوبِ عَلَيْهِمْ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ.

سَارَ الجَيْشُ الإسْلامِيُّ جَرَّاراً، وَمَا يُهْزَمُ جَيْشٌ مِثْلُهُ مِنْ قِلَّةٍ، وَظَنَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا حَدِيثاً أَنَّهُ لا غَالِبَ لَهُمْ، وَقَدْ

أَعْجَبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وغَرَّتْهُمْ أَعْدَادُهُمْ، وَآسْتَقْبَلُوا وَادِيَ حُنَيْنٍ، وَآنْحَدَرُوا في وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهامَةَ، وَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ يَسِيرون لا يَخْطُرُ على بَالِهِمْ خاطِرٌ إِذَا بِكَتَائِبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ قَدْ شَدَّتْ عَلَيْهِمْ شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَآنْشَمَرَ المُسْلِمُونَ رَاجِعِينَ لا يَلْوُونَ على أَحَدٍ وَحَمَلَتِ الإِبِلُ بَعْضُها على بَعْضٍ. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ في مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

آنْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ اليَمِينِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، مِنْهُمُ الفَضْلُ بنُ العَبّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فقد ثَبَتَ ثَباتاً كأَنَّما غُرِزَتْ رِجْلاهُ في الأَرْضِ، وَصُلِبَ جِسْمُهُ في الهَوَاءِ، فكانَ كالصَّخْرَةِ التي لا تَتَحَرَّكُ يُدَافِعُ وَيُقاتِلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «أنا رَسُولُ اللَّهِ... أنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ... أَينَ أَيُّها النَّاسُ؟» فلمْ يَلْوِ النَّاسُ على شَيْءٍ، وَالعَبَّاسُ آخِذٌ بِزِمامِ بَغْلَةِ رسولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابْنُهُ الفَضْلُ يُقاتِلُ وَيُدَافِعُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، : «يَا عَبَّاسُ، آصْرُخْ، يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يـا مَعْشَرَ أَصْحَـابِ السَّمُرَةِ»، فَأجابوا: لَبَّيْكَ، لَبَّيْك، إلاَّ أَنَّ الرَّجُلَ يُحاوِلُ أَنْ يَثْنِيَ بَعِيرَهُ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَأْخُذُ دِرْعَهُ فَيَقْذِفُها في عُنُقِهِ، وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وتُرْسَهُ، وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخَلِّي سَبِيلَهُ، وَيَؤُمُّ الصَّوْتَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إلى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حَتَّى إِذا آجْتَمَعَ إليهِ مِنْهُمْ مِائَةٌ آسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَآقْتَتَلُوا، وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَولَ ما كانتْ: يا لَلأَنْصَارِ، ثُمَّ خَلَصَتْ أَخيراً: يا لَلْخَزْرَجِ ، وكَانُوا صُبْراً عِنْدَ الحَرْبِ، فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في رَكَائِبِهِ فَنظَرَ إلى مُجْتَلَدِ القَوْمِ وَهُمْ يَجْتَلِدُونَ، فقالَ: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ».

وَبَـدَأَ الفَضْلُ بنُ العَبَّـاسِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، يَصُـولُ وَيَجُولُ، يُقَاتِـلُ ذاتَ اليَمِينَ وَيَنْثَنِي ذَاتَ الشِّمَالِ يَـرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُقَـاتِلُ دُونَـهُ، وَآنْهَزَمَ المُشْـرِكُونَ بِـإِذْنِ اللَّهِ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَـهُ على رَسُولِـهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾.

وَلَمَّا رُدَّ الْمُشْرِكُونَ آنْهَزَمُوا إلى الطَّائِفِ وتَحَصَّنُوا بِهَا، فَتَبِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَاصَرَهُمْ، ثُمَّ صَالَحَ أَهْلَ الطَّائِفِ.

وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمُسْلِمِينَ إلى الجِعْرَانَةِ فَوَزَّعَ أَمْوَالَ هَوازِنَ، وَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ، وَأَعْطَى المُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ، ثُمَّ سَارَ إلى مَكَّة، وَآعْتَمَرَ مِنْ الجِعْرَانَةِ. وَبَقِيَ مُدَّةً في مَكَّةَ ثُمَّ خَرَجَ مِنها إلى المَدِينَةِ، وخَلَّفَ عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ أميراً على مَكَّةَ ومَعَهُ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ يُفَقِّهُ النَّاسَ في أُمُور دِينِهِمْ.

وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى المَدِينَةِ، وَآسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا فَرِحِينَ، إذْ عَادَ إلَيْهِمْ نَبِيُّهُمُ الكَرِيمُ الذي يَنْعَمُونَ بِقُرْبِهِ حَيْثُ يُرْشِدُهُمْ إلى الخَيْرِ وَيدُلُّهُمْ على الطَّرِيقِ القَوِيم. أَمَّا الفَضْلُ بنُ العَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فَقَدْ وَجَدَ في نَفْسِهِ المُسْلِمَ الجَدِيدَ الذي لا يَزَالُ بِحَاجَةٍ إلى أَنْ يَبْقى بجانِبِ ابنِ عَمِّهِ يَأْخُذُ منهُ ما فَاتَهُ، وَيُعَوِّضُ ما مَضَى، لِذا حَاوَلَ أَنْ يَبقى أَكْثَرَ وَقْتِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَفِيدُ منه.

كُنِّيَ الفَضْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَبا العَبَّاسِ ، كَمَا كُنِّيَ أبا عَبْدِاللَّهِ، وَفي المَدِينَةِ وَلِشِدَّةِ حِرْصِهِ أَنْ يَبْقَى بِجَانِبِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِيَحْصَل عَلَى الذي فَاتَهُ، لِذَا فَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ أَبُو مُحَمَّدٍ.

شَعَـرَ الفَضْـلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، أَنَّـهُ دُونَ المُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ لِذَا كَانَ صَامِتاً أَمَامَ الأَوَائِلِ يَسْتَمِعُ مِنْهُمْ، وَصَامِتاً أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَتَلَقَّى مِنْهُ، وَيُنَفِّذُ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ، يُحَاوِلُ أَنْ يَشْتَرِكَ في كُلِّ سَرِيَّةٍ يُرْسِلُها نَبِيُّ اللَّهِ لِيَحْصَلَ عَلَى الأَجْرِ مِمَّا قَدْ سَلَفَ، أو يَرْبَحَ الـرِّبْحَ الكَبِيـرَ بِنَوَالِهِ الشَّهَادَةَ.

وَحَـجَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، في السَّنَـةِ العَاشِرَةِ «حَجَّةَ الوَدَاعِ» فَأَرْدَفَ ابنَ عَمِّهِ الفَضْلَ وَرَاءَهُ، وَكَانَ خَلْفَـهُ في الطَّرِيقِ، وفي المَنَـاسِـكِ. حَتَّى عُـرِفَ بـ (رِدْفِ رَسُولِ اللَّهِ).

عـادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ سَرَايَا المُسْلِمِينَ تَنْطَلِقُ إِلى جِهَـاتٍ كَثِيرَةٍ. وَيَحْرِصُ الفَضْلُ على التَّطَوُّعِ في صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ.

فَلَمْ يَلْبَثْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنِ ٱنْتَقَلَ إلى الرَّفِيقِ الأَعْلَى فَجُهِّزَ، وَنَزَلَ في قَبْرِهِ لِدَفْنِهِ الفَضْلُ، وقُثَمُ ابنا عَمِّهِ العبَّاسِ، وابنُ عَمِّهِ الآخَرُ عَليُّ بنُ أَبي طَالِبٍ، وَمَوْلاَهُ شُقْرانُ.

وَٱنْطَلَقَتْ جُيُوشُ الفَتْحِ بَعْدَ حُرُوبِ الرِّدَّةِ نَحْوَ الشَّامِ، وَنَحْوَ العِرَاقِ، وَسَارَ الفَضْلُ نَحْوَ الشَّامِ وَلَمْ يَعُدْ يُفَضِّلُ البَقَاءَ في المَدِينَةِ فقَدِ ٱرْتَحلَ حَبِيبُهُ عَنْهَا، وَٱلْتَحَقَ بالرَّفِيقِ الأَعْلَى.

خَاضَ الفَضْلُ كُلَّ المَعَارِكِ التي وَقَعَتْ في بِلادِ الشَّامِ قَبْلَ ٱرْتِحَالِهِ عَنِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَبْلَى فِيهـا كُلِّهـا البَـلاءَ الحَسَنَ، وما خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةٍ إلاَّ وَقَدْ أُثْخِنَ بالجِرَاحِ حَتَّى يُظَنَّ أَنَّهُ قَدِ ٱسْتُشْهِدَ، لِذَا فَإِنَّ هنـاكَ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ ٱسْتِشْهَادِهِ في كُلِّ مَعْرَكَةٍ خَاضَها.

لَقَدِ ٱشْتَرَكَ في مَعَـارِكِ أَجْنَادين، وَفَحْـلٍ، واليَرْمُـوكِ، وكانَتِ الأَبْطَالُ تَتَحَاشَاهُ، وتَفِرُّ مِنْ أَمَامِهِ، ويَخْتَرِقُ صُفُـوفَ الأَعْدَاءِ، وَيَتْرُكُ وَرَاءَهُ طَرِيقاً مَفْتُوحَةً في صُفُوفِ الرُّومِ مَلِيئَةً بالجُثَثِ، وَكَمْ قِيلَ لَهُ: ٱرْفِقْ بِنَفْسِكَ.

وَيَشْعُرُ الفَضْلُ دَائماً أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السَّابِقِينَ إلى الإِسْلاَمِ

الَّـذِينَ شَهِـدُوا بَـدْراً وَالمَشَـاهِـدَ الأُولى مَـعَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِذَا عَلَيْهِ أَنْ يَظْفَرَ بِالشَّهَـادَةِ فَيَسْعَى لها، وإِنْ لَمْ تُكْتَبْ فَقَدْ نَالَ الأَجْرَ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ بِمَا سَعَى.

وَفي السَّنَـةِ الثَّامِنَـةَ عَشْـرَةَ أَصَـابَ المُسْلِمِينَ طَـاعُـونُ «عَمْـوَاسٍ»[1]، وَكَـانَ مِنْ ضَحَـايَـاهُ عَـدَدٌ غَيْـرُ قَلِيـلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ وَرِجَـالاتِهِمْ وَمِنْهُمْ: أَبُـو عُبَيْـدَةَ بنُ الجـراحِ، وَشُـرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَـةَ، وَيزيـدُ بنُ أَبي سُفْيَـانَ، والفَضْـلُ بنُ العبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، جميعاً.

ٱبْتَسَمَتْ شَفَتَا الفَضْلِ رَاضِياً بما قَدَّمَ مِنْ أَعْمَالٍ، وَمَا قَامَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الجِهَادِ، ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ الكَرِيمَةُ إلى بَارِئِها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

لَمْ يُنْجِبِ الفَضْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوْلاداً ذُكُوراً، لِذَا فَقَد ٱنْقَطَعَ عِقْبُهُ، وَتَرَكَ بِنْتاً وَاحِدَةً، هِيَ أُمُّ كُلْثُـومٍ، وَأُمُّها صَفِيَّةُ بِنْتُ مَحْمِيَّةَ مِنْ سَعْدِ العَشِيرَةِ.

تَزَوَّجَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ الفَضْلِ ثُمَّ فَارَقَها فَتَزَوَّجَها أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ.

---

(١) عَمْـوَاس: بلدةٌ بفلسطين على مَقْـرُبَةٍ من القُـدسِ وإلى الغرب منها. وكانَ أولَ ما ظهرَ الطاعونُ فيها لذا نُسِبَ إليها.

بُنَاة دَوْلَـةِ الإسْلام

- ١٢ -

ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم

جعفر بن أبي طالب

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

وَتزَوَّجَ عَبْدُالمُطَّلِبِ بنُ هَاشِمٍ عِـدَّةَ زَوْجَـاتٍ أَنْجبْنَ لَهُ عَشْرَةَ أَوْلَادٍ ذُكوراً، كَانَ الزُّبَيْـرُ، وأَبُو طَـالِبٍ (عَبْدُمَنَـافٍ)، وعَبْــدُاللَّهِ مِنْ وَاحِــدَةٍ مِنْهُنَّ هي: فَــاطِمَــةُ بِنْتُ عَـمْــروٍ المَخْزُومِيَّةُ، فَهُمْ أَشِقَّاءُ.

وَوُلِدَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّـلامِ، وَلَمْ يُدْرِكْ أباهُ، وتُوُفِّيَتْ أُمُّهُ بَعْدَ مُدَّةٍ، وَلَحِقَها جَدُّهُ، فَكَفِلَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ بِصِفَتِهِ شَقِيقُ وَالِدِهِ، وَكَانَ يُحِبُّهُ حُبّاً جَمّاً، ثُمَّ صَارَ يَأْخُذُهُ مَعَهُ في تِجارَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَبْنَاؤُهُ قَدْ كَبِرُوا بَعْدُ. وَكَانَ أبو طَالِبٍ مُتَزَوِّجـاً مِنَ آبْنَةِ عَمِّـهِ فاطِمَـةَ بنْتِ أَسَدِ بنِ هَاشِمٍ، وأَنْجَبَتْ لهُ مِنَ الوُلْدِ عِدَّةً.

وَشَبَّ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، وَتَزَوَّجَ مِنْ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، وَكَانَتْ ثَرِيَّةً، كَثِيرَةَ المَالِ فَأَتْجَرَ بِمَالِهَا، وَكَانَ، عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ، شَدِيدَ العَطْفِ، كَثِيرَ البِرِّ بِأَهْلِهِ، عَظِيمَ الحُبِّ للنَّاسِ عَامّةً، وَنَظَرَ إلى عَمِّهِ

أبِي طَالِبٍ فَوَجَدَهُ كَثِيرَ العِيَالِ، قَلِيلَ المالِ، وأَصَابَ النَّاسَ شِدَّةٌ وَجَاءَتْهُمْ سَنَةُ قَحْطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعَمِّهِ العَبَّاسِ، وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: «يَا عَبَّاسُ، إنَّ أَخَاكَ أَبا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ ما تَرَى مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بنا إلَيْهِ فَلْنُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخُذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلاً، وَتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلاً فَنَكِلُهُمَا عَنْهُ»، فقال العَبَّاسُ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ، فقالا لهُ: إنّا نُرِيدُ أنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ، حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ ما هُمْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا أبُو طَالِبٍ: إذا تَرَكْتُما لي عَقِيلاً فَاصْنَعَا ما شِئْتُمَا. فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيّاً وَضَمَّهُ إلَيْهِ، وَأَخَذَ العَبَّاسُ جَعْفَراً وَضَمَّهُ إلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ عُمْرُهُ يَتَجَاوَزُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ آنذاكَ. وكَانَ جَعْفَرُ أَكْبَرُ مِنْ عَلِيٍّ بِعَشْرِ سِنِينَ، وَعَقِيلُ أَكْبَرُ مِنْ جَعْفَرٍ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَكَذا طَالِبٌ يَكْبُرُ عَقِيلاً. فَجَعْفَرُ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِحَوالَيْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَدَأَ يَدْعُو قَوْمَهُ، وَأَسْلَمَ أَفْرَادٌ إثْرَ أَفْرَادٍ، وَأَسْلَمَ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَسْلَمَ قَبْلَهُ أَخُوهُ عَلِيٌّ، أَمَّا وَالِدُهُ أبو طَالِبٍ

فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ حُبِّهِ الشَّدِيدِ لابنِ أَخِيه مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدِفَاعِهِ عَنْهُ، وَحِمَايَتِهِ له إلَّا أَنَّه لَمْ يُسْلِمْ خَوْفاً مِنْ قَوْمِهِ، وَكَذَا ابنُهُ عَقِيلُ.

وَشَبَّ جَعْفَـرٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، وَٱخْتَـارَ أَسْمَـاءَ بِنْت عُمَيْسٍ زَوْجاً لَهُ، وَهِيَ أُخْتُ زَوْجِ عَمِّهِ الحَمْزَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، سَلْمَى بِنْتِ عُمَيْسٍ، وأُخْتُ زَوْجِ عَمِّـهِ العَبَّـاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كانَ في بَيْتِهِ، لُبَابَةَ بِنْتِ الحارِثِ أختُها لأُمِّها.

وَٱشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ عَلَى الذِينَ أَسْلَمُـوا شِـدَّةً بَـالِغَـةً، وَلَمَّـا رَأَى رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مـا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ البَـلَاءِ، وَمَا هُـوَ فِيه مِنَ العَـافِيَةِ، بِمَكَـانِهِ مِنَ اللَّهِ ثُمَّ بِـدفَاعِ عَمِّـهِ أَبي طالبٍ عَنْـهُ، وَأَنَّهُ لا يَقْـدِرُ على أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ البَلاءِ، قَالَ لَهُمْ: لَوْ خَرَجْتُمْ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلكاً لا يَظْلِمُ وَلَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجاً مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. فَخَرَجَ عِنْدَ ذَلِكَ المُسْلِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ، مَخَافَةَ الفِتْنَةِ، وَفِراراً إلى اللَّهِ بِدِينِهِمْ، فَكَانَتْ أَوَّلَ

هِجْرَةٍ في الإِسْلامِ، وكانَ عَدَدُ الذِينَ خَرَجُوا عَشَرَةً، وكانَ عليهم عُثْمَانُ بنُ مَظْعُونٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في الحبشة:

ثُمَّ خَرَجَ جَعْفَرُ بنُ أَبي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَعَهُ زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَتَتَابَعَ المُسْلِمُونَ حَتَّى آجْتَمَعُوا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، فَكَانُوا بِها، مِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ بِأَهْلِهِ مَعَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ بِنَفْسِهِ لا أَهْلَ لَهُ مَعَهُ. وَكَانَ جَمِيعُ مَنْ لَحِقَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَهَاجَرَ إِلَيْهَا مِنَ المُسْلِمِينَ سِوَى أَبْنَائِهِمُ الَّذِينَ خَرَجُوا بِهِمْ مَعَهُمْ صِغَاراً وَوُلِدُوا بِها ثَلاثَةً وَثَمانِينَ رَجُلاً، وَعَلَيْهِمْ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ.

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَمِنُوا وَآطْمَأَنُّوا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا بِها دَاراً وقَراراً، آئتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا فِيهِمْ مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ جَلْدَيْنِ إلى النَّجَاشِيِّ، فَيَرُدُّهُمْ عَلَيْهِمْ، لِيَفْتِنُوهُمْ في دِينِهِمْ، وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ دَارِهِم التي آطْمَأَنُّوا بِهَا وأَمِنُوا فِيها، فَبَعَثُوا عَبْدَاللَّهِ بنَ أبي رَبِيعَةَ[1]، وَعَمْرَو بْنَ

---

(١) عَبدُالله بنُ أبي ربيعة المخزومي: كان اسمهُ بُحيري، فعندما أسلَمَ سمّاهُ رَسُول الله، صلى الله عليه وسلم، عبدَالله، وهو والدُ =

العَاصِ بنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ[1]، وَجَمَعُوا لَهُما هَدَايا للنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ، ثُمَّ بَعَثُوهما إِلَيْهِ فِيهِمْ.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أمُّ المُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[2]: لمَّا نَزَلْنا أَرْضَ الحَبَشَةِ جَاوَرْنا بِها خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا على دِينِنَا، وعَبَدْنا اللَّهَ لا نُؤْذَى ولا نَسْمَعُ شَيئاً نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشاً آئتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا إلى النَّجَاشِيِّ فِينا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ جَلْدَيْنِ، وأَنْ يُهْدُوا للنَّجَاشِيِّ هَدَايا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وكانَ مِنْ أَعْجَبِ ما يَأْتِيهِ مِنْهَا الأَدَمُ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَماً كَثِيراً، ولم يَتْرِكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقاً إلَّا أَهْدَوْا له هَدِيَّةً،

= عمرَ بنِ عبدِالله بن أبي ربيعة الشاعر الغزلي المعروف، ووالدُ الحارثِ أميرِ البصرةِ المعروف بالقباع. وهو ابن عمِّ أبي جهل، وأخوه لأمّه أسماء بنت محربة التميمية.

(١) عمرو بن العاص بن وائل السهمي: القائد الإسلامي المشهور، فاتح مصر، وأحد دهاة العرب.

(٢) أمّ سلمة: هندُ بنت أبي أميةَ بن المغيرة المخزوميةُ: كانَتْ زوج ابنِ عمِّها أبي سلمة عبدِالله بن عبدالأسد بن هلال المخزومي، هاجرت معهُ إلى الحبشة، وأنجَبَتْ له هناك. وعادَتْ معه إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة، وتبعته بعد عناءٍ، وشهدَ بدراً، وأحداً وجُرِحَ يومذاك وعوفي، ثم انتقض عليه ومات في بداية السنةِ الرابعةِ، وهو ابن عمةِ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما مات تزوجها رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم.

ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَاللَّهِ بنَ أَبي رَبِيعَةَ، وَعَمْرَو بنَ العَاصِ، وَأَمَرُوهُمَا بِأَمْرِهِمْ، وَقَالوا لَهُمَا: ٱدْفَعَا إلى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَـدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّما النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمّ قَدِّما إلى النَّجاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُم سَلاهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، قالتْ: فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إلاَّ دَفَعا إلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّما النَّجَاشِيَّ، وَقَالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَـدْ ضَوَى[1] إلى بَلَدِ المَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا في دِينِكُمْ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ، وَقَـدْ بَعَثَنَا إلى المَلِكِ فِيهِمْ أَشْـرَافُ قَـوْمِهِمْ لِيَـرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا المَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْـهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إلَيْنَا ولا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْناً[2]، وأَعْلَمُ بِما عَابُوا عَلَيْهِمْ؛ فقَالُوا لَهُما: نَعَم. ثُمَّ إِنَّهُما قَدَّمَا هَدَايَاهُما إلى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فقَالاَ لَهُ: أَيُّها المَلِكُ، إنّه قَدْ ضَوَى إلي بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا في دِينِكَ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ ٱبْتَدَعُوهُ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ ولا

---

(١) ضوى: لجأ ولصق وأتى ليلاً.

(٢) أعلى بهم عيناً: أبصر بهم.

أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ، فَهُم أعلى بِهِم عَيناً وَأَعْلَمُ بما عَابُوا عَلَيْهِم وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إلى عَبْدِاللَّهِ بن أبي رَبيعَةَ وَعَمْرِو بنِ العَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلامَهُمُ النَّجَاشِيُّ. قَالَتْ: فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقَا أيُّها المَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِم عَيْناً، وَأَعْلَمُ بما عَابُوا عَلَيْهِم، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِما فَلْيَرُدَّاهُمْ إلى بِلادِهِم وَقَوْمِهِمْ. قَالتْ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لاهَا اللَّهِ، إِذنْ لا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْهِمَا، ولا يُكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُوني، وَنَزَلُوا بِلادِي، وآخْتَارُوني على مَنْ سِوَايَ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلُهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذانِ في أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إلى قَوْمِهِمْ، وإِنْ كَانُوا على غَيْرِ ذَلكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوارَهُمْ ما جَاوَرُوني.

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إلى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ آجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ما تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إذا جِئْتُمُوهُ؟ قالوا: نَقُولُ ـ واللَّهِ ـ مَا عَلِمْنَا، وما أَمَرَنا بِهِ نَبِيُّنَا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَائِناً في ذَلِكَ ما هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا جَاؤُوا، وقَدْ دَعَا

النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: ما هَذا الدِّينُ الذي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ في دِينِي، ولا في دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ المِلَلِ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الذي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أبي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّها المَلِكُ، كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيتَةَ، وَنَأْتي الفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ؛ فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ ما كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ والأَوْثانِ، وَأَمَرَنا بِصِدْقِ الحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، والكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ والدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وقَذْفِ المُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيَامِ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإسْلامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاء بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَعَبَدْنا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنا، وَأَحْلَلْنا ما أَحَلَّ لَنا، فَعَدَا عَلَيْنا قَوْمُنا، فَعَذَّبُونا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونا إلى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ ما كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ،

فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونا وَضَيَّقُوا عَلَيْنا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إلى بِلادِكَ، وآخْتَرْنَـاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ؛ ورَغِبْنَـا في جِوَارِكَ، وَرَجَوْنا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّها المَلِكُ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِه عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ: نَعَمْ؛ فقالَ لَهُ النَّجاشِيُّ: فَآقْرَأْهُ عَلَيَّ؛ قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْراً مِنْ «كهيعصٓ». قَالَتْ: فَبَكَى واللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى آخْضَلَّتْ لِحْيَتُـهُ، وَبَكَتْ أَسَـاقِفَتُـهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَـاحِفَهُمْ، حِينَ سَمِعُـوا مَـا تَـلا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَـالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ: إنَّ هَذا والذي جَاءَ بِه عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكاةٍ وَاحِدَةٍ، آنْطَلِقَا، فَلاَ واللَّهِ لا أُسْلِمُهُمْ إلَيْكُمَا ولا يُكادون.

قَـالَتْ: فَلَمَّـا خَـرَجَـا مِنْ عِنْـدِهِ، قَـالَ عَمْـرُو بنُ العَـاصِ: وَاللَّهِ لآتِيَنَّـهُ غَـداً عَنْهُمْ بمـا أَسْتَـأْصِـلُ بِـهِ خَضْرَاءَهُمْ[1]. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ بنُ أَبي رَبِيعَةَ، وكَانَ أَتْقى الرَّجُلَينِ فِينَا: لا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَاماً، وإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونا؛ قَالَ: وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعَمُونَ أَنَّ عِيسَى بنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ. قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ مِنَ الغَدِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّها المَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ في عِيسَى بن مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيماً، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ

(١) خضراءهم: شجرتهم التي تفرّعوا منها.

فَسَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ. قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ. قَالَ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُها قَطُّ. فَٱجْتَمَعَ القَوْمُ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ مَاذا تَقُولُونَ في عِيسَى بنِ مَرْيَمَ إذا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالوا: نَقُولُ ـ واللَّهِ ـ ما قَالَ اللَّهُ، وما جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَائِناً في ذَلِكَ ما هُوَ كَائِنٌ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: ماذا تَقُولونَ في عِيسَى بنِ مَرْيَمَ؟.

قَالَتْ: فَقَالَ جَعْفَرُ بنُ أَبي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الذي جَاءَنا بِهِ نَبِيُّنا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: هُوَ عَبْدُاللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوْحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ العَذْرَاءِ البَتُولِ.

قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ بِيَدِهِ إلى الأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْها عُوداً ثُمَّ قَالَ: واللَّهِ ما عَدَا عِيسَى بنُ مَرْيَمَ ما قُلْتَ هَذا العُودَ.

قَالَتْ: فَتَنَاخَرَتْ بَطارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ.

فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ، ٱذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ[1] بِأَرْضِي، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَبَّكُمْ غَرِمَ، ما أُحِبُّ أَنَّ لي دَبْراً[2] مِنْ ذَهَبٍ، وَأَنِّي آذَيْتُ

---

(١) شيوم: أحرار، وقيل: سيوم أي: آمنون.

(٢) الدبر: الجبل في لغة أهل الحبشة.

رَجُلاً مِنْكُمْ. رُدُّوا عَلَيْهِما هَدَايَاهُمَا فَلاَ حَاجَةَ لي بِها، فَوَاللَّهِ ما أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرَّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذُ الرَّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعُهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ: فَخَرَجا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُوداً عَلَيْهِمَا ما جَاءَا بِه، وَأَقَمْنا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ.

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ إنَّا لَعَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الحَبَشَةِ يُنَازِعُهُ في مُلْكِهِ.

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُنا حَزِنَّا حُزْناً قَطُّ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْنَا مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفاً أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ الرَّجُلُ على النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنا ما كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ.

قَالَتْ: وَسَارَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ، وَبَيْنَهُمَا عَرْضُ النِّيلِ.

قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقِيعةَ القَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينا بالخَبَرِ.

قَالَتْ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ: أَنا.

قالُوا: فَأَنْتَ. وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ القَوْمِ سِنّاً.

قَالَتْ: فَنَفَخُوا لَـهُ قِرْبَـةً فَجَعَلَها في صَـدْرِهِ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْها حَتَّى خَرَجَ إلى نَاحِيَةِ النِّيلِ التي بِها مُلْتَقى القَوْمِ، ثُمَّ آنْطَلَقَ حَتَّى حضَرَهُمْ.

قَالَتْ: فَدَعَوْنا اللَّهَ تَعالَى لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ، والتَّمْكِين لَهُ في بِلادِهِ.

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ إنَّا لَعَلَى ذَلِكَ مُتَوَقِّعُونَ لِمَا هُوَ كَائِنٌ، إذْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ يَسْعَى، فَلَمَعَ[1] بِثَوْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ألا أَبْشِرُوا، فَقَدْ ظَفِرَ النَّجَاشِيُّ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ، وَمَكَّنَ لَهُ في بِلادِهِ.

قالتْ: فَوَاللَّهِ ما عَلِمْتُنا فَرِحْنا فَرْحَةً قَطُّ مِثلَها.

قَالَتْ: وَرَجَعَ النَّجَاشِيُّ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ، وَمَكَّن لَهُ في بِلادِهِ، وآسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ في خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى قَدِمْنا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ بِمَكَّةَ.

وَبَلَغَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، الذينَ خَرَجُوا إلى أَرْضِ الحَبَشْةِ، إِسْلاَمُ أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَقْبَلوا

---

(١) لمع بثوبه: إذا رفعه وحرّكه ليراه غيره فيجيء إليه.

لَمَّا بَلَغَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْ مَكَّةَ بَلَغَهُمْ أَنَّ ما كَانُوا تَحَدَّثُوا بِهِ مِنْ إِسْلامِ أَهْلِ مَكَّةَ كَانَ بَاطِلاً، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلّا بِجوارٍ أو مُسْتَخْفِياً. وَكَانَ عَدَدُ الذينَ عَادوا مِنَ الحَبَشَةِ ثَلاثَةً وثَلاثِينَ رَجُلاً، مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ في مَكَّةَ حَتَّى هَاجَرَ إلى المدينة، وَشَهِدَ المَشَاهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الهِجْرَةَ وَفَاتَتْهُ مَشَاهِدُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى تَمَكَّنَ مِنَ الهِجْرَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ في مَكَّةَ مُسْلِماً، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الهِجْرَةَ.

أَمَّا جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ بَقِيَ في الحَبَشَةِ عنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَقِيَ هُنَاكَ مَعَ مَنْ مَعَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في المَدِينَةِ حَتَّى إذا أَزْمَعَ السَّيْرَ إلى خَيْبَرَ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى النَّجَاشِيِّ عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ لِيَأْتِي بِالمُسْلِمِينَ في الحَبَشَةِ، فَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ مَعَ عمروٍ سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلاً عَلَيْهِمُ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ في الحَبَشَةِ حَتَّى ٱنْتَقَلَ إلى مَكَّة فيما بَعْدُ.

عَادَ جَعْفَرٌ وَمَعَهُ زَوْجُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وَأَوْلادُهُ وَقَدْ

وُلِدُوا في الحَبَشَةِ وَهُمْ: عَبْدُاللّٰهِ، وَمُحَمَّدٌ، وَعَوْنٌ. وَصَلَ جَعْفَرٌ، رَضِيَ اللّٰهُ عَنهُ، وَصَحْبُهُ إلى المَدِيْنَةِ وَرَسُولُ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَائِبٌ عَنْهَا في خَيْبَرَ، فَلَمّا رَجَعَ رَسُولُ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ فُتِحَتْ لَهُ خَيْبَرُ آسْتَقْبَلَهُ جَعْفَرٌ، فَقَبَّل رَسُولُ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ عَيْنَيهِ، وَآلْتَزَمَهُ، وَقَالَ: «ما أَدْرِي بِأَيِّهِما أَنا أُسَرُّ بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟».

في عمرة القضاء:

وَسَارَ رَسُولُ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَلْفَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ إلى مَكَّةَ فَأَدَّوا عُمْرَةَ القَضَاءِ في شَهْرِ ذِي القِعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ، وَعَادُوا بَعْدَها إلى المَدِينَةِ. وَكَانَ جَعْفَرُ مَعَ رَسُولِ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ في تِلْكَ العُمْرَةِ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي».

في المدينة:

وَرَأى عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ آبْنَةَ عَمِّهِ حَمْزَةَ تَطُوفُ بَيْنَ الرِّجَالِ في الشَّارِعِ وَهِيَ صَغِيرَةٌ فَأَخَذَها وَأَلْقَاها إلى زَوْجِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللّٰهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَٱخْتَلَفَ هُوَ وَأَخُوهُ جَعْفَرٌ وَزَيْدُ بنُ حَارِثَةَ عَلَيْها، حَتَّى ٱرْتَفَعتْ أَصْوَاتُهُمْ، وَأَيْقَظُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ نَوْمِهِ، قَالَ: «هَلُمُّوا أَقْضِ بَيْنَكُمْ فِيها وفي غَيْرِها».

قَالَ عَلِيٌّ: ٱبْنَةُ عَمِّي وَأَنا أَخْرَجْتُها، وَأَنا أَحَقُّ بِها.

قَالَ جَعْفَرُ: ٱبْنَةُ عَمِّي، وَخَالَتُها عِنْدِي.

قَالَ زَيْدٌ: ٱبْنَةُ أَخِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كُلِّ وَاحِدٍ قَوْلاً رَضِيَهُ، وَقَضَى بِها لِجَعْفَرٍ، وَقَالَ: «الخَالَةُ وَالِدَةٌ». فَقَامَ جَعْفَرُ فَحَجَل حَوْلَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيهِ السَّلامُ: «ما هَذا؟».

قال: شَيْءٌ رَأَيْتُ الحَبَشَةَ يَصْنَعُونَهُ بِمُلُوكِهِمْ.

وَٱسْتَمَرَّتْ قُوَّةُ المُسْلِمِينَ في زِيادَةٍ، وَأَسْلَمَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، في هَذِهِ المُدَّةِ.

في مؤتة:

كَانَتْ بِلادُ الشَّامِ يَوْمَذَاكَ تَحْتَ نُفُوذِ وَسَيْطَرَةِ الرُّومِ، وَكَانَ الغَسَاسِنَةُ عُمَّالَهُمْ عَلى المَنَاطِقِ الجَنُوبِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الجِهَاتِ، وَلَهُمْ نُفُوذٌ عَلَى القبائِلِ العَرَبِيَّةِ المُتَنَفِّذَةِ هُنَاكَ مِثْلِ: بَلِيٍّ، وَبَهْرَاءَ، وَبَكْرٍ، وَلَخْمٍ، وجُذَام، وغَسَّانَ، ووَائِلٍ. وكانَ مَلِكُ الغَساسِنَةِ هو: الحَارِثُ بنُ أبي شِمْرٍ الغَسَّانيُّ.

وَلَمّا أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الكُتُبَ إلى المُلُوكِ والأُمَرَاءِ أَرْسَلَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَرْسَلَ لَهُ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، والحَارِثِ بنِ أبي شِمْرِ كَبِيرِ الغَسَاسِنَةِ. وَعِنْدَما وَصَلَ الحَارِثُ بنُ عُمَيْرٍ الأَزْدِيُّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى الحَارِثِ بنِ أبي شِمْرٍ إلى مُؤْتَةَ لَقِيَهُ عَامِلُهُ شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْرٍو الغَسَّانِيُّ وقَتَلَهُ.

وَذَهَبَتْ جَمَاعَةٌ يُقَدَّرُ عَدَدُها بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنَ المُسْلِمِينَ إلى جُنُوبِ بِلادِ الشَّامِ تَدْعُو إلى الإسْلامِ، فَقَبَضَتْ عَلَيهِمْ رِجَالاَتُ الحَارِثِ بنِ أَبي شِمْرٍ الغَسَّانِيِّ وَقَتَلَهُمْ، كَمَا أَنَّ الحَارِثَ نَفْسَهُ كانَ يُفَكِّرُ بِغَزْوِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ وَٱحْتِلالِ المَدِينَةِ، ويُطْلِقُ تَصْرِيحاتِهِ بِذَلِكَ.

لِذَا رَأى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غَزْوَ جَنُوبي بِلَادِ الشَّامِ لِتَأْدِيبِ تِلْكَ القَبَائِلِ المُتَنَصِّرَةِ، وَلإِخَافَةِ الرُّومِ حَتَّى لا يَقُومُوا عَنْ طَرِيقِ عُمَّالِهِمْ الغَسَاسِنَةِ بِالهُجُومِ على الجَزِيرَةِ. وَٱسْتَنْفَرَ ثَلاثَةَ آلافٍ مِنْ أَصْحَابِه، فَٱجْتَمَعُوا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ المَدِينَةِ إلى الشَّمالِ مِنْها وهُنَاكَ أَعْطَاهُمْ مُهِمَّتَهُمْ وَعَيَّنَ عَلَيْهِمْ قَادَتَهُمْ. فَقَالَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ أَمِيرُ النَّاسِ، فَإِنْ قُتِلَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ فَجَعْفَرُ بنُ أَبي طَالِبٍ، فَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرُ فَعَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ».

لمَّا وَدَّعَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ مَعْ مَنْ وَدَّعَ مِنْ أُمَرَاءِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَكَى، فَقَالُوا: ما يُبْكِيكَ يا ابنَ رَوَاحَةَ؟ فَقَالَ: أَمَا واللَّهِ ما بي حُبُّ الدُّنْيَا ولا صَبَابَةٌ بِكُمْ، وَلكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقْرَأُ آيةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجلَّ، يَذْكُرُ فِيها النَّارَ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾، فَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ لي بالصَّدْرِ بَعْدَ الوُرُوْدِ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: صَحِبَكُمُ اللَّهُ ودَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدَّكُمْ إلَيْنا صَالِحِينَ، فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً
وَضَرْبَةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبدَا

أَوْ طَعْنَـةً بِيَـدَيْ حَـرَّانَ مُجْهِـزَةً
بِحَـرْبَـةٍ تَنْفِـذُ الأَحْشَـاءَ والكَبِـدَا
حَتَّى يُقَالَ إذا مَـرُّوا عَلَى جَـدَثي
أَرْشَـدَهُ اللَّهُ مِنْ غَـازٍ فَقَـدْ رَشَـدا

وَسَارَ الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ، وَعَلِمَتِ القَبَائِلُ المُتَنَصِّرَةُ بِمَسِيرَتِهِ فَحَشَدَتْ مِائَةَ أَلفٍ، وَطَلَبَتْ مِنَ الرُّومِ نَجْدَةً، فَأَمَدُّوها بِمَائَةِ أَلْفٍ آخَرِينَ.

وَصَلَ الجَيْشُ الإِسْلامِيُّ إلى مُعَانَ، وعَلِمَ بِأَعْدَادِ الرُّومِ ، فَوَقَفَ يِدْرُسُ المَوْقِفَ العَسْكَرِيَّ، ثَلاثَةُ آلافٍ أَمَامَ مِائَتَيْ أَلْفٍ.

رَأَى بَعْضُهُمْ أَلاَّ يَدْخُلُوا المَعْرَكَةَ حَتَّى يَسْتَشِيرُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في المَدِينَةِ، وَرَأَى آخَرُونَ أَنَّ الأَعْدَاءَ لا يَنْتَظِرُونَهُمْ، وَدُخُولُ المَعْرَكَةِ وَاجِبٌ فَهُوَ فَوْزٌ أَوْ شَهَادَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ، وَحَمَّسَ ابنُ رَوَاحَةَ المُقَاتِلِينَ بِكَلِمَةٍ أَلْقَاها.

أَصْدَرَ زَيْدٌ أَمْرَهُ بِالتَّحَرُّكِ لِمُلاَقَاةِ الأَعْدَاءِ، فَٱلْتَقَوْا عِنْدَ بَلْدَةِ «مَشَارِفَ»، وَخَوْفاً مِنَ التَّطْوِيقِ ٱنْحَازَ المُسْلِمُونَ إلى بَلْدَةِ «مُؤْتَة».

عَبَّأَ المُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ كَمَا عَبَّأَ الرُّومُ وَحُلَفاؤُهُمْ. فَكَانَ جَيْشَانِ: أَحَدُهُما عَرَمْرَمٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، وَيَسُدُّ مَا بَيْنَ المَشْرِقَيْنِ، يَتفَاهَمُ النَّاسُ بالتَّراجِمِ، حَتَّى يُسْمَعَ لَهُ هَدِيرٌ، وَكُلُّهُ حَدِيدٌ لا تَرَى إلا الحَدَقَ، يَعْلُو فَوْقَهُ الغُبَارُ مِنْ أَقَلِّ حَرَكَةٍ. وَجَيْشٌ صَغِيرٌ، يَصْفُو الجَوُّ فَوْقَهُ، تُفْهَمُ كَلِمَةٌ تَتَرَدَّدُ باسْتِمْرَارٍ: اللَّه... اللَّهُ أَكْبَرُ، وَمَا النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

كَانَ الرُّومُ يَتَوَقَّعُونَ مَعْرَكَةً لا تَزِيدُ عَلَى السَّاعةِ أَو دُونَ ذَلِكَ، يُبِيدُونَ فِيهَا المُسْلِمِينَ جَمِيعاً أو يَحْمِلُونَهُمْ كُلَّهُمْ أَسْرَى... وَتَقَدَّمَ الرُّومُ وأَحْلاَفُهُمْ كَالمَوْجِ الهَائِجِ عَلَى مُؤْتَةَ، فَوَجَدُوا قِلَّةً مِنَ الرِّجَالِ أَمَامَهُمْ، فَأَرادُوا الإِجْهَازَ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُمْ صَمَدُوا لَهُمْ، وَصَمَدُوا، وَصَمَدُوا صُمُوداً يَقِفُ التَّارِيخُ أَمَامَهُ مُنْحَنِياً، وَٱضْطَرَّتْ أَعْدَادٌ مِنَ الرُّومِ أَنْ تَلُوذَ بِالفَرَارِ.

ٱسْتَمَرَّ المُسْلِمُونَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ صَامِدِيْنَ أَمَامَ هَجماتِ الرُّومِ وَحُلَفَائِهِمْ العَنِيفَةِ، وَفِي اليَوْمِ السَّادِسِ ٱشْتَدَّتِ الهَجَمَاتُ، وَوَقَفَ المُسْلِمُونَ بِثَبَاتٍ، يَتَقَدَّمُهُمْ قَائِدُهُمْ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى مَزَّقَتْهُ رِمَاحُهُمْ، وَهُوَ مُقْبِلٌ كَالأَسَدِ الهَصُورِ.

وَكَانَ جَعْفَرٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُلازِماً لِلْقَائِدِ العَامِ، فَلَمَّا شَاطَ في رِمَاحِ العَدُوِّ سَارَعَ جَعْفَرٌ وَٱسْتَلَمَ عَلَمَ الجَيْشِ مِنْ يَدِ زَيْدٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الأَرْضِ. وَتَوَلَّى مَسْؤُولِيَّةَ القِيَادَةِ، فَقَادَ المُسْلِمِينَ، وَقَاتَلَ الكُفَّارَ قِتالاً ضَارِياً أَذْهَلَهُمْ بِهِ.

وَكَانَ جَعْفَرٌ يُقَاتِلُ عَلَى فَرَسٍ شَقْرَاءَ لَهُ فَأَقْحَمَهَا وَسَطَ المَعْرَكَةِ المُصْطَخِبِ، واللِّوَاءُ في يَدِهِ مَرْفُوعاً، وَالمُسْلِمُونَ مِنْ وَرَائِهِ يَصِيحُونَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَيُقَاتِلُونَ بِكُلِّ ضَرَاوَةٍ.

وَلَكِنَّ كَثْرَةَ الزِّحَامِ، وَشِدَّةَ الالْتِحَامِ، وَأَعْدَادَ الرُّومِ الهَائِلَةَ، جَعَلَتْ فَرَسَهُ عَاجِزَةً عَنْ الحَرَكَةِ وَالمُنَاوَرَةِ كَمَا يُرِيدُ فَٱقْتَحَمَ عَنْهَا، وَخَشِيَ أَنْ تَهْرُبَ فَتَضْعَفَ مَعْنَوِيَّاتُ المُسْلِمِينَ، وَتَزِيدَ مِنْ قُوَّةِ أَعْدَائِهِمْ، لِذَا فَقَدْ عَقَرَها، وَبَدَأَ يُقَاتِلُ وَيَشُدُّ عَلَى هَذِهِ الجِهَةِ، وَيَحْمِلُ على تِلْكَ، وَيَقُولُ:

يَا حَبَّذَا الجَنَّةُ وَٱقْتِرَابُهَا
طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا
والرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنا عَذَابُها
كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إذا لاَقَيْتُها ضِرابُها

وَقُطِعَتْ يَدُ جَعْفَرٍ اليُمْنَى التي يَحْمِلُ بِها اللِّوَاءَ، فَأَخَذَهُ بِيُسْرَاهُ فَقُطِعَتْ، فَاحْتَضَنَهُ بِعَضُدَيْهِ حَتَّى لا يَقَعَ فَتَنْهَارَ مَعْنَوِيَّاتُ المُسْلِمِينَ، وَهٰذَا مَا يُرِيدُهُ الأَعْدَاءُ، وَهَكَذَا بَقِيَ اللِّوَاءَ، مَرْفُوعاً حَتَّى آعْتَوَرَتْ سُيُوفُ الأَعْدَاءِ جَعْفَراً فَسَقَطَ شَهِيداً، وَقَدْ قَطَعَتْهُ ضَرْبَةُ سَيْفٍ نِصْفَيْنِ، فَوُجِدَ في نِصْفِهِ بِضْعٌ وَثلاثُونَ جُرحاً، وَطَعْنَةٌ مِنْ رُمْحٍ قَدْ أَنْفَذَتْهُ. وَكُلُّ الضَّرَبَاتِ مِنْ أَمَامِهِ، تَلَقَّاها وَهُوَ مُقْبِلٌ.

فَلَمَّا قُتِلَ جَعْفَرٌ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ تَقَدَّمَ بِها، وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ، فَجَعَلَ يَسْتَنْزِلُ نَفْسَهُ، وَيَتَرَدَّدُ بَعْضَ التَّرَدُّدِ، ثُمَّ قَالَ:

أَقْسَمْتُ يا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ
طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ
مَا لي أَراكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ
قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ
هَلْ أَنتِ إِلَّا نُطْفَةٌ في شَنَّهْ

وَقَالَ أَيْضاً:

يـبَـا نَـفْسُ إلاَّ تُـقْـتَـلي تَـمُـوتـي

هَـذا حِمَـامُ المَـوْتِ قَـدْ صَلِيتِ

وَمَـا تَـمَـنَّـيْـتِ فَـقَـدْ أُعْـطِيـتِ

إنْ تَـفْـعَـلي فِـعْـلَهُـمـا هُـدِيـتِ

ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ وَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ بِكُلِّ شِدَّةٍ وَشَجَاعَةٍ حَتَّى قُتِلَ كَسَابِقَيْهِ شَهِيداً. ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ ثَابتُ بنُ أَقْرَمَ، فَقَالَ: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ آصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ.

قَالُوا: أَنْتَ.

قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

فَآصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيـدِ في آخِرِ اليَـوْمِ السَّادِس، وَفي اللَّيْلِ عَبَّأَ جُنْدَهُ، وَنَظَّمَهُمْ، وَآسْتَبْدَلَ المُقَدِّمَةَ بِالسَّاقَةِ، وَالمَيْمَنَةَ بِالمَيْسَرَةِ لِيُوهِمَ الأَعْدَاءَ أَنَّ المُقَاتِلِينَ اليَوْمَ غَيْرَهُمْ بِالأَمْسِ، كَمَا آبْتَعَدَتْ كَوْكَبَةٌ مِنَ الفُرْسَان عَنِ الجَيْشِ، وَقَبْلَ الالْتِحَامِ في اليَوْمِ السَّابِعِ جَاءَتْ هَذِهِ الكَوْكَبَةُ مُسْرِعَةً مُثِيرَةً لِلْغُبارِ، وَتَكْبِيرُها يَصِلُ إلى عَنَانِ السَّماءِ، وَهَجَمَ خَالِدٌ بِجُنْدِهِ هُجُوماً صَاعِقاً، وَأَعْمَلَ قِتَالاً بالخَصْمِ فَمَا شَكُّوا أَبَداً بِوُصُولِ نَجَدَاتٍ مِنَ المَدِينَةِ إلى

المُسْلِمِينَ، الأَمْرُ الذي جَعَلَهُمْ لا يَجْرُؤُونَ عَلَى مُطَارَدَةِ المُسْلِمِينَ عِنْدَمَا ٱنْسَحَبُوا لَيْلاً، بَلْ ظَنُّوا أَنَّها مُناوَرَةٌ، وَذلِكَ لِمَا لَقَوْا في القِتَالِ.

وَصَلَ المُسْلِمُونَ إلى المَدِينَةِ دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِمَكْرُوهٍ أَثْنَاءَ ٱنْسِحَابِهِمْ، وَلَكِنَّ أَهْلَ المَدِينَةِ لاَقَوْا الجَيْشَ بِالتَّقْرِيعِ، لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْبَاءٍ عَنْ المَعْرَكَةِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ فَرُّوا مِنَ المَعْرَكَةِ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمَّاهُمُ: «الكَرَّارُونَ».

بُكَاءُ رَسُولِ اللَّهِ لِمَوْتِ جَعْفَرٍ:

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ زَوْجُ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ: «أَصْبَحْتُ في اليَوْمِ الذي أُصِيبَ فِيهِ جَعْفَرُ وَأَصْحَابُهُ فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَدْ هَيَّأْتُ أَرْبَعِينَ مَنّاً[١] مِنْ أَدَمٍ[٢]، وَعَجَنْتُ عَجِينِي، وَأَخَذْتُ بَنِيَّ، فَغَسَلْتُ وُجُوهَهُمْ، وَدَهَنْتُهُمْ.

فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

---

(١) المن: هو الذي يوزن به.

(٢) الأدم: ما يؤكل مع الخبز.

«يـا أَسْمَاءُ، أَيْنَ بَنُـو جَعْفَـرٍ؟» فَجِئْتُ بِهِـمْ إِلَيْـهِ فَضَمَّهُمْ، وَشَمَّهُمْ، ثُمَّ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَبَكَى.

فَقُلْتُ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، لَعَلَّكَ بَلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ.

قَالَ: «نَعَمْ. أُصِيبُوا هَذا اليَوْمَ».

قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ، وَآجْتَمَعَ إِلَيَّ النِّسَاءُ.

قَـالَتْ: فَجَعَـلَ رَسُــولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «يا أَسْمَاءُ لا تَقُولِي هُجْراً[1]، ولا تَضْرِبي صَدْراً».

قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى دَخَلَ على آبْنَتِهِ فَاطِمَةَ، وَهِيَ تَقُولُ: وَاعمَّاهُ.

فَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى مِثْلِ جَعْفَرٍ فَلْتَبْكِ البَاكِيَةُ».

ثُمَّ قَالَ: «آصْنَعُوا لآلِ جَعْفَـرٍ طَعَامـاً، فَقَدْ شُغِلُوا عَنْ أَنْفُسِهِم اليَوْمَ».

---

(١) الهجر: الإفحاش في القول.

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بنِ جَعْفَرٍ أَنَّـهُ قَالَ: أَنَـا أَحْفَظُ حِينَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أُمِّي فَنَعَى لَها أَبي، فَـأَنْظُرُ وَهُـوَ يَمْسَحُ عَلى رَأْسِي وَرَأْسِ أَخي، وَعَيْنَـاهُ تَهْرِقَانِ الدُّمُوعَ حَتَّى تَقْطُرَ لِحْيَتُهُ. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَ إِنَّ جَعْفَراً قَدْ قَدِمَ إِلى أَحْسَنِ الثَّـوَابِ فَٱخْلِفْـهُ في ذُرِّيَتِهِ بِـأَحْسَنَ مِمَّا خَلَّفْتَ أَحداً مِنْ عِبَادِكَ في ذُرِّيَتِهِ».

ثُمَّ قَالَ: «يا أَسْمَاءُ: أَلاَ أُبَشِّرُكِ؟».

قَالَتْ: بَلى، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي.

قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جعَلَ لِجَعْفَرٍ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا في الجَنَّةِ».

قَالَتْ: بِأَبي وَأُمِّي يا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعْلِمِ النَّاسَ ذَلِكَ.

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَ بِيَـدِي يَمْسَحُ بِيَدِهِ رَأْسِي حَتَّى رَقِيَ المِنْبَـرَ، وَأَجْلَسَنِي أَمَامَـهُ عَلَى الدَّرَجَةِ السُّفْلَى، وَالحُزْنُ يُعْرَفُ عَلَيْـهِ، فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّ المَرْءَ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ وابنِ عَمِّهِ، أَلا إِنَّ جَعْفَراً قَدِ ٱسْتُشْهِدَ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِما في الجَنَّةِ».

ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ بَيْتَهُ

وَأَدْخَلَنِي، وَأَمَرَ بِطَعَامٍ فَصُنِعَ لأَهْلِي. وَأَرْسَلَ إلى أخي فَتَغَدَّينا عِنْدَهُ وَاللَّهِ غداءً طَيِّباً مُباركاً، عَمَدَتْ سَلْمَى خَادِمَتُهُ إلى شَعِيرٍ فَطَحَنَتْهُ، ثُمَّ نَسَفَتْهُ، ثُمَّ أَنْضَجَتْهُ وَأَدَمَتْهُ بِزَيْتٍ، وَجَعَلَتْ عَلَيْهِ فُلفُلاً. فَتَغَدَّيْتُ أنا وَأَخِي مَعَهُ، فَأَقَمْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ في بَيْتِهِ، نَدُورُ مَعَهُ كُلَّما صَارَ في أَحَدِ بُيُوتِ نِسَائِهِ ثُمَّ رَجَعْنا إلى بَيْتِنا. فَأَتى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا أُسَاوِمُ بِشَاةٍ أخاً لي فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ في صَفْقَتِهِ». قَالَ عبدُاللَّهِ: فَمَا بِعْتُ شَيئاً ولا آشْتَرَيْتُ إلَّا بُورِكَ فِيهِ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ قَالَ: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلاثاً أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «لا تَبْكُوا عَلى أَخِي بَعْدَ اليَوْمِ، آدْعُوا لي أَبْنَاءَ أَخِي»، فَجِيءَ بِنا كَأَنَّنا أَفْرَاخٌ فَقَالَ: «آدْعُوا لِي الحَلَّاقَ». فَجِيءَ بِالحَلَّاقِ فَحَلَقَ رُؤُوسَنا. ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُاللَّهِ فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَشَالَهَا، وقَالَ: «اللَّهُمَّ آخْلُفْ جَعْفَراً في أَهْلِهِ، وبَارِكْ في أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِاللَّهِ في صَفْقَةِ يَمِينِهِ» قَالَها ثَلاثَ مَرَّاتٍ. قال: فَجَاءَتْ أُمُّنا فَذَكَرَتْ يُتْمَنا وَجَعَلَتْ تَفْرَحُ له فَقَالَ: «آلْعَيْلَةَ تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ وَأَنا وَلِيُّهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ؟!».

مكانةُ جعفر:

رَوَى الإمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: ما آحْتَذَى النِّعَالَ ولا آنْتَعَلَ، ولا رَكِبَ المَطَايا، ولا لَبِسَ الثِّيَابَ مِنْ رَجُلٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَفْضَلُ مِنْ جَعْفَرِ بنِ أبي طالب. وَعَقَّبَ ابنُ كَثِيرٍ عَلَى هَذا الحَدِيثِ فَقَالَ: (إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَكَأَنَّهُ إنَّما يُفَضِّلُهُ في الكَرَمِ، فَأَمَّا الفَضِيلَةُ الدِّينِيَّةُ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الصِّدِّيقَ والفارُوق بَلْ وعُثْمانَ بن عَفَّانٍ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَأَمَّا أَخُوهُ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فالظَّاهِرُ أَنَّهُما مُتَكَافِئَانِ أَوْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ منه).

وَتَفَاخَرَ مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ وَمُحَمَّدُ بنُ أبي بَكْرٍ، وَأُمُّهُمَا أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أنا أَكْرَمُ مِنْكَ، وأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيكَ، فقَال عَلِيٌّ لأَسْمَاءَ: اقْضِي بَيْنَهُمَا، فَقَالَتْ: ما رَأَيْتُ شَاباً مِنَ العَرَبِ كَانَ خَيْراً مِنْ جَعْفَرٍ، ولا رَأَيْتُ كَهْلاً خَيْراً مِنْ أَبِي بَكْرٍ، فَقَال عَلِيٌّ: ما تَرَكْتِ لنا شَيْئاً، فَقَالَتْ: واللَّهِ إن ثَلاثَةً أَنْتَ أَخَسُّهُمْ لَخِيَارٌ، فَقَالَ لها: لَوْ قُلْتِ غَيْرَ ذَلِكَ لَمَقَتُّكِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ زَوْجَ جَعْفَرٍ قَدْ تَزَوَّجَتْ بَعْدَ آسْتِشْهَادِهِ في مُؤْتَةَ أبا بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

وَأَنْجَبَتْ له مُحَمَّدَ بنَ أبي بَكْرٍ، فَلَمَّا تُوُفِّي أبو بَكْرٍ تَزَوَّجَها عَلِيُّ بنُ أَبي طَالِبٍ وَأَنْجَبَتْ لهُ يَحْيَى وَعَوْناً.

وَكَانَ أَوْلادُ جعفرٍ هُمْ: عَبْدُاللَّهِ، وَلَهُ عَقْبٌ، وَمُحَمَّدٌ، وَعَوْنٌ وَلَمْ يُعقِّبَا. وَقَدْ وُلِدُوا جَمِيعاً في الحَبَشَةِ وَأُمُّهُمْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، جَمِيعاً.

وَكَانَ جَعْفَرُ يَوْمَ آسْتُشْهِدَ شَاباً لَمْ يَتَجاوَزِ الرَّابِعَةَ والثَّلاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١٣ -

ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم

عبدُ اللهِ بنُ الزّبيرِ الهاشمي

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـدُ للَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ والصَّـلاةُ والسَّـلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَصَحْبِهِ وَبَعْدُ:

فَإِنَّ كَثِيراً مـا تَتَشَابَـهُ الأَسْمَاءُ في المُجْتَمَـاتِ الصَّغِيرةِ والضَّيِّقَةِ، إِذْ تَكُونُ مَحْدُودَةً وَمَعْدُودَةً، وَيَطْغَى آسْمٌ على غَيْرِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ لِمَرْكَزِ صَاحِبِهِ وَشُهْرَتِهِ، أَوْ لِكَرَمِهِ وَمَعْرِفَتِـه، أَوْ لِشَجَـاعَتِهِ، أَوْ لِنَسَبِـهِ وحِكْمَتِهِ، وَقَـدْ طَغَى آسْمُ عَبْدِاللَّهِ بنِ الـزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمـا، مِنْ بَنِي أَسَدٍ عَلَى عَبْـدِاللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ الهاشِمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَغْمَ أَنَّ الثَّاني مِنْهُما هُـوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكْبَرُ سِنّاً، وَلا يَقِلُّ عَنِ الأَوَّلِ نَسَباً وَلاَ قُوَّةً وَلاَ شَجَاعَةً. غَيْرَ أَنَّ أَوَّلَهُمَا هُوَ:

ـ ابْنُ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدُ المُبَشَّرِينَ بِـالْجَنَّـةِ. وَابْنُ عَمَّـةِ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، صَفيَّةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ـ وَأُمُّهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ لَها دَوْرٌ بَارِزٌ في الدَّعْوَةِ وَخَاصَّةً يَوْمَ الهِجْرَةِ، وَهِيَ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ.

ـ أَوَّلُ مَوْلُودٍ لِلْمُهَاجِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فَيَكُونُ قَدْ وُلِدَ مُسْلِماً، وَنَشَأَ عَلَى الإِسْلَامِ، وَلَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَّةَ.

ـ كَانَ خَلِيفَةً لِلْمسْلِمِين مُدَةَ تِسْعِ سَنواتٍ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ مَـرْوَانُ بنُ الحَكَمِ، وَعَبْدُالمَلِكِ بنُ مَـرْوَانَ، واشْتَهَـرَتِ الحُرُوبُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ.

ـ عَاشَ ثَلاثاً وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ آسْتِشْهَادُهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، في البَيْتِ الحَـرَامِ، وَفِي رِوَايـةٍ فِي مُنْتَهَى البُـطُولَـةِ وَالشَّجَاعَةِ، كَمَا كَانَ حَدِيثُهُ مَعَ أُمِّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَدِيثاً نَمُوذَجِيّاً فِي الفِدَاءِ والتَّضْحِيَةِ والإِقْدَامِ وَصِدْقِ البُنُوَّةِ وَإِيمَانِ الأُمُومَةِ.

ـ أَمَّا الثَانِي فَهُوَ دُونَ الأَوَّلِ إِذْ:

ـ أَنَّ أَبَـاهُ رُغْمَ أَنَّهُ عَمُّ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يُسْلِمْ، وَقِيمَةُ المَرْءِ بِإِسْلَامِهِ لا بِنَسَبِهِ، لِذَا فَهُوَ دُونَ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ وَالِدِ الأَوَّلِ.

ـ أَنَّ أُمَّهُ عَاتِكَةَ بِنْتَ أَبِي وَهَبٍ المَخْزُومِيَّةَ لَمْ تُسْلِمْ فَهِيَ دُونَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ أُمِّ الأَوَّلِ.

ـ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ حَتَّى فَتْحِ مَكَّةَ فَهُوَ مِنَ الطُّلَقَاءِ، فَكَانَ دُونَ الأَوَّلِ الذي لَمْ يَعْرِفِ الجَاهِلِيَّةَ أَبَداً.

ـ لَمْ يَعِشْ أَكْثَرَ مِنَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً إِذِ آسْتَشْهَدَ في مَعْرَكَةِ أَجْنَادِينَ سَنَةَ ثَلاث عَشْرَةَ.

لِهَذَا كُلِّهِ طَغَى آسْمُ الأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي الذِي نَسِيَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ رَغْمَ مَا بَذَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ والإِسْلَامِ. وَبَقِيَ اسْمُ الأَوَّلِ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، هُوَ المَعْرُوفُ وَالمَشْهُورُ، أَمَّا الآخَرُ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ ابنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ الَّذِي سَنَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ ـ إنْ شَاءَ اللَّهُ ـ فَنَرْجُو أَنْ نُوَفَّقَ فِي إِبْرَازِ حَيَاتِهِ وَإِعْطَاءِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ عَنْ هَذَا الصَّحَابيِّ الجَلِيلِ.

إِذَا كَانَ الانْتِمَاءُ لأُسْرَةٍ دُونَ أُخْرَى لَا يَرْفَعُ وَلَا يَضَعُ فِي نَظَرِ الإِسْلَامِ، إِلَّا أَنَّهُ أَدَاةٌ لِلتَّعْرِيفِ بالرِّجَالِ وَوَسِيلَةٌ لِلتَّعَارُفِ بَيْنَ الشُّعُوبِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ دِرَاسَةِ أُسْرَةِ الصَّحَابِيِّ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ.

كَانَ لِعَبْدِالمُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ عَشَرَةُ أَوْلَادٍ مِنَ الذُّكُورِ وَسِتُّ بَنَاتٍ وَذَلِكَ مِنْ عِدَّةِ نِسَاءٍ، وَكَانَ عَبْدُاللَّهِ وَالِدُ رَسُولِ اللَّـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُمَنَافٍ (أَبُو طَالِبٍ) مِن آمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ هِي فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو المَخْزُومِيَّةُ، كَمَا أَنْجَبَتْ لَهُ هَذِهِ المَرْأَةُ خَمْسَ فَتَيَاتٍ هُنَّ كُلّ بَنَاتِ عَبْدِالمُطَّلِبِ بِاسْتِثْنَاءِ صَفِيَّةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَيَبْدُو أَنَّ عَبْدَاللَّهِ وَالِدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ أَكْبَرَ أَوْلَادِ عَبْدِالمُطَّلِبِ بَعْدَ الحَارِثِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ. إِذْ تَزَوَّجَ عَبْدُاللَّهِ قَبْلَهُمْ جَمِيعاً، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هُوَ أَكْبَرُ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ كُلِّهِمْ بَل كَانَ مِنْ جِيلِ بَعْضِ أَعْمَامِهِ حَمْزَةَ وَالعَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُمَا اللَّذَانِ أَسْلَمَا فَقَطْ مِنْ بَيْنِ أَعْمَامِهِ، أَمَّا الآخَرُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ تُوُفِّيَ قَبْلَ بَدْءِ الدَّعْوَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَافَ عَلَى مَرْكَزِهِ بَيْنَ قُرَيْشٍ أَوْ خَشِيَ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ أَنَّهُ صَبَأَ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ قُرَيْشٍ يَوْمَذَاكَ لِمَنْ يَدْخُلُ فِي الإِسْلَامِ مِثْلِ عَبْدِمَنَافٍ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَهَرَ بِالكُفْرِ والعِصْيَانِ وَمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ مِثْلِ عَبْدِالعِزَّى أَبِي لَهَبٍ ـ قَبَّحَهُ اللَّهُ ـ.

كَانَ الزُّبَيْرُ أَكْبَرَ أَعْمَامِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، وَكَانَ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ، وَيُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ صَغِيرٌ وَيُلَاعِبُهُ وَيَقُولُ:

مُـحَـمَّـدُ بـنُ عَـبْـدَمِ
عِـشْـتَ بِـعَـيْشٍ أَنْـعَـمِ
فِـي عِـزٍّ فَـرْعٍ أَسْـنَـمِ
فِـي دَوْلَـةٍ وَمَـغْـنَـمِ

وَقَادَ الزُّبَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ فِي حَرْبِ الفِجَارِ وَقَدْ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذِهِ الحَرْبَ، وَكَانَ يُنَبِّلُ لِأَعَمَامِهِ. كَمَا دَعَا الزُّبَيْرُ الى حِلْفِ الفَضُولِ وَاقْتَرَحَهُ عَلَى قُرَيْشٍ، وَقَدْ تَمَّ فِي دَارِ عَبْدِاللَّهِ بنِ جُدْعَانَ وَحَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَزَوَّجَ الزُّبَيْرُ ابْنَةَ خَالِهِ عَاتِكَةَ بِنْتَ أَبِي وَهَبِ بنِ عَمْرٍو المخْزُومِيَّةَ فَوَلَدَتْ لَهُ ابْنَهُ عَبْدَاللَّهِ هَذا فِي العَامِ السَّابِعِ قَبْلَ البِعْثَةِ فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِثَلاثٍ وَثَلاثِينَ سَنَةً. وَبِذَا فَقَدْ وَرِثَ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الهَاشَمِيُّ زَعَامَةَ وَقُوَّةَ بَنِي هَاشِمٍ وَفُرُوسِيَّةَ وَشَجَاعَةَ بَنِي مَخْزُومٍ.

وتُوُفِّيَ الزُّبَيْرُ فَأَصْبَحَ أَخُوهُ أَبُو طَالِبٍ سَيِّد بَنِي هَاشِمٍ.

إسلام عبد الله

بُعِثَ رَسُــولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ، وَتَعَنَّتَ مَنْ تَعَنَّتَ، أَمَّا عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ فَقَدْ كَانَ صَغِيراً يَوْمَذَاكَ لَمْ يَتَجَاوَزِ السَّابِعَةَ مِنَ العُمْرِ، وَلَمْ يَهْتَمَّ فِيمَا بَعْدُ بِالأَحْدَاثِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا رَغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ شُغْلَ مَكَّةَ الشَّاغِلَ وَحَدِيثَ أَهْلِهَا الدَائِمَ. . . يَنَالُ المُسْلِمِينَ أَذَى كِبَارِهَا، وَيَحِيقُ مَكْـرُ عُظَمَـائِهَا بِمَنْ أَسْلَمَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَيَصْبِرُ مَنْ يَصْبِرُ، وَيُهَـاجِرُ مَنْ يُهَـاجِرُ، وَيُخْفِي إِيْمَـانَهُ مَنْ يُخْفِي.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ، وَقَدْ قَارَبَ عَبْدُاللَّهِ العِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ نَجِدْ لَهُ ذِكْراً فِي تِلْكَ الأَحْدَاثِ مَعَ أَنَّهُ قَدْ شَارَكَ فِيهَا مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُ، وَرَغْمَ بُلُوغِهِ سِنَّ الشَّبَابِ، وَالرُّجُولَةِ، فَلَمْ يَشْتَرِكْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ قُرَيْشٍ ضِـدَّ ابْنِ عَمِّهِ كَمَـا لَمْ يُظْهِـرْ مَيْلاً نَحْـوَ الإِسْلَامِ، وَٱسْتَمَرَّ هَـذَا وَضْعُهُ حَتَّى فُتِحَتْ مَكَّـةُ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَكَانَ قَدْ تَفَتَّحَ وَنَاهَزَ الثَّامِنَةَ وَالعِشْرِينَ.

سَارَ رَسُولُ اللّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، بِعَشَرَةِ آلافِ مُقَاتِلٍ نَحْـوَ مَكَّةَ، وَوَصَـلَ الخَبَرُ إِلَى أَهْلِهَـا فَاهْتَـزَّتْ وَكَثُرَ الصَّخَبُ فِيهَـا وَالضَجِيـجُ، وَزَادَ الجَـدَلُ حَـوْلَ مُحَمَّـدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَحْبِهِ. . . مَا قُدُومُهُمْ إِلَى مَكَّةَ وَإِنَّ عَهْداً بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ؟ مَاذَا حَدَثَ؟ قُرَيْشٌ نَقَضَتِ العَهْدَ وَدَعَمَتْ قَبِيلَةَ بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ، وَخُزَاعَةُ حَلِيفَةُ رَسُولِ اللّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ إِثْرَ ذَلِكَ إِلَى المَدِينَةِ لِيُؤَكِّدَ العَهْدَ وَيَزِيدَ مِنْ مُدَّتِهِ، وَلَكِنْ رَفَضَ مُحَمَّدٌ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَلِكَ. هَلْ تُقَاتِلُ مَكَّةُ؟ لاَ قِبَلَ لَهَا بِذَلِكَ! سَارَ أَبُو سُفْيَانَ لِيَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ، وَرَجِعَ مِنَ المُعَسْكَرِ الإِسْلاَمِيِّ، وَعَادَ أَمَامَ طَلاَئِعِهِ بِغَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي ذَهَبَ بِهَا، وَرَجعَ خَائِفاً، بَيْنَ جَـوَانِحِهِ شَيءٌ مِنَ الإِيْمَـانِ، وَشَيءٌ مِنَ الرُّعْبِ مُقْتَـرِناً بِالخَوْفِ عَلَى الوَجَاهَةِ الزَّائِلَةِ.

وَوَصَلَتْ جَحَافِلُ المُسْلِمينَ إِلَى مَكَّةَ. . . أَعْدَادٌ كَبِيرَةٌ، مُنَظَّمَةٌ غَايَةَ التَّنْظِيمِ ، مُنْقَادَةٌ لِقَائِدِهَا تَمَامَ الانْقِيَادِ، تَبْدُو عَلَيْهَا صِفَةُ الخُضُوعِ وَالتَّوَاضُعِ ، لاَ صِفَةُ العَسْكَرِ المُنْتَصِرِ وَالفَاتِحِ المُنْتَقِمِ .

وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ مَكَّةَ، وَأَسْرَعَ النَّاسُ، مِنْهُمْ مَنِ آتَّجه

إِلَى المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبي سُفْيَانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، فَكُلُّ ذَلِكَ آمِنٌ.

بَدَأَ عَبْدُ اللَّهِ يُفَكِّرُ فِي الإِسْلَامِ ، وَفِي طَاعَةِ القَوْمِ لِابْنِ عَمِّهِ، وَفِي هَذِهِ الجُمُوعِ الغَفِيرَةِ الَّتِي تَنْطَلِقُ بِقَلْبٍ وَاحِدٍ، وَمَضَى اليَوْمُ الأَوَّلُ وَبَاتَتْ مَكَّةُ هَادِئَةً سَاكِنَةً، وَبَعْدَ صَلَاةِ العِشَاءِ انْصَرَفَ النَّاسُ كُلُّ النَّاسِ إِلَى أَمَاكِنِ مَبِيتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنِ آنْطَلَقَ إِلَى مُعَسْكَرِهِ وهُمُ المُسْلِمُون القَادِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى بَيْتِهِ مُطْمَئِناً، وَقَضَتْ مَكَّةُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيهَا سَاكِنَةً لا يُزْعِجُ سُكُونَهَا أَيُّ مُزْعِجٍ ، وَلَا يَقْطَعُ هُدُوءَهَا أَيَّةُ حَرَكَةٍ، وَكَانَتْ مِنْ قَبْلُ تَنَامُ وَيُقْلِقُ أَهْلُهَا أَصْوَاتُ السُّكَارَى بَيْنَ آوِنَةٍ وَأُخْرَى، وَالَّتِي لَا تَكَادُ تَنْتَهِي إِلَّا بِانْتِهَاءِ اللَّيْلِ ، أَوْ يُزْعِجُ سَاكِنِيهَا أَصْوَاتُ الزُّعَمَاءِ المُفَخَّمَةُ يُظْهِرُونَ غَطْرَسَتَهُمْ وَيُبْدُونَ كِبْرِيَاءَهُمْ، أَوْ أَنِينُ العَبِيدِ وَقَدْ خُطَّتْ عَلَى أَجْسَادِهِمْ سِيَاطُ سَادَتِهِمْ، أَوْ آهاتُ الحَزَانَى مِنْ قَسْوَةِ الجَبَابِرَةِ المُسْتَبِدِّيْنَ، وَكَانَتْ أَيَّامُ الرَّبِيعِ أَجْمَلَ أَيَّامِ مَكَّةَ، لَيْسَ فِيهَا الحرُّ اللَّافِحُ، وَلَا اللَّفَحَاتُ اللَّاهِبَةُ. . . وَكَانَ اللَّيْلُ، وَكَانَتِ النَّسَمَاتُ النَّاعِمَةُ المُعْتَدِلَةُ، وَنَامَ النَّاسُ مِلْءَ جُفونِهِمْ نَوْمَ الأَمْنِ

وَالسَّكِينَةِ، نَوْمَ الهُدُوءِ والطُمَأْنِينَةِ، وَشَعَرُوا بِالارْتِيَاحِ ، وَأَخْذِ الكِفَايَةِ مِنَ النَّومِ ، وَإِذَا بِصَوْتِ بِلَالٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَرْتَفِعُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مَعَ سُكُونِ اللَّيْلِ ، فَيَقْطَعُ الهُدُوءَ بِكَلِمَاتِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَتُرَدِّدُ المُرْتَفَعَاتُ صَدَى ذَلِكَ الصَّوْتِ، وَيَغُورُ فِي الأَوْدِيَةِ بِنَغْمَةٍ جَمِيلَةٍ.

صَدَحَ الصَّوْتُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، فاهْتَزَّ النَّاسُ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ فِعْلاً عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا فِي هَذَا الوُجُودِ، أَكْبَرُ مِنَ الجَبَابِرَةِ وَالطُّغَاةِ، أَكْبَرُ مِنَ المُسْتَبِدِّيْنَ وَالقُسَاةِ، فَلَقَدْ وَقَفَ كِبَارُ قُرَيْشٍ يُحَارِبُونَ هَذَا النِّدَاءَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ تَمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ المُسْلِمونَ دِيَارَهُمْ وَهَاجَرُوا إِلَى المَدِينَةِ، وَتَكَبَّرَ الزُّعَمَاءُ وَتَغَطْرَسُوا . . . وَلَكِنَّهُمْ هُزِمُوا وَصُرِعُوا وَانْتَصَرَ الحَقُّ وَعَلَتْ كَلِمَةُ «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وَزَالُوا، وَبَقِيَتْ عَلَى مَدَى الزَّمَانِ.

«أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَارْتَعَدَ أَهْلُ مَكَّةَ إِذْ آمَنُوا حَقاً أَنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ، وَالَّتِي كَانُوا يُشْرِكُونَ بِهَا لَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ شَيْئاً، وَلَمْ تَنْفَعْهُمْ، فَلَيْسَ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ المُنْتَقِمُ الجَبَّارُ العَزِيزُ المُتَعَالِ. وَلَقَدْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ ثُمَّ خَضَعُوا صَاغِرِينَ.

«أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ» وَلَطَالَمَا وَقَفُوا فِي وَجِه مُحَمَّدٍ، وَجَحَدُوا دَعْوَتَهُ، وَاتَّهَمُوهُ بِالسِّحْرِ، وَبِالجُنُون و. . . وَأَخِيراً خَنَعُوا وَسَكَنُوا، وَالآنَ يُقِرُّونَ شَاؤُوا أَمْ أَبَوْا.

«حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ»، وَهُنَا أَسْرَعَ النَّاسُ إِلَى المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِذْ سَارَ النَّاسُ، وَإِذَا كَانَ قَدْ بَقِيَ فِي نُفُوسِ بَعْضِهِمْ شَيءٌ إِلَّا أَنَّهُمْ قِلَّةٌ قَلِيلَةٌ.

وَأَدَّى الجَمِيعُ الصَّلاَةَ، وَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ تَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ الشَّرِيفِ، فَتُؤَثِّرُ فِي القُلُوبِ الظَمْأَى، فَتَتَفَتَّحُ مُسْتَقْبِلَةً الإِيْمَانَ كَمَا تَتَفَتَّقُ بَرَاعِمُ الوَرْدِ بِبَرْدِ النَّدَى فِي الصَّبَاحِ مُسْتَقْبِلَةً النُّورَ، وَكَمَا تُؤَثِّرُ نَفَحَاتُ النَّسِيمِ العَلِيلَةُ عَلَى العَيْنِ فَتَكْسِرُ مِنْ أَجْفَانِهَا فَتَذْبُلُ نَاعِسَةً مُسْتَسْلِمَةً لِلنَّوْمِ.

وَأَحَسَّ أَهْلُ مَكَّةَ بِأَثَرِ الإِسْلَامِ ، وَشَعَرُوا بِقِيمَةِ الإِيْمَانِ، وَصَحَا مِنْ غَفْلَتِهِ مَنْ رَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ عَلَى قَلْبِهِ فِيمَا مَضَى مِنْ أَيَّامٍ ، فَأَقْبَلَ عَلَى هَذَا الدِّينِ مُسْتَسْلِماً، وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا نُفُوسٌ قَلِيلَةٌ آسْتَمَرَّتِ الجَاهِلِيَّةُ عَلَيْهَا مُسَيْطِرَةً، بَلْ وَمُتَحَكِّمَةً.

وَتفَتَّحَتْ عَيْنا عَبْدِاللَّهِ لِلْنُّورِ، وَانْفَتَحَ قَلْبُهُ الَّذِي بَقِيَ مُغْلَقاً حَتَّى ذَلِكَ اليَوْمِ. انْفَتَحَ لِلإِيْمَانِ، وَأَقْبَلَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَسَاهُ الرَّسُولُ حُلَّةً، وَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِهِ، وَقَالَ: إِنَّهُ ابْنُ أُمِّي وَكَانَ أَبُوهُ بِي بَرّاً. وَأَسْلَمَ عَبْدُاللَّهِ مُنْذُ تِلْكَ السَّاعَةِ، وَاعْتَقَدَ بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ وَبِمَا وَعَدَ... فخَلَعَ ثَوْبَ الجَّاهِلِيَّةِ وَأَلْقَاهُ وَقَدْ أَحَسَّ بِنَتَنِهِ، وارتدى ثَوْبَ الإِسْلَامِ، وَاسْتَشْعَرَ بِطِيبِ رَائِحَتِهِ فَشَدَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَبَدَأَ يَنْطَلِقُ مِنْ خِلاَلِهِ... وَعَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هُوَ مِنَ الطُّلَقَاءِ، إِذْ لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ، وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ البَيْتَ، فَطَافَ بِهِ سَبْعاً عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ، دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الكَعْبَةِ، فَفُتِحَتْ لَهُ، فَدَخَلَهَا وَحَطَّمَ الأَصْنَامَ... ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بَابِ الكَعْبَةِ فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحدَهُ، أَلَا كُلُّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إِلَّا سَدَانَةَ الكَعْبَةِ وَسِقَايَةَ الحَاجِ».

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ...»

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَـرَوْنَ أَنِّي فَاعِـلٌ فِيكُمْ؟» فَوَقَفَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: خَيْـراً، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ . فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَـالَ أَخِي يُوسُفُ لإِخْـوَتِهِ: لا تَثْـرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَـوْمَ، يَغْفِـرُ اللَّهُ لَكُمْ»، ثُمَّ قَـالَ: «آذْهَبُـوا فَـأَنْتُمُ الـطُّلَقَاءُ». فَكَـانَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّـةَ يَوْمَ فَتْحِهَـا مِنَ الطُّلَقَاءِ.

عَبْدُ اللهِ فِي حُنَيْن

اهْتَزَّتِ القَبَائِلُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ عَلَى الوَثَنِيَّةِ، وَخَاصَةً القَرِيبَةُ مِنَ الحَرَمِ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا عَلِمَتْ أَنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ دَخَلُوا البَيْتَ الحَرَامَ، وَأَزَالُوا مِنْهُ مَعَالِمَ الشِّرْكِ وَالوَثَنِيَّةِ، وَحَطَّمُوا الأَصْنَامَ، وَدَانَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ، لِذَا قَرَّرَتْ هَذِهِ القَبَائِلُ قِتَالَ المُسْلِمِينَ، فَجَمَعَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ قَبِيلَةَ هَوَازِنَ، كَمَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ ثَقِيفُ كُلُّهَا، وَنَصْرُ، وَجُشَمُ، وَسَعْدُ بْنُ بَكْرٍ، وَبَعضُ بَنِي هِلَالٍ، وَاسْتَاقُوا مَعَهُمُ الذَّرَارِي، وَالمَوَاشِي، وَأَخَذُوا الأَمْوَالَ كَيْ يَثْبُتُوا عِنْدَ القِتَالِ - عَلى حَدِّ زَعْمِهِمْ - وَسَبَقَتْ هَذِهِ الجُمُوعُ المُسْلِمِينَ، وَكَمَنَتْ لَهُمْ فِي وَادِي حُنَينٍ وَثَنِيَّاتِهِ وَشِعَابِهِ.

وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْكُثْ فِي مَكَّةَ بعد فَتْحِها أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً، سَارَ وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ انْطَلَقَ بِهِمْ مِنَ المَدِينَةِ، كَمَا سَارَ مَعَهُ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِمَنْ دَخَلَ فِي الإِسْلَامِ

حَدِيثاً، وَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، إِلَى هَذِهِ الأَعْدَادِ فَقَالَ: لَنْ يُغْلَبَ مِثْـلُ هَؤُلَاءِ مِنْ قِلَّةٍ، كَمَا أَعْجَبَتِ هَذِهِ الكَثْرَةُ أَهْلَ مَكَّةَ. . . ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ في مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَـا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِـرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾[1].

وَلَمَّا اسْتَقْبَلَ المُسْلِمُونَ وَادِيَ حُنَيْنٍ وَانْحَدَرُوا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ مُتَّسِعٍ وَمُنْحَدِرٍ إِذَا بِكَتَائِبِ هَوَازِنَ وَجُمُوعِهَـا قَدْ شَدُّوا عَلَى المُسْلِمِينَ شَدَّةَ رَجُـلٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ لَمْ يَشْعُـرُوا بِمَكَـانِهِمْ، فَانْشَمَـرَ المُسْلِمُونَ رَاجِعِـينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَآنْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى اليَمِينِ ثُمَّ نَادَى: «أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، أَنَا مُحَمَّـدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ»، وَلَكِنْ لَمْ يَـرْعَوِ المُسْلِمُـونَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا نَحْوَهُ.

وَأَسْـرَعَ المُشْرِكُـونَ نَحْـوَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٢٥، ٢٦.

وَسَلَّمَ، بِأَعْدَادٍ كَبِيـرَةٍ كَالسَّيْـلِ الجَارِفِ، وَالـرِّمَاحُ مُشْـرَعَةٌ نَحْوَهُ، وَالسُّيُوفُ مُشْهَرَةٌ عَلَيْهِ، وَالعَجَاجُ يَتَصَاعَدُ مِنْ زَحْفِهِمْ، فَثَبَتَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَثَبَتَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَالفَضْلُ بنُ العَبَّاسِ، وَأَبُو سُفْيَانَ (المُغِيـرَةُ) بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَابْنُهُ جَعْفَرٌ، وَرَبِيعَةُ بْنُ الحَارِثِ بْنِ المُطَّلِبِ، وَعَبْـدُاللَّهِ بْنُ الـزُّبَيْـرِ بْنِ عَبْـدِالمُـطَّلِبِ، وَأُسَـامَـةُ بْنُ زَيْـدٍ، وَأَيْمَنُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَنَفَرٌ آخَـرُونَ. ثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ هَؤُلَاءِ القِلَّةِ، وَكَانَتْ سَاعَةٌ حَرِجَةٌ يَتَصَاعَـدُ الغُبَارُ مِنْ هَجَمَاتِ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مَعَ صَحْبِهِ، ثَابِتُونَ كَالطَّوْدِ الشَّامِخِ فَلَا تَرَى إِلَّا لَمَعَانَ السُّيُوفِ بَيْنَ الغُبَارِ المُتَصَاعِدِ وَالأَصْوَاتِ المَكْتُومَةِ، وَالقَتْلَى تَتَسَـاقَطُ مِنَ المُشْـرِكِينَ، وَقَـدْ اسْتُشْهِـدَ أَيْمَنُ بْنُ عُبَيْـدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ الاسْتِمْرَارُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ إِذْ أَنَّ أَعْدَاداً لَا تَصِلُ إِلَى العِشْرِينَ مُقَاتِلاً أَبَداً تُدَافِعُ أَمَـامَ جُمُوعٍ بِآلَافٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبَّاسُ اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ: يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السَّمُرَةِ». فَنَادَى العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِصَوْتِهِ الجَهوَرِيِّ، فَأَجَابُوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ المُسْلِمِينَ يَهُمُّ لِيَثْنِي بَعِيرَهُ فَلَا

يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَأْخُذُ دِرْعَهُ فَيَقْذِفُهَا فِي عُنُقِهِ، وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وَتِرْسَهُ وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخْلِي سَبِيلَهُ، فَيَؤُمُّ الصَّوْتَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مِائَةٌ اسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَاقْتَتَلُوا. وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَوَّلَ مَا كَانَتْ: «يَا لَلأَنْصَارِ» ثُمَّ خَلَصَتْ أَخِيراً «يَا لَلْخَزْرَجِ»، وَكَانُوا صُبُراً عِنْدَ الحَرْبِ. فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي رَكَائِبِهِ، فَنَظَرَ إِلَى مُجْتَلَدِ القَوْمِ وَهُمْ يَجْتَلِدُونَ فَقَالَ: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ».

وَاشْتَدَّتِ المَعْرَكَةُ وَثَبَتَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي البِدَايَةِ وَاسْتَمَرَّ فِي ثَبَاتِهِ بَعْدَ أَنْ ثَابَ المُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِهِمُ الكَرِيمِ وَلَمْ تَكِلَّ سَاعِدُهُ، وَتَكَسَّرَتْ عِدَةُ سُيُوفٍ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَذُودُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَتَنَفَّسِ الصُّعَدَاءَ حَتَّى هُزِمَ العَدُوُّ، وَوَلَّتْ هَوَازِنُ الأَدْبَارَ، وَجَمَعَ المُسْلِمُونَ الغَنَائِمَ وَالسَّبَايَا فِي الجِعْرَانَةِ. وَاشْتَدَّ القَتْلُ بَعْدَئِذٍ فِي ثَقِيفٍ، فَفَرَّتْ وَسَارَتْ إِلَى الطَّائِفِ فَتَحَصَّنَتْ بِهَا، وَلَحِقَهَا المُسْلِمُونَ وَحَاصَرُوهَا فِي الطَّائِفِ مَا يَقْرُبُ مِنْ عِشْرِينَ يَوْماً، ثُمَّ فَكُّوا الحِصَارَ وَعَادُوا إِلَى الجِعْرَانَةِ، فَقَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

الغَنَـائِمَ، وَأَعْـطَى المُؤَلَّفَـةَ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ عَبْـدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى شَيءٍ. وَعَادَ المُسْلِمُونَ بَعْدَئِذٍ إِلَى مَكَّةَ، وَلَمْ يَمْكُثْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فِيهَا طَوِيلاً إِذِ انْطَلَقَ إِلَى المَـدِينَةِ مَـعَ مَنْ جَاءَ مَعَـهُ مِنْهَا، فَوَصَلَ إِلَيْهَا في الرَّابعِ والعِشْرِينَ مِنْ ذِي القِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ، وَحَجَّ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بِالنَّاسِ عَتَّابُ بْنُ أَسِيْـدٍ الَّذِي وَلاَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْهَا سَواءً إِلَى حُنَيْنٍ أَمْ إِلَى المَدِينَةِ.

عَبْدُاللَّهِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ

بَقِيَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ غَادَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ دَائِمَ التَّفْكِيرِ فِي أَيَّامِهِ الخَوَالِي الَّتِي ضَاعَتْ مِنْ حَيَاتِهِ دُونَ أَنْ يُقَدِّمَ شَيْئاً، فَبَدَأَ يَجْتَهِدُ بِالعِبَادَةِ وَيَجِدُّ بِالطَّاعَةِ، وَلَكِنْ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَلْحَقَ السَّابِقِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]. وَفِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ حَجَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالنَّاسِ، وَكَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ سُورَةُ «بَرَاءَة» فَحَمَلَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَرَأَهَا فِي مَوْسِمِ الحَجِّ، وَانْتَهَى حَجُّ المُشْرِكِينَ وَالصُّورَةُ القَدِيمَةُ الَّتِي كَانَ يَأْتِي بِهَا العَرَبُ لِتَأْدِيَةِ المَوْسِمِ.

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٠.

وَفِي السَّنَـةِ العَاشِـرَةِ حَجَّ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَجَّةَ الوَدَاعِ ، وَسُرَّ المُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالالْتِقَاءِ بِـرَسُـولِهِمُ الكَـرِيمِ ، وَمِنْهُمْ ابْنُ عَمِّـهِ عَبْـدُاللَّهِ بْنُ الـزُّبَيْـرِ الهَاشِمِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي رَغِبَ أَلَّا يُفَارِقَهُ، وَلَكِنِ انْتَهَى المَـوْسِمُ بِسُرْعَـةٍ وَرَجَعَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ فِيهَا أَيْضاً قَلِيلَةً إِذْ لَمْ تَزِدْ كَثِيراً عَلَى السَّبْعِينَ يَوْماً حَتَّى انْتَقَلَ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ ، وَاكْتَمَلَ الدِّينُ، وانْتَهَى التَّشْرِيعُ، وانْقَطَعَ الوَحْيُ عَنِ الأَرْضِ نِهَـائِياً، وَكَـانَ لِوَفَـاةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الوَقْعُ الصَّعْبُ فِي نَفْسِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ أَمْرُ اللَّهِ. وَلَمَّـا كَـانَتْ صُحْبَتُـهُ قَلِيلَةً لِـذَا فَلَمْ يَـرْوِ أَيَّ حَـدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبَـايَعَ المُسْلِمُـونَ أَبَا بَكْـرٍ الصِّدِّيقَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، وَارْتَـدَّتْ كَثِيرٌ مِنَ القَبَـائِلِ العَـرَبِيَّةِ، وَنَجَمَ النِّفَـاقُ، وَجَـرَّدَ الصِّدِّيقُ السَّيْفَ لِقِتَالِ المُرْتَدِّينَ، فَدَانَتْ الجَزِيرَةُ العَرَبِيَّةُ مَرَّةً أُخْرَى لِلإِسْلَامِ . وَلَمَّا انْتَهَى أَمْرُ المُرْتَدِّينَ اتَّجَهَتِ الجُيُوشُ الإِسْلَامِيَّةُ نَحْوَ العِرَاقِ وَالشَّـامِ تُقَاتِـلُ الفُرْسَ وَالـرُّومَ الَّذِينَ

كَانُوا مِنْ وَرَاءِ المُرْتَدِّيْنَ وَقَدْ شَجَّعُوهُمْ فِي حَرَكَاتِهِمْ، وَتُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَيْثُ كَانَ الفُرْسُ وَالرُّومُ يُمَثِّلُونَ الظُّلْمَ، وَيَسْتَضْعِفُونَ النَّاسَ، وَيَقِفُونَ فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ.

عَبْدُاللهِ في صُفوفِ المجَاهِدِين

انْطَلَقَ المُجَاهِدُونَ فِي كُلِّ جِهَةٍ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيُخْرِجُوا النَّاسَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الوَثَنِيَّةِ والشِّرْكِ وَعِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ، وَلِيُنْقِذُوهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالجَوْرِ إِلَى العَدَالَةِ وَالحَقِّ، وَلِيُخَلِّصُوهُمْ مِنْ ضِيقِ الأَدْيَانِ إِلَى سَعَةِ الإِسْلَامِ وَرَحْمَتِهِ.

وَخَرَجَتْ أَرْبَعَةُ جُيُوشٍ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَسَارَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَحَدِهَا، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُودُهُ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاشْتَرَكَ فِي مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ، وَفِي فَتْحِ دِمَشْقَ، وَكَانَ يُقَاتِلُ بِكُلِّ هُدُوءٍ، يَكَادُ لَا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ إِلَّا التَّكْبِيرُ، فَإِذَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنَ الأَعْدَاءِ يُرِيدُ المُبَارَزَةِ وَيَدْعُو لَهَا، خَرَجَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ مُبَاشَرَةً، فَإِذَا سَكَتَ الأَمِيرُ صَالَ وَجَالَ وَقَتَلَ العَدُوَّ، وَإِذَا أَشَارَ لَهُ بِالرُّجُوعِ عَادَ، وَمَا يَأْمُرُ القَائِدُ بِالهُجُومِ إِلَّا وَيَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ يَعْمَلُ حَصْداً فِي الأَعْدَاءِ حَتَّى تَأْتِيَهُ الأَوَامِرُ

بِالوُقُوفِ، وَكَمْ تَكَسَّرَتْ فِي يَدِهِ السُّيُوفُ وَمَا شَعَرَ بِالتَّعَبِ، إِذْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ مُبْتَغَاهُ لِيُحَصِّلَ مَا ضَاعَ عَلَيْهِ مِنْ أَيَّامِ شَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الحَقَّ وَيَدْخُلَ فِي الإِسْلَامِ.

وَلَمَّا انْتَهَى المُسْلِمُونَ مُجْتَمِعِينَ مِنْ فَتْحِ دِمَشْقَ، اتَّجَهَ كُلُّ قَائِدٍ إِلَى الجِهَةِ الَّتِي كُلِّفَ بِهَا، فَسَارَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الجُنْدِ إِلَى فِلَسْطِينَ لِيَقْضِيَ عَلَى الرُّومِ فِيهَا، وَاتَّجَهَ إِلَى أَجْنَادِينَ فِي جَنُوبِ فِلَسْطِينَ بَيْتَ الرَّمْلَةِ وَبَيْتَ جِبْرِينَ أَوْ فِي مَوْقِعِ الفَالُوجَةِ أَوْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهَا، وَالْتَقَى هُنَاكَ بِالرُّومِ، وَاصْطَفَّ الطَّرَفَانِ لِلْقِتَالِ، وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ الرُّومِ بَطْرِيقٌ، وَدَعَا إِلَى النِّزَالِ، فَخَرَجَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الهَاشِمِيُّ فَقَتَلَهُ بَعْدَ أَنِ اخْتَلَفَا ضَرَبَاتٍ، ثُمَّ بَرَزَ لَهُ آخَرُ فَضَرَبَهُ عَبْدُاللَّهِ عَلَى عَاتِقِهِ وَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ فَأَثْبَتَهُ، وَقَطَعَ سَيْفُهُ الدِّرْعَ، وَأَشْرَعَ فِي مَنْكِبِهِ، ثُمَّ وَلَّى الرُومِيُّ مُنْهَزِماً، وَعَزَمَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ العَاصِ أَلَّا يُبَارِزَ، فَقَالَ: لَا أَصْبِرُ، فَلَمَّا بَدَأَ الهُجُومُ وَاخْتَلَطَتِ السُّيُوفُ، انْطَلَقَ يُقَاتِلُ، فَكَانَ الرُّومُ يَفِرُّونَ مِنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي صُفُوفِهِمْ فَتَبْتَعِدُ الأَبْطَالُ مِنْ أَمَامِهِ، وَفَرَّتْ كَوْكَبَةٌ مِنْ رِجَالَاتِ العَدُوِّ أَمَامَهُ فَلَحِقَ بِهِمْ، فَكَانَ يُدْرِكُ الوَاحِدَ بَعْدَ الآخَرِ

فَيَقْتُلُهُ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا يَحِلُّ بِهِمْ وَهُوَ وَحْدُهُ يَتْبَعُهُمْ، رَجَعُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ شَجَّعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَبَدَأُوا يُقَاتِلُونَهُ، فَطاعَنَهُمْ كُلَّهُمْ وَأُصِيبَ، وَأَثْخَنَتْهُ الجِرَاحُ وَقَدْ قَضَى عَلَيْهِمْ جَمِيعاً ثُمَّ وَقَعَ مُغْمَىً عَلَيْهِ حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا.

وَلَمَّا انْهَزَمَتِ الرُّومُ انْطَلَقَ الفَضْلُ بْنُ العَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِمِائَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ يُفَتِّشُ عَنِ ابْنِ عَمِّهِ البَطَلِ، وَسَارُوا نَحْوَ مِيلٍ، فَوَجَدُوهُ شَهِيداً بَيْنَ عَشْرَة مِنَ الرُّومِ قَتَلَهُمْ أَيْضاً، وَوُجِدَ أَنَّ قَائِمَ سَيْفِهِ قَدْ لَصِقَ بِيَدِهِ وَفِي وَجْهِهِ ثَلاثُونَ ضَرْبَةً، فَدَفَنَهُ وَدَعَا لَهُ. . .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أُولَئِكَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ ضَحُّوا بِأَرْوَاحِهِمْ وَبِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَكُتِبَ لَهُمُ الخُلُودُ فِي الدُّنْيَا بِالذِّكْرِ الطَّيِّبِ وَالقُدْوَةِ الحَسَنَةِ، وَفِي الآخِرَةِ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ، كَمَا كُتِبَ المَجْدُ لِخَلَفِهِمْ بِمَا قَدَّمُوا لَهُمْ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١٤ -

عَبدُ اللهِ بنُ حُذافَة السَّهْمِي

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْـدُ للَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ، وَالصَّـلاَةُ وَالسَّـلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ وبَعد:

فَإِنَّ بَنِي سَهْمٍ أَحَدُ بُطُونِ قُرَيْشٍ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَقَدْ كَانَ أَعْظَمَ مَنْ بَرَزَ مِنْهُمْ من صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَمْرُو بْنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَدَأَ يَدْعُو النَّاسَ سِرّاً، كَانَ سَيِّدَ بَنِي سَهْمٍ العَاصُ بْنُ وَائِلِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمٍ، وَهُوَ وَالِدُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَلَقَدْ وَقَفَ العَاصُ هَذَا كَمَا وَقَفَ بَقِيَّةُ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ ضِدَّ الإِسْلاَمِ، وَحَارَبُوا الَّذِينَ اعْتَنَقُوهُ مِنْ أَقْرِبَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ بُغْيَةَ فِتْنَتِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، إِلَّا أَنَّ هَذَا كُلَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَحُولَ دُونَ انْتِشَارِ الإِسْلاَمِ بَيْنَ أَفْرَادِ هَذَا البَطْنِ أَوْ ذَاكَ، فَالإِسْلاَمُ دِينُ الفِطْرَةِ وَلاَ يُمْكِنُ

لِلْعَذَابِ أَنْ يَحُولَ دُونَ آعْتِنَاقِهِ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ، وَكَذَا لَا يُمْكِنُ لِلتَّخْوِيفِ وَالإِرْهَابِ.

لَقَدْ آمَنَ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنْ بَنِي سَهْمٍ وَدَخَلُوا الإِسْلَامَ، وَلَمَّا اشْتَدَّ أَذَى قُرَيْشٍ عَلَيْهِمْ إِذْ وَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ المُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالجُوعِ وَالعَطَشِ، وَبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ، مَنْ اسْتُضْعِفُوا مِنْهُمْ، يَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفْتَنُ مِنْ شِدَّةِ البَلَاءِ الَّذِي يُصِيبُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ، وَيَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَئِذٍ بِالهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ فِيهِمْ مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ.

وَهَاجَرَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَىٰ الحَبَشَةِ، وَهَاجَرَ مَعَهُمْ عَبْدُاللَّهِ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ سِنَّ الشَّبَابِ، وَيَبْدُو أَنَّ عُمْرَهُ آنَذَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيَقِلَّ عَنِ الخَامِسَةِ وَالعِشْرِينَ، إِذْ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَخِيهِ خُنَيْسٍ الَّذِي كَانَ مُتَزَوِّجاً حَيْثُ يُكَنَّى بِأَبِيهِ فَيُقَالُ لَهُ أَبُو حُذَافَةَ أَوْ أَبُو حُذَيْفَةَ. وَكَانَتْ أُمُّهُ بِنْتُ حَرْثَانَ مِنْ بَنِي الحَارِثِ بْنِ عَبْدِمَنَاةٍ تُعَدُّ مِنْ أُرُومَةٍ كَرِيمَةٍ فِي قُرَيْشٍ أَيْضاً.

وَقَدْ هَاجَرَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْهُمْ هَاشِمُ بْنُ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَأَبُوهُ يَوْمَئِذٍ ـ كَمَا ذَكَرْنَا ـ شَيْخُ بَنِي سَهْمٍ وَهُوَ أَخُو عَمْرِو بْنِ العَاصِ وَأَصْغَرُ مِنْهُ، كَمَا هَاجَرَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ، وَأَخُوهُ قَيْسٌ، وَأَخُوهُ خُنَيْسٌ، وَأَبْنَاءُ عَمِّهِمْ الحَارِثِ وَهُمْ: أَبُو قَيْسٍ، وَعَبْدُاللَّهُ، وَسَعِيدٌ، وَالسَّائِبُ، وَمَعْمَرٌ، والحَارِثُ، وَبِشْرٌ.

وَبَعْدَ مُدَّةٍ وَصَلَ إِلَيْهِمْ خَبَرٌ مَفَادُهُ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَسْلَمُوا، فَعَادَ بَعْضُهُمْ وَقَدْ خَرَجُوا كَثِيراً فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى مَكَّةَ لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً مِمَّا نُقِلَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَستَطِيعُوا أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ إِلَّا مُسْتَخْفِينَ أَوْ بِجِوَارِ أَحَدِ الوُجَهَاءِ.

أَمَّا هَؤُلَاءِ العَائِدُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ حَتَّى هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ وَشَهِدَ بَدْراً وَأُحُداً، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ. وَقَدْ عَادَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ خُنَيْسُ بْنُ حُذَافَةَ أَخُو عَبْدِاللَّهِ، وَقَدْ كَانَ صِهْرَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذْ كَانَ مُتَزَوِّجاً ابْنَتَهُ حَفْصَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَقَدْ هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ وَشَهِدَ بَدْراً، وَأُصِيبَ بِجِرَاحٍ يَوْمَ أُحُدٍ فَمَاتَ مُتَأَثِّراً بِهَا، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ ذَلِكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرٍ، فَكَانَتْ أُمَّ المُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَمِنَ الَّذِينَ عَادُوا هِشَامُ بْنُ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَقَدْ حَبَسَهُ أَبُو العَاصِ بِمَكَّةَ وَبَقِيَ فِيهَا. لِذَلِكَ نُلاحِظُ أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ بَدْراً مِنْ بَنِي سَهْمٍ سِوَى خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهُنَاكَ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ أَنَّ عَبْدَاللَّهِ قَدْ حَضَرَ بَدْراً، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ لَا يَزَالُ فِي الحَبَشَةِ يَوْمَذَاكَ، وَقَدْ جَاءَ فِيما بَعْدُ وَشَهِدَ المَشَاهِدَ بَعْدَ أُحُدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمَعَ أَنَّ العَاصَ بْنَ وَائِلٍ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلاثَةِ أَعْوَامٍ، إِلَّا أَنَّ المُسْتَضْعَفِينَ بَقَوْا فِي مَكَّةَ حَتَّى مَا بَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ.

فَفِي شَهْرِ ذِي القِعْدَةِ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ لِهِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحَجَّ عَلَى رَأْسِ ١٤٠٠ مُسْلِمٍ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى (عُسْفَانَ) الْتَقَى بِمَنْ أَخْبَرَهُ بِأَنَّ قُرَيشاً قَرَّرَتْ مَنْعَهُ مِنْ زِيَارَةِ البَيْتِ، وَاسْتَعَدَّتْ لِلْقِتَالِ إِنْ دَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ، وَأَنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدَ قَدْ سَارَ عَلَى رَأْسِ خَيَّالَةِ قُرَيْشٍ لِيَحُولَ دُونَ دُخُولِ المُسْلِمينَ، إِلَّا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَهْتَمَّ كَثِيراً، وَغَيَّرَ طَرِيقَهُ، إِذِ اتَّجَهَ إِلَى اليَمِينِ، فَرَجَعَتْ خَيْلُ قُرَيْشٍ إِلَى مَكَّةَ لِتَقِفَ فِي وَجْهِ المُسْلِمِينَ،

وَوَقَفَ المُسْلِمُونَ بِالحُدَيْبِيَةِ وَمَشَتِ الرُّسُلُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ حَتَّى تَمَّ الصُّلْحُ، وَقَدْ مَثَّلَ قُرَيْشاً سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي ذَلِكَ الصُّلْحِ وَكَانَتْ بُنُودُ ذَلِكَ الاتِّفَاقِ:

١ ــ أَلَّا يَزُورَ المُسْلِمُونَ البَيْتَ هَذَا العَامِ، وَأَنْ يَأْتُوا فِي العَامِ المُقْبِلِ، وَيَبْقُوْا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي مَكَّةَ.

٢ ــ تَضَعُ الحَرْبُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ عَشْرَ سَنَواتٍ.

٣ ــ يَرُدُّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَنْ أَتَاهُ مِنْ مَكَّةَ مُسْلِمَاً، وَلَا تَلْتَزِمْ قُرَيْشٌ بِرَدِّ مَنْ يَأْتِيهَا مُرْتَدّاً.

٤ ــ مَنْ أَرَادَ مِنْ القَبَائِلِ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدٍ مَعَ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَهُ ذَلِكَ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدٍ مَعَ قُرَيْشٍ مَكَّةَ فَلَهُ ذَلِكَ.

وَوَجَدَ المُسْلِمُونَ فِي هَذَا الصُّلْحِ شَيْئاً، وَلَمْ يَعْلَمُوا مَرَامِيَهُ البَعِيدَةَ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الجَلْسَةِ الخِتَامِيَّةِ حَسْبَ المُصْطَلَحِ الحَدِيثِ، لَمْ يَبْقَ سِوَى التَّوْقِيعِ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الَّذِي يُمَثِّلُ المُشْرِكِينَ فِي هَذَا الصُّلْحِ، يَرْسِفُ بِالقُيُودِ وَيُرِيدُ أَنْ يَلْتَجِىءَ إِلَى المُسْلِمينَ حَيْثُ إِنَّهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ المُسْتَضْعَفِينَ. فَلَمَّا رَأَى سُهَيْلُ ابْنَهُ قَامَ

إِلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ وَأَخَذَ بِتَلابِيبِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ لَجَّتِ القَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَك قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا، وَهَذَا أَوَّلُ مَنْ أُقَاضِيك عَلَيْهِ.

وَنَادَى أَبُو جَنْدَلٍ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ، وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِماً؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَبِي جَنْدَلٍ: «اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ، وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ صُلْحاً، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللَّهِ، وَإِنَّا لا نَغْدُرُ بِهِمْ».

مَعَ تِلْكَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تُلْقِي بِرُوحِ الصَّبْرِ وَالاطْمِئْنَانِ فِي قَلْبِ أَبِي جَنْدَلٍ، كَانَتِ الثَّائِرَةُ تَغْلِي فِي قُلُوبِ المُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ لاَ يَتَكَلَّمُونَ احْتِرَاماً لِمَقَامِ العَهْدِ[1].

كَانَ أَبُو بَصِير عُتْبَةُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَحُبِسَ بِمَكَّةَ، وَقَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَحْبَسِهِ، وَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَطْلُبُ مِنْهُ إِرْجَاعَهُ

(١) خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم، محمد أبو زهرة ـ القسم الثاني.

بِمُقْتَضَى الصُّلْحِ ، وَأَرْسَلَتْ اثْنَيْنَ يَتَسَلَّمَانِهِ، وَوَصَلا إِلَى المَدِينَةِ وَاسْتَأْذَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ عِنْدَهُ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ القَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً».

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَرُدَّنِي إِلَى المُشْرِكِينَ يَفْتُنُونَنِي فِي دِينِي».

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا بَصِيرٍ انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً».

انْطَلَقَ أَبُو بَصِيرٍ مَعَهُمَا، وَانْدَمَجَ مَعَهُمَا فِي الحَدِيثِ، وَأَظْهَرَ الاسْتِسْلَامَ حَتَّى اطْمَأَنَّا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمَا: يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ أَصَارِمٌ سَيْفُكَ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْظُرُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: انْظُرْ إِنْ شِئْتَ، فَاسْتَلَّهُ أَبُو بَصِيرٍ وَأَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ صَرَامَتَهُ ثُمَّ عَلَاهُ بِهِ فَقَتَلَهُ، أَمَّا الآخَرُ فَقَدْ وَلَّى مُسْرِعاً رَاجِعاً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

«إنَ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ رَأَى فَزَعاً» ثُمَّ قَالَ لَهُ: «وَيْحَكَ مَالَكَ؟».
قَالَ الرَّجُلُ: إنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ قَتَلَ صَاحِبِي و. . .» وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إذْ ظَهَرَ أَبُو بَصِيرٍ مُتَوَشِّحاً بِالسَّيْفِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ وَفَيْتَ ذِمَّتَكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسْلَمْتَني لِيَدِ القَوْمِ، وَقَدِ امْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أُفْتَنَ أَوْ يُعْبَثَ بِي».

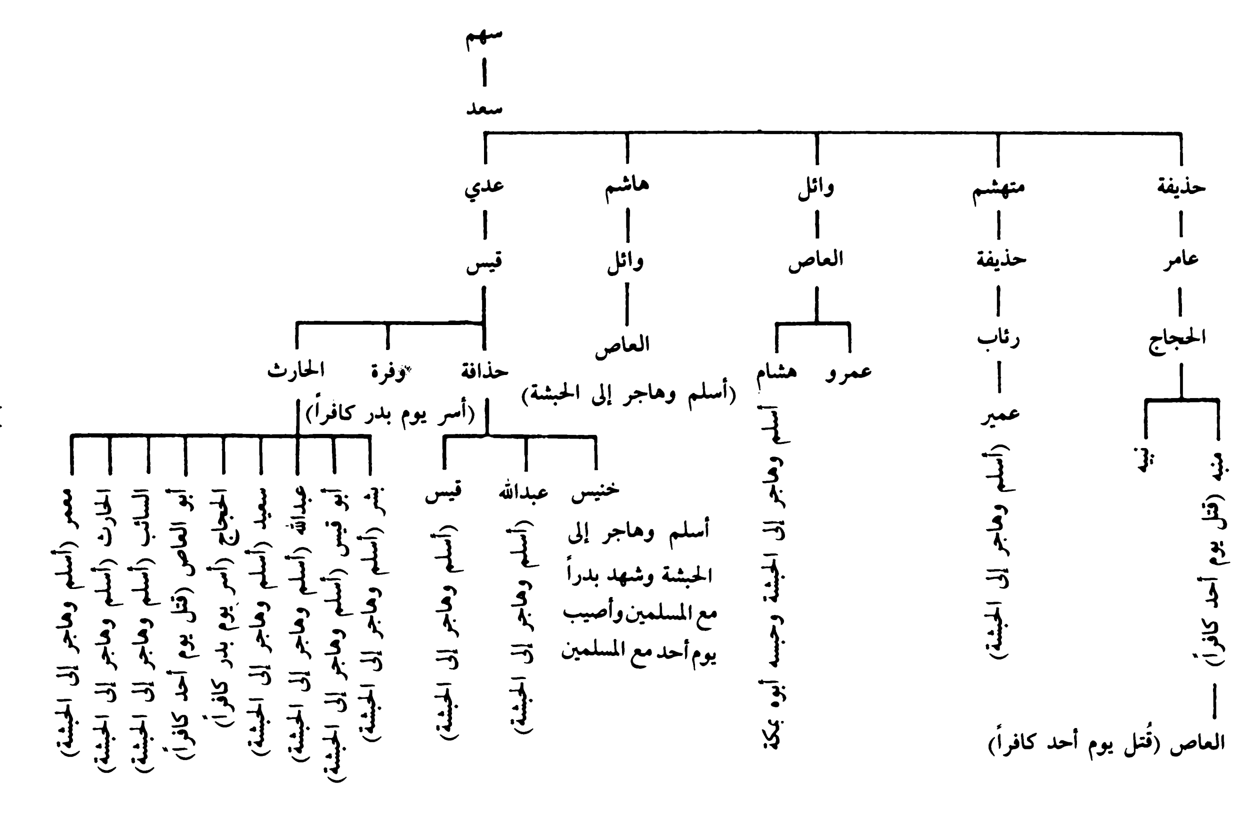
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ».

وَوَقَعَ فِي نَفْسِ أَبِي بَصِيرٍ أَنَّهُ سَيُرَدُّ إلَيْهِمْ، لِذَا فَقَدْ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى سِيفِ البَحْرِ.

وَفَهِمَ المُسْتَضْعَفُونَ فِي مَكَّةَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ» أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَأَصْبَحَ كُلُّ مُسْتَضْعَفٍ يَعْمَلُ عَلَى تَخْلِيصِ نَفْسِهِ وَيَلْتَحِقُ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَانْطَلَقَ أَبُو جَنْدَلٍ إِلَيْهِ، وَانْطَلَقَ مُسْتَضْعَفُونَ وَكَوَّنُوا هُنَاكَ جَمَاعَةً تَقْطَعُ عَلَى قُرَيْشٍ تِجَارَتَهَا، وَتَغِيرُ عَلَى رِجَالاَتِهَا كُلَّمَا سَمِعَتْ بِأَحَدِهِمْ هُنَاكَ. وَشَعَرَتْ قُرَيْشٌ بِالضَّرَرِ يَلْحَقُ بِهَا، فَطَلَبَتْ مِنْ

رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَقْبَلَهُمْ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُمْ يَتَنَازَلُونَ عَنْ شُرُوطِ الحُدَيْبِيَةِ، وَتُنَاشِدُهُ الرَّحْمَةَ فِي ذَلِكَ، لأَنَّهُمْ إِنْ ذَهَبُوا إِلَى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَالْتَحَقُوا بِالمُسْلِمِينَ ذَهَبَ ضَرَرُهُمْ، وَأَصْبَحُوا يَخْضَعُونَ لِلنِّظَامِ الإِسْلاَمِيِّ، والرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُصْبِحُ مَسْؤُولاً عَنْهُمْ وَعَنْ أَعْمَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ، أمَّا الآن فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ جَرِيرَةَ أَعْمَالِهِمْ.

كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يُقْبِلَ وَأَصْحَابُهُ إِلَى المَدِينَةِ، لَكِنَّ أَبَا بَصِيرٍ وَصَلَ إِلَيْهِ الكِتَابُ وهُوَ عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَهُ قَدْ سَارُوا إِلَى المَدِينَةِ وَلَمْ يَعُدْ لِلْمُستَضْعَفِينَ مَجَالٌ فِي البَقَاءِ بِمَكَّةَ، إِذْ طَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ كُلِّ مُسْتَضْعَفٍ أَنْ يُهَاجِرَ، وَمَنَعَ إِقَامَةَ المُسْلِمِ بَيْنَ المُشْرِكِينَ مَا دَامَتْ عِنْدَهُ القُدْرَةُ عَلَى الخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ ظَهْرانِيهِمْ مُهَاجِراً. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِيْنَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً. إِلَّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ،


سهم
سعد
عدي
هاشم
وائل
متهشم
حذيفة
قيس
وائل
العاص
حذيفة
عامر
العاص
عمرو
هشام
رئاب
الحجاج
حذافة
وفرة
الحارث
(أسلم وهاجر إلى الحبشة)
(أسر يوم بدر كافراً)
أسلم وهاجر إلى الحبشة وحبسه أبوه بمكة
عمير (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
نبيه
منبه (قتل يوم أحد كافراً)
العاص (قُتل يوم أحد كافراً)
خنيس
أسلم وهاجر إلى الحبشة وشهد بدراً مع المسلمين وأصيب يوم أحد مع المسلمين
عبدالله (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
قيس (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
بشر (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
أبو قيس (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
عبدالله (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
سعيد (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
الحجاج (أسر يوم بدر كافراً)
أبو العاص (قتل يوم أحد كافراً)
السائب (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
الحارث (أسلم وهاجر إلى الحبشة)
معمر (أسلم وهاجر إلى الحبشة)

وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[1] وَبَعْدَ ذَلِكَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ أَكْثَرَ المُسْلِمينَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ الَّذِينَ بَقَوْا فِي مَكَّةَ قَدِ انْتَقَلُوا مُهَاجِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ. وَقَدْ هَاجَرَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى المَدِينَةِ فِي هَذِهِ المُدَّةِ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنَ المُسْتَضْعَفِيْنَ الَّذِين بَقَوْا فِي مَكَّة، أَمْ مِنَ الَّذِينَ بَقَوْا فِي الحَبَشَةِ، فَحَيَاتُهُ فِي المَدِينَةِ ظَهَرَتْ بَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ. وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ فِي أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَيَبْدُو ـ والله أعلم ـ أَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ بَدْراً مَعَ المُسْلِمِينَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ سِوَى أَخِيهِ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. عَلَى حِينَ حَضَرَهَا مَعَ المُشْرِكِينَ عَدَدٌ مِنْهُمْ: مِنْهُمْ عَمُّهُ وَفَرْوَةُ بْنُ قَيْسٍ وَقَدْ أُسِرَ يَوْمَذَاكَ بِيَدِ المُسْلِمِينَ، وَابْنُ عَمِهِ الحَجَّاجِ بْنِ الحَارِثِ وَقَدْ أُسِرَ كَذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمْ يَشْهَدْ مَعَ المُسْلِمينَ سِوَى أَخِيهِ خُنَيْسٍ بْنِ حُذَافَةَ، وَقَدْ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ يَوْمَذَاكَ وَمَاتَ مِنْهَا. عَلَى حِيْنِ حَضَرَهَا عَدَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَقُتِلَ ابْنُ عَمِّهِ أَبُو العَاصِ بْنِ الحَارِثْ، وَنُبَيْهُ بْنُ الحَجَّاحِ، وَمُنَبِّهُ بْنُ الحَجَّاجِ، والعَاصُ بْنُ المُنَبِّهِ.

---

(١) سورة النساء: الآيات ٩٧ ـ ٩٩.

سَفِيرُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُتُباً إِلَى المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى الإِسْلَامِ، وَيُحَمِّلُهُمْ إِثْمَ أَتْبَاعِهِمْ وَرَعَايَاهُمْ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَاخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُفَرَاءَهُ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ مِمَّنْ لَهُمْ عَلَاقَاتٌ بِالمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ، وَمِمَّنْ يَعُونَ الأُمُورَ وَيُحْسِنُونَ الرَّدَّ، وَيَتَصَرَّفُونَ بِالشَّكْلِ المُنَاسِبِ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ. وَوَقَعَ اخْتِيَارُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى عَبْدِاللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِحَمْلِ هَذِهِ المُهِمَّةِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ الفُرْسِ، وَعَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِمَّنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِبِلَادِ فَارِسَ، وَسَفَرٍ إِلَيْهَا، وَلِقَاءٍ مَعَ كِسْرَى، وَعَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُسْلِمٌ صَادِقٌ لَا يُمْكِنُهُ إِلَّا أَنْ يُطِيعَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُنَفِّذَ لَهُ أَوَامِرَهُ كَامِلَةً بِرِضىً، وَيَعُدَّ هَذَا عِبَادَةً وَتَقَرُّباً إِلَى اللَّهِ وَطَاعَةً لَهُ ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾[2].

سَارَ عَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهِ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ. سَلاَمٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. أَدْعُوكَ بِدُعَاءِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ. فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ إِثْمَ المَجُوسِ عَلَيْكَ».

وَوَصَلَ عَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى عَظِيمِ البَحْرَيْنِ، وَهُوَ مِنْ أَتْبَاعِ كِسْرَى فَأَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ الكِتَابَ وَيُرْسِلَهُ هُوَ عَنْ طَرِيقِهِ إِلَى كِسْرَى، فَرَفَضَ عَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذْ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِتَسْلِيْمِهِ شَخْصِياً إِلَى كِسْرَى وَلاَ يُمْكِنُهُ إِلَّا ذَلِكَ. فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى. وَوَصَلَ عَبْدُاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى كِسْرَى وَوَقَفَ أَمَامَ بَابِهِ مُسْتَأْذِناً مَعَ عُظَمَاءَ الفُرْسِ، وَقَدْ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

أُذِنَ لِعُظَمَاءِ الْفُرسِ ، ثُمَّ أُذِنَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرَادَ كِسْرَى أَنْ يَدْفَعَ عَبْدُاللَّهِ الكِتَابَ لِغَيْرِهِ، فَأَبَى عَبْدُاللَّهِ إِلَّا أَنْ يُسَلِّمَهُ شَخْصِياً، وَقَالَ لَهُ: «كُلِّفْتُ أَنْ أُعْطِيَ الكِتَابَ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ»، فَعِنْدَمَا قَابَلَ عَبْدُاللَّهِ كِسْرَى وَسَلَّمَهُ الكِتَابَ، فَلَمَّا قَرَأَهُ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإِثْمِ وَمَزَّقَ الكِتَابَ ـ وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الخَبَرُ دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يُمَزَّقَ مُلْكُهُ ـ ثم كَتَبَ كِسْرَى إِلَى بَذَانَ مَلِكِهِ عَلَى اليَمَنِ: أَنِ ابْعَثْ إِلَى هَـذَا الرَّجُـلِ الَّذِي بِـالحِجَازِ رَجُلَيْنِ جَلْدَينِ مِنْ عِنْدِكَ فَلْيَأْتِيَانِي بِهِ.

لَمْ يَكُنْ بَذَانُ رَجُلاً أَهْوَجَ لِيَتَصَرَّفَ كَمَـا يَأْمُـرُهُ الطُّغَـاةُ المُتَغَطْرِسُونَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الدُّنْيَا بِأَيْدِيهِمْ وَأَنَّ مَنْ فِيهَا تَبَعٌ لَهُمْ، وَأَنَّ أَمْـرَهُمْ نَافِـذٌ عَلَى سَائِـرِ النَّاسِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِبَاذَانَ أَنْ يُنَفِّذَ أَمْرَ مَلِكِهِ، وَلَكِنْ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ.

أَرْسَلَ بَاذَانُ قَهْرَمَانَهُ وَهُوَ بَابَويـهْ، وَكَانَ كَـاتِباً حَـاسِباً، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلاً مِنَ الفُـرْسِ يُقَالُ لَـهُ: «خُرَّخُسْـرَة» وَكَتَبَ مَعَهُمَا كِتاباً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمَا إِلَى كِسْرَى، وَقَالَ لِبَابَوِيه: وَيْلَكَ انْظُرْ حَالَ الرَّجُلِ وكَلِّمْهُ وَائْتِنِي بِخَبَرِهِ.

«فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا إِلَى الطَّائِفِ، فَسَأَلَا عَنْهُ، فَقَالُوا: هُوَ بالمَدِينَةِ. وَٱسْتَبْشَروا، وَقَالُوا: قَدْ نَصَبَ لَهُ كِسْرَى، كُفِيتُمُ الرَّجُلَ».

فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا المَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ بَابَوَيه وَقَالَ: إِنَّ شَاهَ شَّاهَ مَلِكَ المُلُوكِ كِسْرَى كَتَبَ إِلَى المَلِكِ بَذَانَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ مَنْ يَأْتِيهِ بكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِتَنْطَلِقَ مَعِي، فَإِنْ فَعَلْتَ كَتَبْتُ فِيكَ إِلَى مَلِكِ المُلُوكِ بِكِتَابٍ يَنْفَعُكَ وَيَكُفُّ عَنْكَ بِهِ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَهُوَ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ، هُوَ مُهْلِكُكَ وَمُهْلِكُ قَوْمِكَ وَمُخَرِّبُ بِلَادِكَ.

وَكَانَا قَدْ دَخَلَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ حَلَقَا لِحَاهُمَا، وَأَعْفَيَا شَوارِبَهُمَا، فَكَرِهَ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا وَقَالَ: «وَيْلَكُمَا مَنْ أَمَرَكُمَا بِهَذَا؟» قَالَا: أَمَرَنَا بِهَذَا رَبُّنَا، يَعْنِيَانِ كِسْرَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكِنَّ رَبِي أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحْيَتِي وَقَصِّ شَارِبِي»، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: «ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيَانِي غَداً».

وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الخَبَرُ أَنَّ اللَّهَ

سَلَّطَ عَلَى كِسْرَى ابْنَهُ شِيرَوِيه فَقَتَلَهُ فِي شَهْرِ كَذَا فِي لَيْلَةِ كَذَا وَكَذَا لِكَذَا مِنَ اللَّيْلِ.

فَلَمَّا أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُمَا: «إِنَّ رَبِّي قَتَلَ رَبَّكُمَا لَيْلَةَ كَذَا وَكَذَا لِكَذَا وَكَذَا مِنَ اللَّيْلِ، سَلَّطَ عَلَيْهِ ابْنَهُ شِيرَوِيه فَقَتَلَهُ». فَقَالاَ: هَلْ تَدْرِي مَا تَقُولُ؟ إِنَّا قَدْ نَقَمْنَا مِنْكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا، أَفَنَكْتُبُ هَذَا وَنُخْبِرُ المَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَخْبِرَاهُ ذَلِكَ عَنِّي، وَقُولاَ لَهُ: إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ مُلْكُ كِسْرَى، وَيَنْتَهِي إِلَى مُنْتَهَى الخُفِّ وَالحَافِرِ، وقُولاَ لَهُ: إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيْتُكَ مَا تَحْتَ يَدِكَ وَمَلَّكْتُكَ عَلَى قَوْمِكَ مِنَ الأَبْنَاءِ[1]». ثُمَّ أَعْطَاهُمَا مِنْطَقَةً فِيهَا ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ كَانَ أَهْدَاهَا لَهُ بَعْضُ المُلُوكِ. وَرَوَى البَيْهَقِي أَنْ شِيرَوِيه هَذَا الَّذِي قَتَلَ أَبَاهُ، قَدْ اسْتَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنَتَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُفْلحَ قَوْمٌ وَلَّوا أَنْفُسَهُمُ آمْرَأَةً».

فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى قَدِمَا عَلَى بَاذَانَ فَأَخْبَرَاهُ الخَبَرَ، فَقَال: واللَّهِ مَا هَذَا بِكَلاَمِ مَلِكٍ، إِنِّي لأَرَى الرَّجُلَ نَبِياً كَمَا

---

(١) الأبناء: هم بقايا الفرس في اليمن؛ الذين قدموا لإخراج الأحباش منها.

يَقُولُ، وَلَنَنْظُرَنَّ مَـا قَالَ، فَلَئِنْ كَـانَ مَا قَـالَ حَقاً إِنَّـهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَسَنَرَى فِيهِ رَأْيَنا.

فَلَمْ يَلْبَثْ بَاذَانُ أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ شِيرَوِيه: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَتَلْتُ كِسْرَى وَلَمْ أَقْتُلْهُ إِلَّا غَضَباً لِفَارِسَ، لِمَا كَـانَ يَسْتَحِلُّ بِقَتْلِ أَشْرَافِهِمْ وَتَجْمِيرِهِمْ في ثُغُورِهِمْ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابي هَذَا فَخُذْ لِي الطَّاعَةَ مِمَّنْ قِبَلِكَ، وَانْظُرِ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ كِسْرَى كَتَبَ لَكَ فِيهِ فَلَا تُهِجْهُ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي فِيهِ.

فَلَمَّا انْتَهى كِتَابُ ابْنِ كِسْـرَى إِلَى بَاذَانَ قَـالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَرَسُولُ اللَّهِ. فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَتِ الأَبْنَاءُ مِنْ فَارِسَ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِاليَمَنِ[1].

---

(١) الوفـا بأحوال المصطفى / عبدالرحمٰن ابن الجوزي المتوفى ٥٩٧ تحقيق مصطفى عبدالواحد. الجزء الثاني.

دُعَابَةُ عَبْدِ اللّٰهِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ

كَانَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صَاحِبَ دُعَابَةٍ وَضَحِكٍ مَعَ إِخْوَانِهِ، فَفِي شَهْرِ رَبِيعٍ الآخِرِ مِنْ السَّنَةِ التَّاسِعَةِ بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ نَاساً مِنَ الحَبَشَةِ يَراهُمْ أَهْلُ الشُّعَيْبَةِ ـ سَاحِلٌ بِنَاحِيَةِ مَكَّةَ ـ فِي مَرَاكِبَ؛ فَبَلَغَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَعَثَ عَلْقَمَةَ بْنَ مُجَزِّزٍ المُدْلِجِيَّ فِي ثَلاَثِمِائَةِ رَجُلٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى جَزِيرَةٍ فِي البَحْرِ، فَخَاضَ إِلَيْهِمْ فَهَرَبُوا مِنْهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ المَنَازِلِ اسْتَأْذَنَهُ بَعْضُ الجَيْشِ فِي الانْصِرَافِ حَيْثُ لَمْ يَلْقَوْا كَيْداً، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَاللَّهِ بنَ حُذَافَةَ السَهْمِيَّ، فَنَزَلُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَأَوْقَدَ القَوْمُ نَاراً يَصْطَلُونَ عَلَيْهَا وَيَصْطَنِعُونَ الطَّعَامَ، فَقَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَوَاثَبْتُمْ فِي هَذِهِ النَّارِ! فَقَامَ بَعْضُ القَوْمِ فَتَحَاجَزُوا حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُمْ وَاثِبُونَ فِيهَا، فَقَالَ: اجْلِسُوا، إِنَّمَا كُنْتُ أَضْحَكُ مَعَكُمْ! فَذُكِرَ

ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَنْ أَمَرَكُمْ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ تُطِيعُوهُ»[1].

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى الظُّهْرَ فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا»[2]. فَقَامَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبِي؟ قَال: «أَبُوكَ حُذَافَةُ، أَنْجَبَتْ أُمُّ حُذَافَةَ، الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ»، فَقَالَتْ أُمُّهُ: أَيْ بُنَيَّ، لَقَدْ قُمْتَ اليَوْمَ بِأُمِّكَ مَقَاماً عَظِيماً، فَكَيْفَ لَوْ قَالَ الأُخْرَى؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُبْدِي مَا فِي نَفْسِي[3].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فِي عَبْدِاللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ، بَعَثَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَرِيَّةٍ[4].

---

(١) المغازي: محمد بن عمرو بن واقد المتوفى ٢٠٧ هـ الجزء الثالث.

(٢) الإصابة: ابن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢ هـ. الجزء الثاني.

(٣) طبقات ابن سعد المتوفى ٢٣٠ هـ. الجزء الرابع.

(٤) الإصابة.

فِي حجَّةِ الوَدَاع

وَفِي السَّنَةِ العَاشِرَةِ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا دَخَلَ ذُو القِعْدَةِ، تَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْحَجِّ وَأَمَرَ النَّاسَ بِالجِهَازِ لَهُ. وَانْطَلَقَ بِالحَجِيجِ لِخَمْسٍ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ ذِي القِعْدَةِ، وَخَطَبَ النَّاسَ بِالحَجِّ خُطْبَتَهُ المَشْهُورَةَ، وَبَيَّنَ لِلنَّاسِ بَعْضَ أُمُورِ دِينِهِمْ، وَفِي أَيَّامِ مِنَى بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدَاللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِيُنَادِي فِي النَّاسِ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّهَا أَيَامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ».

وَقَامَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُصَلِّي فَجَهَرَ بِالقِرَاءَةِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَا أَبَا حُذَافَةَ لَا تُسَمِّعْنِي وَسَمِّعِ اللَّهَ».

فِي الفتوحَاتِ

لَمْ يَلْبَثْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ تُـوُفِّيَ بَعْدَ أَنْ عَادَ مِنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ ، فَقَدْ مَرَّ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ شَهْـرِ ذِي الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ وَصَفَرٌ وَتُوفِّيَ فِي ١٢ رَبِيعٍ الأَوَّلِ.

وَبَايَعَ المُسْلِمُونَ خَلِيفَةً لَهُمْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَارْتَدَّتْ أَكْثَرُ العَرَبِ فَبَعَثَ لَهُمُ الصِّـدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الجُيُوشَ حَتَّى دَانُوا ثَانِيَةً، وَعَادَ الإِسْـلَامُ إِلَى جَزِيـرَةِ العَرَبِ كَامِلَةً، ثُمَّ جَهَّـزَ الجُيُوشَ لِحَـرْبِ الفُرْسِ وَالـرُّومِ لإِنْهَاءِ الظُّلْمِ مِنْ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعَ المُسْلِمُونَ إِلَى ذَلِـكَ سَبِيلاً، وَانْخَـرَطَ المُسْلِمُونَ فِي هَـذِهِ الجُيُوشِ، وَانْطَلَقُوا مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَانَتْ وُجْهَةُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، بِلَادَ الشَـامِ ، وَيَبْدُو أَنَّـهُ كَانَ مِنْ ضِمْنِ الجَيْشِ الَّـذِي يَقُودُهُ عَمْـرُو بْنُ العَـاصِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، وَوُجْهَتُهُ فِلِسْـطِينَ، فَقَاتَـلَ عَبْدُاللَّهِ فِي صُفُـوفِ هَـذَا الجَيْشِ ، ثُمَّ اجْتَمَعَتْ جُيُوشُ بِلَادِ الشَّامِ كُلُّهَا فِي اليَرْمُوكِ

وَجَاءَهَا مَدَدٌ مِنَ العِرَاقِ بِقِيَادَةِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاشْتَرَكَ عَبْدُاللَّهِ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ، ثُمَّ سَارَتِ الجُيُوشُ بَعْدَ نَصْرِهَا عَلَى الرُّومِ فِي اليَرْمُوكِ مُجْتَمِعَةً كَذَلِكَ بِقِيَادَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى دِمَشْقَ فَحَاصَرَتْهَا فَتَمَّ الفَتْحُ، وَبَعْدَ الفَتْحِ اتَّجَهَ كُلُّ جَيْشٍ إِلَى جِهَتِهِ الَّتِي انْطَلَقَ إِلَيْهَا فِي البِدَايَةِ، وَعَادَ المَدَدُ ثَانِيَةً إِلَى العِرَاقِ، وَإِنْ بَقِيَ خَالِدٌ يَعْمَلُ فِي هَذِهِ الجَبْهَةِ تَحْتَ إِمْرَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَرَغْمَ أَنَّ عَبْدَاللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ شَارَكَ فِي هَذِهِ الفُتُوحَاتِ وَفِي المَعَارِكِ كُلِّهَا وَلَكِنْ لَمْ يُسْمَعْ بِهِ وَلَمْ يُذْكَرْ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ كَانَ يُقَاتِلُ صَامِتاً لاَ يَتَكَلَّمُ، وَلاَ يَرْتَفِعُ لَهُ صَوْتٌ، وَكُلُّ الَّذِي عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَقَدَّمُ المُقَاتِلِينَ، وَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُعْرَفَ.

اِسْتِعْلَاءُ الإِيمَان

اتَّجَهَ أَبُو عُبَيْدَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ فَتْحِ دِمَشْقَ إِلَى حِمْصَ وَكَانَ هَذَا المُقَرَّرَ فِي بِدَايَةِ سَيْرِ الجُيُوشِ، وَسَارَ شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى الأُرْدُن حَسْبَ وَجْهَتِهِ الأُولَى، وَانْطَلَقَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى فِلَسْطِينَ إِذِ اتَّجَهَ إِلَيْهَا مِنَ السَّابِقِ يَقْضِي عَلَى مَوَاقِعِ الرُّومِ الَّتِي بَقِيَتْ لَهُمْ فِي تِلْكَ الجِهَاتِ رَغْمَ تَقَدُّمِ المُسْلِمِينَ إِلَى الشَّمَالِ كَثِيراً فِي المَنَاطِقِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَبَقِيَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي دِمَشْقَ وَهِي جِهَتُهُ الأُولَى، وَأَرْسَلَ يَزِيدُ أَخَاهُ مُعَاوِيَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِيُنْهِيَ وَضْعَ الرُّومِ عَلَى السَّاحِلِ فَسَارَ إِلَى قَيْسَارِيَّةَ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ قُوَّةِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَيْنَهُمْ عَبْدُاللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمَّا كَانَ يَنْطَلِقُ أَمَامَ المُقَاتِلِينَ فَقَدْ أَسَرَهُ أَهْلُ قَيْسَارِيَّةَ مَعَ مِائَةِ أَسِيرٍ، فَأَمَرَ بِهِ مَلِكُهُمْ فَجرِّبَ بِأَشْيَاءَ صَبَرَ عَلَيْهَا. ثُمَّ جَعَلُوا فِي بَيْتٍ مَعَهُ

الخَمْرُ وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ ثَلاثاً لَا يَأْكُلُ، فَاطَّلَعُوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا لِلْمَلِكِ: قَدِ انْثَنَى عُنُقُهُ، فَإِنْ أَخْرَجْتَهُ وَإِلَّا مَاتَ. فَأَخْرَجَهُ.

وَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَ وَتَشْرَبَ؟.

قَالَ: أَمَا إِنَّ الضَّرُورَةَ كَانَتْ قَدْ أَحَلَّتْهَا لِي، وَلَكِنْ كَرِهْتُ أَنْ أُشْمِتَكَ بِالإِسْلَامِ.

قَالَ: فَقَبِّلْ رَأْسِي، وَأُخْلِي لَكَ مِائَةَ أَسِيرٍ.

قَالَ: أَمَّا هَذَا فَنَعَمْ.

وَرَوَى ابْنُ عَائِذٍ قِصَّةَ ابْنِ حُذَافَةَ فَقَالَ: حَدَّثَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَنَّ آبنَ حُذَافَةَ أُسِرَ. فَذَكَرَ القِصَّةَ مُطَوَّلَةً، وَفِيهَا: أَطْلَقَ لَهُ ثَلَاثَمِائَةِ أَسِيرٍ، وَأَجَازَهُ بِثَلاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَثَلَاثِينَ وَصِيفَةً، وَثَلاثِينَ وَصِيفاً[1].

وَلَعَلَّ هَذَا المَلِكُ قَدْ أَسْلَمَ سِرّاً، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مُبَالَغَتُهُ فِي إِكْرَامِ ابْنِ حُذَافَةَ.

وَيَبْدُو أَنَّ عَبْدَاللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدْ أُسِرَ

---

(١) سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ. الجزء الثاني.

مَرَّتَيْنِ، وَفِي كِلاَهُمَا حَاوَل الرُّومُ أَنْ يُرَاوِدُوهُ عَنْ دِينِهِ فَعَجِزُوا وَاسْتَعْلَى بِإِيْمَانِـهِ فَكَانُـوا أَمَامَـهُ صَاغِـرِينَ، وَرُوِيَتْ رِوَايَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فِي شَأْنِهِ حَتَّى حَسِبَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الأَسْرَ قَدْ وَقَعَ لَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَذَلِكَ لأَنَّهُ فِي كِلاَ المَرَّتَيْنِ كَانَ يُقَبِّلُ رَأْسَ المَلِكِ فَيُطْلِقُ سَرَاحَهُ وَالأَسْرَى الَّذِينَ مَعَهُ، وَذَلِكَ لأَنَّ الرُّومَ يَعُدُّونَ تَقْبِيلَ الرَّأْسِ احْتِرَاماً كَبِيراً، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ حَسْبَمَا يَظْهَرُ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ فِي تَقْبِيـلِ رَأْسِ المَلِكِ مِنْ قِبَلِ الأَسِيـرِ مَهَابَـةً لِلْمَلِكِ وَمَهَانَةً لِلأَسِيرِ الَّذِي يُمَثِّلُ دَوْلَةً مُعَادِيَةً لَهُمْ أَوْ مُجْتَمَعاً مُخَالِفاً لَهُمْ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ المُرَاوَدَةَ تَكُونُ لِعَبْدِاللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دُونَ سَائِرِ الأَسْرَى لأَنَّ فِيـهِ دُعَابَـةً ـ كَمَا ذَكَـرْنَا ـ إِذْ يَضْحَكُ مَعَ الأُسَارَى وَمَعَ الرُّومِ، وَيَحْتَرِمُ زُمَلاَءَهُ فِي الأَسْرِ كَطَبِيعَةِ المُسْلِمِينَ إِذْ يَحْتَرِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فَيَبْـدُو لِلرُّومِ أَنَّهُ كَبِيرُهُمْ أَوْ أَنَّهُ ذُو شَأْنٍ عِنْدَهُمْ فَيُحَاوِلُونَ عَرْضَ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَيْهِ فَيَأْبَى وَيَسْتَعْلِي بِإِيْمَانِهِ فَوْقَهُمْ بَلْ فَوْقَ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَتَهُونُ أَمَامَهُ أَنْـوَاعُ العَذَابِ، وَيَسْتَخِفُّ بِـالمَـوْتِ فَمَـا يَـزِيـدُ الـرُّومَ إِلاَّ اسْتِصْغَاراً، وَيَكْبُرُ فِي أَعْيُنِهِمْ كَثِيراً، وَيَعْظُمُ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ القَوْمِ.

وَجَّهَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَيْشاً إِلَى الرُّومِ، فَأَسَرُوا عَبْدَاللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ، فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ: فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ.

فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ وَأُعْطِيكَ نِصْفَ مُلْكِي؟.

قَالَ عَبْدُاللَّهِ: لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ، وَجَمِيعَ مُلْكِ العَرَبِ، مَا رَجَعْتُ عَنْ دِيْنِ مُحَمَّدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

قَالَ: إِذَنْ أَقْتُلُكَ.

قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

فَأَمَرَ بِهِ، فَصُلِبَ، وَقَالَ لِلرُّمَاةِ: ارْمُوهُ قَرِيباً مِنْ بَدَنِهِ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ، وَيَأْبَى، فَأَنْزَلَهُ وَدَعَا بِقِدْرٍ، فَصُبَّ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى احْتَرَقَتْ، وَدَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا، فَأُلْقِي فِيهَا، وَهُوَ يَعرِضُ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ، وَهُوَ يَأْبَى. ثُمَّ بَكَى. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: إِنَّهُ بَكَى. فَظَنَّ أَنَّهُ جَزِعَ، فَقَالَ: رُدُّوهُ.

مَا أَبْكَاكَ؟.

قَالَ: قُلْتُ: هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تُلْقَى السَّاعَةَ فَتَذْهَبُ،

فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُـونَ بِعَدَدِ شَعْـرِي أَنْفُسٌ تُلْقَى فِي النَّارِ فِي اللَّهِ.

فَقَالَ لَهُ الطَّاغِيَةُ: هَلْ تُقَبِّلُ رَأْسِي وَأُخَلِّي عَنْكَ؟.

فَقَالَ لَهُ عَبْدُاللَّهِ: وَعَنْ جَمِيعِ الأُسَارَى؟.

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَبَّلَ رَأْسَهُ.

وَقَدِمَ بِالأُسَارَى عَلَى عُمَرَ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّـلَ رَأْسَ ابْـنِ حُذَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ. فَقَبَّلَ رَأْسَـهُ[1].

وَمَا مَكَثَ مُدَّةً حَتَّى تَاقَتْ نَفْسُهُ لِلْجِهَادِ فَاسْتَأْذَنَ الخَلِيفَةَ وَانْطَلَقَ نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ فَالْتَحَقَ بِجَيْشِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يَسْتَعِدُّ لِمِصْرَ فَسَارَ مَعَهُ، وَشَهِـدَ فَتْحَ مِصْرَ، وَخَاضَ كَثِيراً مِنَ المَعَارِكِ وَهُوَ عَلَى عَادَتِـهِ صَامِتٌ، وَانْتَهَى فَتْحُ مِصْرَ، فَبَقِي مُرَابِطاً فِيهَا حَتَّى أَدْرَكَتْهُ الوَفَاةُ عَامَ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) سير أعلام النبلاء.

فِي خِلاَفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، وَهَكذَا انْتَهَتْ حَيَـاةُ هَذَا الصَّحَـابِيِّ الجَليلِ الَّـذِي قَضَى أَكْثَـرَ مِنْ ثَمـانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ أُصيبَ، وَأُسِرَ، وَمَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

بُناة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١٥ -

المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـدُ لِلَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ، والصَّـلاةُ والسَّـلامُ على رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مُحَمَّـدِ بنِ عَبْـدِاللَّهِ أَفْضَلِ خَلْقِ اللَّهِ، وَخَاتَمِ أَنْبِيائِهِ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ على دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْد:

فَـإِنَّـهُ إِذَا ذُكِـرَ المِقْـدَادُ بْنُ عَمْـرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، تَداعَتِ الفُرُوسِيَّةُ إلى الأَذْهَانِ، وَلَكِنْ إِذَا وَصَفْنَاهُ بِالفُرُوسِيَّةِ نَكُونُ قَدْ هَضَمْنَاهُ حَقَّهُ، أَوْ أَعْطَيْنا الفُرُوسِيَّةَ مَعْنىً أَكْبَرَ مِنْ مَعَـانيها، فَهُـوَ فَارِسٌ لا كـالفُرْسَـانِ، قَدْ يَلْتَقي مَعَهُمْ بِقُـوَّةِ الرِّجَالِ، وَشَجَـاعَةِ الأَبْـطَالِ، وَبُطُولَـةِ الشُّجْعَانِ، غَيْـرَ أَنَّهُ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً - إِلَّا مَنْ كانَ مِثْلَهُ - بِشِدَّةِ العَزْمِ المَشُوبَةِ بالإيمان التي لا تَصْلُحُ مَعَها شِدَّةٌ مَهْما اشتَدَّتْ، وَلا تُدانِيها عَزِيمَةٌ مَهْما تَقَوَّتْ.

نَشْأَتُــهُ :

يَعُـودُ المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، فِي أَصْلِهِ إِلَى المَهَرَةِ الَّذِينَ يُقيمُونَ بَيْنَ حَضْرَمَوْت وَظَفَارِ، وَكَانَتِ الجاهِلِيَّةُ مُسيطِرَةً عَلى المُجْتَمَع، وَتَقُومُ على الصِّرَاعِ ، وَإِظْهَارِ القُوَّةِ لإِمْكَانِيَّةِ الغَلَبَةِ، وَإِخْضَاعِ الآخَرِينَ، كُلٌّ يَعْمَلُ على ذَلِكَ كَيْ يَكُونَ لَهُ السُّلْطَانُ، وَيَكُونَ لَهُ النُّفُوذُ. وَقَـدْ أَصَابَ أَبُـوهُ عَمْرُو بنُ ثَعْلَبَةَ دَمَاً في قَوْمِهِ، فَفَرَّ عَلى غَفْلَةٍ مِنْ خُصُومِهِ، وَهَرَبَ إِلى حَضْرَمَوْتَ، وَحَالَفَ هُنَاكَ كِنْدَةَ، وَتَزَوَّجَ، وَوُلِدَ لَهُ المِقْدَادُ، فَهُوَ إِذَنْ: المِقْدَادُ بنُ عَمْرِو بنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكِ بنِ رَبيعَـةَ بن عَـامِرِ بنِ مَـطْرُودِ بنِ عَمْـرِو بنِ سَعْـدِ بنِ دُهَيْـرِ بنِ لُؤَيِ بنِ ثَعْلَبَـةَ بنِ مَـالِـكِ بنِ الشَّـرِيـدِ بنِ أَبي أَهْـوَنَ بنِ فَـائِشِ بنِ دُرَيمِ بنِ القَيْنِ بنِ أَهْـوَدَ بنِ بَهْـرَاءَ بنِ عَمْـرِو بنِ الحـافِ بنِ قُضَاعَةَ، فَهُوَ قُضاعِيٌّ، بَهْرَانيٌّ حَضْرَمِيٌّ، كِنْدِيٌّ.

بَدَأَتْ رُجُولَةُ المِقْدَادِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تَظْهَـرُ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ، لَكِنَّهُ يَعيشُ في جَاهِلِيَّةٍ، وفي الجاهِلِيَّةِ شَهْوَةٌ جَامِحَةٌ إِلى السُّلْطَةِ، وَنُزُوعٌ كَبِيرٌ إِلَى السَّيْطَرَةِ، وَتَبْدُو هَذِهِ الرَّغبَةُ عَنْدَ الشَّبَابِ في مُقْتَبَلِ العُمْـرِ، إِذْ يَنْظُرُونَ مَعَهَا إِلى الآمَالِ في المُسْتَقْبَلِ ، أَمَلِ الزَّعَامَةِ والرِّئَاسَـةِ، أَمَلِ السِّيَـادَةِ، وَتَحْقِيقِ

الرَّغَبَاتِ مِنْ كُلِّ مَا تَهْوَى النَّفْسُ وَمَا تَشْتَهِي، وَصَحِيحٌ أَنَّ طُمُوحَاتِ الشَّبَابِ قَائِمَةٌ في كُلِّ عَصْرٍ، إلّا أنّها في الجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ تَنْحَصِرُ في السِّيَادَةِ، ولِتَحْقِيقِ اللَّذَّاتِ، فَالسَّيِّدُ يَصْطَفي لِنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ مِنْ فَتَيَاتِ قَوْمِهِ لَا تَمْتَنِعُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ، وَلَا يَرْغَبُ أَهْلُها عَنْهُ بِغَيْرِهِ، وَيَأْخُذُ مِنْ قَبِيلَتِهِ أَثْمَنَ غَنَائِمِها، وَيَتَقَدَّمُ الصَّنَادِيدُ في القِتَالِ أَمَامَهُ، وَيُعَرِّضُ الأَبْطَالُ أَنْفُسَهُمْ لِلْمَوْتِ دُونَهُ، فَهُوَ عُنْوَانُ القَبِيلَةِ، وَحَامِي ذِمَارِهَا.

وَقَعَ خِلَافٌ بَيْنَ المِقْدَادِ وَبَيْنَ أَبِي شَمَّرِ بنِ حِجْرِ الكِنْدِيِّ، فَضَرَبَ المِقْدَادُ رِجْلَ أَبِي شَمَّرٍ بالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، وَكَانَ المِقْدَادُ في مُقْتَبَلِ العُمْرِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الرَّحِيلِ عَنْ دِيَارِهِ كَيْ لَا يُثْأَرَ مِنْهُ وَخَاصَّةً أَنَّهُ حَلِيفٌ لَهُمْ، وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ، وَالْتَجَأَ إِلَى الأَسْوَدِ بنِ عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيِّ، وَتَرَبَّى عِنْدَهُ، فَتَبَنَّاهُ الأَسْوَدُ حتى أَصْبَحَ يُعْرَفُ بِالمِقْدَادِ بنِ الأَسْوَدِ، وَقِيلَ: كانَ عَبْداً أَسْوَدَ اللَّوْنِ فَتَبَنَّاهُ، كما قِيلَ: إِنَّهُ حَالَفَهُ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِيهِ فَقَدِمَ عَلَيْهِ.

وَشَعَّ نُورُ الإِسْلامِ في مَكَّةَ، وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُو قَوْمَهُ، فَكَانَ المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدَ السَّابِقِينَ لِرَجَاحَةِ عَقْلِهِ وَسَدَادِ فِكْرِهِ، وَذُكِرَ أَنَّهُ مِنْ بَيْنِ

سَبْعَةٍ أَظْهَرُوا الإِسْلاَمَ قَبْلَ غَيْرِهِمْ. وَهَاجَرَ المُسْلِمُونَ الأَوَائِلُ إلى الحَبَشَةِ مَرَّتينِ لمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ أَذى قَوْمِهِمْ، وكَانَ المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَيْنَ المهاجرينَ في المَرَّتَيْنِ.

وَجَاءَتْ الهِجْرَةُ إلى المَدِينَةِ، وَبَدأَ المُسْلِمُونَ يُهَاجِرُونَ أَفْرَاداً وَجَمَاعاتٍ، وَهَاجَرَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَوَجَدَ المُسْلِمُونَ في المَدِينَةِ الإِخْوَةَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَنْسَوْهُمْ ما يُعَانُونَ مِنْ غُرْبَةٍ، وَمَا يُلاَقُونَ مِنْ مَشَقَّةٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ مِنْ أَسَىً عَلى تَرْكِ الأَمْوالِ، والعَشِيرَةِ وَالأَوْطَانِ، غَيْرَ أَنَّ المِقْدَادَ لَمْ تُمَكِّنْهُ ظُرُوفُهُ مِنَ الهِجْرَةِ رَغْمَ أَنَّ الدُّنيا ـ عِنْدَهُ ـ كُلَّها في كَفَّةٍ، والهِجْرَةُ في كَفَّةٍ وَهِيَ الرَاجِحَةُ، وَيُخَفِّفُ مِنْ أَلَمِهِ أَنَّهُ بَقِيَ في مَكَّةَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ، مِنْهُمْ مَنْ تَعْرِفُهُ قُرَيشٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَعْرِفْ، فَصَمَتَ عَلَى كُرْهٍ، وَسَكَتَ وَلَواعِجُ الأَسَى تَمْلأُ فُؤَادَهُ، وَتَقُضُّ مَضْجَعَهُ. وَبَدَأَ التَّفْكِيرُ يَأْخُذُ طَرِيقَهُ إِلَى نَفْسِ المِقْدَادِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في كَيْفِيَّةِ الهِجْرَةِ وَالوُصُولِ إِلَى الأَحِبَّةِ.

وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ الهِجْرَةِ أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنَ الصِّدَامِ مَعَ قُرَيشٍ التي يَأْكُلُ الحِقْدُ أَكْبَادَ زُعَمَائِهِا، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتْرُكَ المُسْلِمينَ يَنْعَمُونَ بالاسْتِقْرَارِ،

وَيهْنَؤُونَ بالأَمْنِ، وَرَأى، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ مَيْـدَانَ المَعْرَكَةِ المُنْتَظَرَةِ سَيَكُونُ عَلَى طَرِيقِ قَوَافِلِ قُرَيشٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّامِ ، وَحَدَّدَ المَنْطِقَةَ فِي ذِهْنِـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ بِلَادِ غِفَارٍ في الجَنُوبِ بَعِيداً عَنْ دِيارِ قُرَيْشٍ وَبَيْنَ بِلادِ جُهَيْنَةَ في الشَّمَالِ، وَبَيْنَ هاتَينَ المَنْطِقَتَيْنِ وإلى الغَرْبِ مِنَ المَدينَةِ تَغْدُو قَوَافِلُ قُرَيْشٍ وَتَرُوحُ، فَلَا بُدَّ مِنَ الاسْتِعْدَادِ، وَمِنَ الاسْتِعْـدَادِ دِرَاسَـةُ الأَرْضِ والتَّعَـرُّفُ عَلى فِجاجِهـا، وَدُرُوبِهَـا، وَمَسَالِكِها، وَعُيُونِها، وَمِنَ الاسْتِعْدَادِ أَيْضَـاً التَّعَرُّفُ عَلى أَهْـلِ المِنْـطِقَـةِ وَقَبَـائِلِهـا، وَمُحَـاوَلَـةُ كَسْبِهِمْ لِصَفِّ المُسْلِمينَ، أَوْ وُقُوفِهِمْ عَلَى الأَقَلِّ عَلَى الحِيَادِ، إِذَا مَا وَقَعَتِ المَعْرَكَةُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَقُرَيْشٍ ، وَلِضَمَانِ حِيَادِ هَذِهِ القَبَائِلِ التي تَخْشَى جَانِبَ قُرَيْشٍ عَادَةً، وَتُحَاوِلُ التَقَرُّبَ مِنْها لأَنَّها سَدَنَةُ البَيْتِ العَتِيقِ، لِذَا كَانَ لَا بُـدَّ مِنَ التَّحَالُفِ مَـعَ هذِهِ القَبَـائِـلِ إِنْ أَمْكَنَ. وَرَغِبَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ عَنْ طَرِيقِ غَزَوَاتٍ وَسَـرَايا، يَتَعَرَّفُ أَفْرَادُها بِأَنْفُسِهِمْ عَلى الأَرْضِ ، وَيَلْتَقُونَ بِالْقَبَـائِلِ ، وَيَتَحَمَّسُـونَ لِلْقِتَالِ ، وَتَأَلَّفَـتْ هَـذِهِ الغَـزَوَاتُ والسَّرَايـا مِنَ المُهَاجِرِينَ فَقَطْ في أَوَّلِ الأَمْرِ، وَذَلِكَ لأَنَّ الأَنْصَارَ قَدْ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في بَيْعَـةِ العَقَبَةِ الثَّـانِيَةِ

عَلَى النَّصْرِ في المَدِينَةِ، وَلَمْ يُبَايِعُوهُ عَلَى السَّيْـرِ إِلى القِتَال خَارِجَ حُدُودِ مَدِينَتِهِمْ، وَإِنْ كانُوا على اسْتِعْدَادٍ لَلسَّيْـرِ إِلَى آخِرِ الدُّنْيَـا كمَا ظَهَـرَ في كَلِمَـةِ سَيِّـدِهِمْ سَعْـدِ بنِ مُعَـاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، قُبَيْلَ مَعْـرَكَةِ بَـدْرٍ عِنْدَمَـا أَرادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَعْرِفَ رَأْيَهُمْ في ذَلِكَ.

وَخَـرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، غَازِيـاً في رَأْسِ صَفرَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانيَةِ، واسْتَعْمَلَ عَلَى المَدِينَةِ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَيِّدَ الخَزْرَجِ، وَسَارَ حتى بَلَغَ وَدَّانَ، وَيُـرِيدُ قُـرَيْشاً وَبَني ضَمْـرَةَ بنِ بَكْرِ بنِ عَبْـدِ مَنَاةِ بنِ كِنَـانَةَ، فَوَادَعَهُ بَنُو ضَمْرَةَ، وَكَانَ الَّذي وَادَعَهُ مِنْهُمْ مَخْشِيُّ بنُ عَمْرِو الضَّمْـرِيُّ، وَكَـانَ سَيِّـدَهُمْ، وَرَجَـعَ بَعْـدَهَـا رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ، وَلَمْ يَلْقَ كَيْداً، وتُعْرَفُ هَذِهِ الغَزْوَةُ بِغَزْوَةِ «الأَبْوَاءِ».

وَمَا أَنْ وَصَلَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلى المَدِينَةِ، وَأَقَامَ فيها بَقِيَّةَ شَهْرِ صَفرَ وَصَدْراً مِنْ رَبيعٍ الأَوَّلِ حَتَّى بَعَثَ عُبَيْدَةَ بنَ الحَارِثِ بنِ المُـطَّلِبِ بنِ عَبْدِمُنَـافٍ في سِتِّينَ أَوْ ثَمـانِينَ رَاكِباً مِنَ المُهَـاجِرِينَ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَـدٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَسَارَ عُبَيْدَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى بَلَغَ مَاءً بِالحِجَازِ

بِأَسْفَلِ ثَنِيَّـةِ المُرَّةِ فَلَقِيَ جَمْعَـاً عَظِيمـاً مِنْ قُرَيْشٍ ، وَعَلَى القَوْمِ عِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَلَمْ يَقَعْ قِتَالٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، إلَّا أَنَّ سَعْـدَ بنَ أبي وَقَّاصٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، قَدْ رَمَى يَـوْمَئِذٍ بَسَهمٍ ، فَكَـانَ أَوّلَ مَنْ رَمَى بِهِ فِي الإِسْـلامِ ، ثُمَّ انصرفَ القَوْمُ عَنِ القَوْمِ ، وللمُسْلِمِينَ حَامِيةٌ. وَخَرَجَ مِنَ المُشْرِكِينَ إِلَى المُسْلِمِينَ المِقْدَادُ بنُ عَمْرٍو البَهْرَانِيُّ وَعُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ، وكانَا مُسْلِمَيْنِ في مَكَّةَ، وَخَرَجَا مَعَ الكُفَّار وَسِيلَةً لِلْوُصُولِ إلى المُسْلِمِينَ.

وَسَـارَ الـرَّكْبُ الإِسْــلامِيُّ إلى المَـدِينَــةِ، وَالمِقْـدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَعُدُّ الخُطُوَاتِ، وَيَجِدُّ في السَّيْرِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ مَأْمُورٌ لَتَرَكَ القَوْمَ وَأَسْرَعَ الخُطَا لَيَلْتَقِيَ بِحَبِيبِهِ وَنَبِيِّهِ، إِذْ زَادَ الشَّوْقُ إِلَيْهِ، فَقَدْ مَضَى عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ عَامٍ لَمْ يَرَهُ. وَوَصَلَ الرَّكْبُ إِلَـى المَدِينَةِ وانْطَلَقَ المِقْدَادُ إِلى المَسْجِدِ، وَقَدِ ارْتَفَعَتِ الحَرارَةُ، حَـرارَةُ الشَّـوْقِ، حَـرارَةُ المَحَبَّـةِ، وَهُـوَ لا يَـدْرِي مَـا حَوْلَهُ، وَمَاذا يَصْنَعُ، حَتَّى إذا ٱنْتَهَى إِلى المَسْجِدِ، والْتَقى بِـرَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، انْهَمَـرَ الـدَّمْـعُ مِنَ الفَرَحِ ، وَعَانَقَ رَسُولَهُ، وانْطَفَأَ ظَمَأُ الشَّوْقِ، وَإِن لَمْ يَنْطَفِىءْ، وَعِنْدَما صَحَا إلى مَا حَوْلَهُ سَلَّمَ عَلى إِخْوَانِهِ، وَهَنَّأَهُمْ عَلَى

قُرْبِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَشَكَرَ لَهُمْ حُسْنَ صَنِيعِهِمْ، وَهَنَّؤُوهُ بِسَـلاَمَـةِ الـوُصُـولِ، وَنَـزَلَ عَلى كُلْثُومِ بنِ الهِدْمِ، وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَـهُ وَبَيْنَ جَبَّارِ بنِ صَخْـرِ بنِ عَبْدِاللَّهِ بنِ عُتْبَـةَ الأَنْصَـارِيِّ. وَدَعَاهُ أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى بَني حُدَيلة فَأَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيهِمْ.

وَتَكَـرَّرَتِ الغَزَوَاتُ، وَتَعَـدَّدَتِ السَّـرَايـا إِلى الجِهَـاتِ الغَرْبِيَّةِ لِلتَّعَـرُّضِ لِقَوافِـلِ قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَحْـدُثِ اللِّقَاءُ لأَنَّ المُخـطِّطَ لَمْ يَكُنْ يُرِيـدُ ذَلِكَ، وَإِنَّمـا يُرِيـدُ دِراسَـةَ مَيْـدَانِ المَعْرَكَةِ، والتَّعَرُّفَ عَلَى قَبَائِلِ المَنْطِقَةِ، وَلَوْ أَرَادَ لَتَمَّ، فَكَانَ يُرْسِلُ السَّرِيَّةَ، أَوْ يَسِيرُ بِالغَزْوَةِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا بِقَافِلَةِ قُرَيْشٍ قَدْ مَرَّتْ، وَلَمْ يُدْرِكْهَا، أَوْ لَمْ تَتْبَعْها السَّرِيَّةُ. فَلَمَّـا أَرَادَ الصِّـدَامَ وَتَيَقَّنَ أَنَّ المَنْـطِقَـةَ أَصْبَحَتْ مَعْـرُوفَـةً، وَاطْمَأَنَّ إِلى جَانِبِ أَهْلِهَـا، وَأُفْلِتَتِ القَافِلَةُ مِنْ يَـدِهِ، وَهِيَ قَافِلَةُ أَبِي سُفْيَانَ في طَرِيقِها إِلى الشَّامِ تَرَكَ رَجُلَيْنِ هُمَـا: سَعِيـدُ بنُ زَيـدٍ وَطَلْحَـةُ بنُ عُبَيْـدِاللَّهِ لِيَـرْصُـدَا القَـافِلَةَ حِينَ رُجُوعِهَـا، وَإِعْلاَمِ المَدِينَةِ عَنْ وَقْتِ وُصُولِها.

وَجَاءَ الخَبَرُ عَنْ مَـوْعِدِ القَـافِلَةِ، وَنَدَبَ النَّـاسَ للقِتَالِ

فَأَسْرَعَ مَنْ أَسْـرَعَ، وَمَا ظَنُّهُمْ إلّا القَـافِلَةَ، لِذَا لَمْ يَخْـرُجِ النَّاسُ جَمِيعاً، وَنَجتِ القَـافِلَةُ، وَعَلِمَتْ قُرَيْشٌ، وَأَسْـرَعَتْ لإنْقَاذِ القَافِلَةِ، وَحِمَايَةِ سُمْعَتِها ـ حَسْبَ زَعْمِهَا ـ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ القِتَالُ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ في الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُسَاقُونَ إلى المَـوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَإِذْ يَعِـدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَـاتِهِ وَيَقْـطَعَ دَابِرَ الكَـافِرِينَ. لِيُحِـقَّ الحَـقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾[1]. وَكَانَ المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ بَيْنِ القَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مَـعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ فَارِساً، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَمَرْثَدُ بنُ أَبي مَرْثَدٍ كَانَا فَارِسَيْنِ أَيْضاً، وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ ثَلاثَتِهِمْ فَارِسَاً. وَيَرْوِي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: كانَ مَعِي فَرَسٌ يَوْمَ بَدْرٍ يُقَالُ لَهُ سَبْحَة.

وَوَقَفَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَبْشِـرُ أَصْحَابَهُ وَقَدْ فُرِضَ عَلَيْهِم القِتَالُ، وَأَصْبَحُوا وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ٥ ـ ٨.

جَيْشِ قُرَيْشٍ يَتَقَدَّمُهُ طَواغِيتُهُ، وَيُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَعْرِفَ رَأْيَ الأَنْصارِ، فَهُمْ أَكْثَرِيَّةُ الجَمْعِ، وَكَانَتْ بَيْعَتُهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ حِمَايَةَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في دَاخِلِ المَدِينَةِ، وَلَمْ تَنُصَّ البَيْعَةُ في القِتَالِ خَارِجَها، لِذَا رَغِبَ في مَعْرِفَةِ مَا يَراهُ الأَنْصارُ، وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِذَلِكَ، فَقَال: أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّها القَوْمُ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ وَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ وَأَحْسَنَ. فَأَثْنَى عَلَيْهِمَا رَسُول اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّها القَوْمُ».

فَنَهَضَ المِقْدَادُ بنُ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، فَنَحْنُ مَعَكَ، واللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بنو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾. وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوالذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لو سِرْتَ بِنَا إِلى بَرْكِ الغِمَادِ[1] لجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ، وَإِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ يَسَارِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ. وَقَدْ سُرَّ

(١) برك الغماد: ناحية باليمن في أقصى الجزيرة.

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «خَيْراً»، وَدَعا لَهُ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشيروا عَلَيَّ أَيُّها النَّاسُ»، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ رَأْيَ الأَنْصَارِ، فَوَقَفَ سَعْدُ بنُ مَعَاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَائِدُ كَتِيبَةِ الأَنْصَارِ، وَسَيِّدُ الأَوْسِ، فَقَالَ: واللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدنا يَا رسُولَ اللَّهِ، قَال: «أَجَلْ». قَالَ: قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الحَقُّ، وَأَعْطَيناكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنا وَمَوَاثِيقَنا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ، فَامْضِ يا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لو اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا البَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غداً، إِنَّا لَصُبُرٌ في الحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ.

فسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَقَالَ: «سِيرُوا وأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَني إِحْدَى الطائِفَتَينِ، وَاللَّه لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ القَوْمِ». وَكَانَتِ المَعْرَكَةُ، مَعْرَكَةُ بَدْرٍ، مَعْرَكَةُ الفُرْقَانِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ،

المَعْـرَكَـةَ التي نَصَـرَ اللَّهُ فيهـا عِبَـادَهُ المُؤْمِنِينَ، وَخَـذَلَ المُشْرِكِينَ.

واسْتَدَارَ العَامُ، وَأَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ بِطُغْيانِها وَجَبَرُوتِها تُرِيدُ أَنْ تَثْأَرَ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَخَرَجَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مَـعَ أَصْحَـابِـهِ لِمُـلاقَـاةِ قُـرَيْشٍ، وَكَـانَ المِقْـدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، مِنْ أَوَّلِ الخَارِجِينَ كَمَـا هِي عَادَتُـهُ وَعَبَّأَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ سِوى فَارِسَيْنِ الزُّبَيْرُ وَالمِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وَكَانَ فُرْسَانُ قُرَيْشٍ مَائَتَي فَارِسٍ عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِمْ عِكْرِمَةُ بنُ أَبي جَهْلٍ، وَهُمَا أَشْهَرُ الـرِّجَالِ فُرُوسِيَّةً.

إِنَّهُ مَنْظَرٌ أَوْ مَظْهَرٌ يَدْعُو إِلى الاسْتِغْرَابِ، وَقَدْ يَدْعُو إِلَى الضَّحِكِ: مِائتا فَارِسٍ مِنْ صَنادِيدِ قُرَيْشٍ يَبْدُو عَلى خُيُولِهِمْ التَّرَفُ وَشِدَّةُ البَأْسِ، يُقَابِلُهُمْ فَارِسَانِ عَلائِمُ الرَّثَّةِ تبْدُو عَلَى فَرَسَيْهِمَا كَما تَظْهَرُ عَلَيْهِما، إِضَافَةً إِلَى هُزَالِ الجَوَادَيْنِ، فَأَيُّ تَعادُلٍ وَأَيُّ تَكَافُؤٍ، بَلْ أَيَّةُ نَتِيجَةٍ، وَرُبَّما يَقِفُ المَـرْءُ لِيَرى كَيْفَ يَكُونُ مَصْرَعُ هَذَيْنِ الفَارِسَيْنِ؟ وَكَيْفَ تُنَاوِشُهُمَا الرِّمَاحُ،

وَتُمَـزِّقُهُمُ السُّيُوفُ، وَتَضِيعُ أَجْزَاؤُهُما بَيْنَ سُيُوفِ الأَعْـدَاءِ وَرِمَاحِهِمْ وَسَنَابِكِ خَيْلِهِمْ؟.

وَبَدَأَ الهُجُومُ وَضَرَبَ كُلٌّ مِنَ الزُّبَيْرِ والمِقْدَادِ جَوادَهُ ضَرْبَةً يَبْدُو أَنَّها أَلِيمَةٌ كَيْ يَنْطَلِقَ انْطِلاَقَةً لا ارْتِدَادَ بَعْدَهَا، وَيَتَقَدَّمَ تَقَدُّماً لاَ انْثِنَاءَ بَعْدَهُ، وَكُلٌّ مُقَرِّرٌ عَلَى انْتِزَاعِ النَّصْرِ رَغْمَ التَّفَاوُتِ الكَبِيرِ الكَبِيرِ، أَوِ الحُصُولِ عَلَى الشَّهَادَةِ، واللَّهُ يَعْلَمُ أَيَّ الحُسْنَيَيْنِ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَى قَلْبِ هَـذَيْنِ الصَّحَابِيَّيْنِ الجَلِيلَيْنِ.

وَانْطَلَقَ الجَوَادَانِ بِعُنْفٍ، وَتَطَايَرَ الشَّرَرُ مِنْ تَحْتِ السَّنَابِكِ، وَعَلاَ الغُبَارُ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةً حَتَّى كَانَ كُلٌّ مِنَ الجَوَادَيْنِ كَالسَّهْمِ بِالقُرْبِ مِنَ الأَعْدَاءِ يَصْهَلُ مِنَ الأَلَمِ، وَيَصْهَلُ لِاقْتِرَابِهِ مِنَ الخَيْلِ، وَيَخْتَلِطُ الصَّهِيلُ بِصَوْتِ البَطَلَيْنِ المُزَمْجِرِ، وَشَخَصَتْ عُيُونُ الأَعْدَاءِ، وَانْقَطَعَ التَّفْكِيرُ، وَوَجَمَتِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَاذَا يَفْعَلُ حَتَّى لَوَى رَأْسَ جَوَادِهِ، وَوَلَّى الأَدْبَارَ، وَاصْطَدَمَتِ الخُيُولُ الهَارِبَةُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ... اللَّهُ أَكْبَرُ واسْتَعْلَى الإِيمَانُ... وَلَحِقَ الفَارِسَانِ بِكَوْكَبَاتِ جِيَادِ المُشْرِكِينَ... اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهُ لَمَنْظَرٌ رَائِعٌ... مُرْعِبٌ... مُخِيفٌ... مُثِيرٌ يَسْتَعْلِي الإِيمَانُ...

وَيُطَأْطِىءُ الشِّرْكُ... فَارِسَانِ يَهْزِمَانِ مِائَتَيْ فَارِسٍ يَقُودُهُمَا خالِدٌ وَعِكْرِمَةُ. أَيْنَ بُطُولَةُ خَالِدٍ؟ وَأَيْنَ فُرُوسِيَّةُ عِكْرِمَةَ؟ أَيْنَ شَجَاعَةُ الصَّنَادِيدِ؟ إِنَّها كُلُّها تَتَمَرَّغُ في الوَحْلِ أَمَامَ الإِيمانِ.

إِنَّها أَوَّلُ مَرَّةٍ يُهْزَمُ فيها خَالِدٌ، إِذ هُزِمَ أَمامَ الإِيمانِ... إِنَّ طَوَاغِيتَ الدُّنْيا، وَجَبَابِرَةَ الدُّنْيا تَصْغُرُ أَمَامَ الإِيمانِ وَتُذَلُّ. وإِنَّها الهَزِيمَةُ الوَحِيدَةُ لِخَالدٍ في شِرْكِهِ وَإِسْلاَمِهِ.

إِنَّها أَوَّلُ مَرَّةٍ يَفِرُّ فيها عِكْرِمَةُ، إِنَّهُ فَرَّ أَمَامَ الإِيمان... إِنَّ أَشَدَّ أَهْلِ الأَرْضِ قُوَّةً، وَأَثْبَتَ أَهْلِ الأَرْضِ جَنَاناً، وَأَعْظَمَهُمْ شجَاعَةً، وَأَكْثَرَهُمْ بُطُولَةً، وَأَمْتَنَهُمْ زِنْداً، وَأَمْهَرَهُمْ فُرُوسِيَّةً يَضْعُفُ أَمامَ الإِيمانِ، وَيَجْبُنُ أَمَامَ الحَقِّ، وَيَهْوي أَمَامَ أَهْلِهِ، وَيَفِرُّ أمامَ أَتْبَاعِهِ...

لَقَدْ فَرَّ خَالِدٌ، وَفَرَّ عِكْرِمَةُ، وَفَرَّتْ مَعَهُمْ الأَبْطَالُ، وانْهَزَمَ مِائَتَا فَارِسٍ أَمَامَ الزُّبَيْرِ والمِقْدَادِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِقُوَّةِ إِيمانِهِمَا، وَشِدَّةِ عَزْمِهِما على ٱنْتِزَاعِ النَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ، وإِنَّهُمَا لَيَسْتَشْعِرَانِ بِالجَنَّةِ مِنْ خَلْفِ المَعْرَكَةِ، وَلَيَشُمَّانِ رَائِحَتَهَا مِنْ خِلالِ غُبارِ القِتَال.

وابْتَعَدَ المُنْهَزِمُونَ، وَعَادَ الفَارِسَانِ المُؤْمِنَانِ إلى الجَيْشِ الإسْلاَمِيِّ، فَإِذَا بِهِ يُلاحِقُ المُشْرِكِينَ، وَيُعْمِلُ فِيهِمْ السَّيْفَ. . . وَرَأى الرُّمَاةُ مِنْ على جَبَلِهِمْ النَّصْرَ، فَتَرَكُوهُ إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَحِقُوا بِالمُسْلِمِينَ الآخَرِيْنَ يَتَتَبَّعُونَ المُشْرِكِينَ.

وَوَقَفَ فُرْسَانُ قُرَيْشٍ بَعِيداً، وَعَادَتْ إلَيْهِمْ الصَّحْوَةُ، وَرَأى خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ نُزُولَ رُمَاةِ المُسْلِمِينَ، فانْطَلَقَ بِفُرْسَانِهِ، وَارْتَقَى الجَبَلَ، وَأَجْهَزَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الرُّمَاةِ. . . وانْطَلَقَ خَلْفَ المُسْلِمِينَ الَّذِين أَصْبَحُوا بَيْنَ نَارَيْنِ، فَتَغَيَّرَتِ المَعْرَكَةُ، وَتَبَدَّلَ المِيزَانُ فيها.

المُسْلِمُونَ: نَصْرٌ ثُمَّ تَراجُعٌ، أَجْسَامٌ مُتْعَبَةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ، وَهِمَمٌ عَالِيَةٌ تَسْتَعلي بإيمانِها، وَتِثِقُ بِنَصْرِ اللَّهِ. . . فتَرْتَفِعُ بأَصْحَابِها.

المُشْرِكُونَ: هَزِيمَةٌ ثُمَّ تَقَدُّمٌ، أَجْسَامٌ مُتَهَدِّلَةٌ، وَهِمَمٌ مُتْعَبَةٌ، وَنُفُوسٌ تَشْمَخُ بِطُغْيانِها، وَتَسْتَعْلِي بجَبَرُوتِها، تَخْشَى مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَتَخَافُ أَنْ تَعُودَ عَلَيْها الكَرَّةُ، وَلاَ تكادُ تُصَدِّقُ مَا أَحْرَزَتْهُ. . .

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

وَاقْتَضَتِ الحِكْمَـةُ في المَعْرَكَـةِ وَمَا آلَتْ إِلَيْـهِ أَنْ يَتْرُكَ الفارِسَانِ جَـوَادَيْهِمَا وَأَنْ يَكُـونَا بَيْنَ صُفُـوفِ المُسْلِمِينَ. . . وَانْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ.

وَشَهِـدَ المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، المَشَاهِـدَ كُلَّها مَـعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَتَخَلَّفْ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلْ كَانَ دَائِمَـاً في طَلِيعَةِ الصُّفُـوفِ. وَيَوْمَ فَتْـحِ مَكَّةَ كَـانَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى المَجْنَبَـةِ اليُسْرَى، وَكَـانَ المِقْـدَادُ بنُ عَمْـرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، عَلَى المَجْنَبَـةِ اليُمْنَى، فَلَما دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ، وَهَدَأَ النَّاسُ جَاءَا بِفَرَسَيْهِمَا فقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَمْسَحُ الغُبَارَ عَنْ وَجْهَيْهِمَا بِثَوْبِهِ، وَقَالَ: «إِني جَعَلْتُ للفَرَسِ سَهْمَيْنِ وللفارِسِ سَهْماً فَمَنْ نَقَصَهُمَا نَقَصَهُ اللَّهُ».

وَتَأَخَّرَ المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في الزَّوَاجِ ، وَمَرَّةً كَانَ هُوَ وعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ جَالِسَيْنِ فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ لَا تتَزَوَّجُ. قَالَ: زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ. فَغَضِبَ عَبْدُالرحْمَنِ وَأَغْلَظَ لَهُ، فَشَكا ذَلِكَ للنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَـالَ: «أَنَا أُزَوِّجُـكَ»، فَـزَوَّجَـهُ بِنْتَ عَمِّـهِ ضُبَـاعَـةَ بِنْتَ الـزُّبَيْـرِ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ.

وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَحَدَّث المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: اسْتَعْمَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى عَمَلٍ، فَلَمَّا رَجَعْتُ قَالَ: «كَيْفَ وَجَدْتَ الإِمَارَةَ؟» قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ! مَا ظَنَنْتُ إِلَّا أَنَّ النَاسَ كُلُّهُمْ خَوَلٌ لِي، وَاللَّهِ لا أَلِي عَلى عَمَلٍ مَا دُمْتُ حَيّاً.

وَرُوِيَ أَنَّ جَمَاعَةً جَلَسُوا إِلى المِقْدَادِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَوْماً، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: طُوبَى لهاتَيْنِ العَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللَّهِ لَوَدَدْنَا أَنَّا رَأَيْنا مَا رَأَيْتَ، فاسْتَمَعْتُ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ، مَا قَالَ إِلَّا خَيْراً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ما يَحْمِلُ أَحَدَكُمْ عَلى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَراً غَيَّبَهُ اللَّهُ عَنْهُ، لا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيْهِ. وَاللَّهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللَّهُ عَلى مَنَاخِرِهِمْ في جَهَنَّمَ، لَمْ يُجِيبُوهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَلَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ، لاَتَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ، وَقَدْ كُفِيتُمُ البَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهِ نَبِيٌّ في

فَتْرَةٍ وجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ دِيناً أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقانٍ حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ، أَوْ أَخاهُ كَافِراً، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ قِفْلَ قَلْبِهِ للإِيمانِ، لَيَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ مَنْ دَخَلَ النَّارَ، فَلاَ تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حِميمَهُ في النَّارِ، وَأَنَّها لَلَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّياتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

وَصَفَتْ كَرِيمَةُ بِنتُ المِقْدَادِ أَبَاهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: كَانَ رَجُلاً طَوِيلاً آدَمَ، ذَا بَطْنٍ، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، يُصَفِّرُ لِحْيَتَهُ، وَهِيَ حَسَنَةٌ، وَلَيْسَتْ بالعَظِيمَةِ وَلاَ بِالخَفِيفَةِ، أَعْيَنَ، مَقْرُونَ الحاجِبَيْنِ، أَقْنَأَ.

وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ عَظِيْمَ البَطْنِ ثَقِيلاً فَلَمْ يُعْفِ نَفْسَهُ مِنَ الجِهَادِ، وَذَلِكَ رغمَ سِنِّهِ التي تَقَدَّمَتْ. وَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَقَدْ رآهُ يَجْلِسُ على تابوتٍ قَدْ فَضَلَ عَنْها عِظَماً: قَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: أَبَتْ عَلَيْنَا سُورَةُ البُعُوثِ ﴿آنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾.

وَمَاتَ بالجُرُفِ عَلى ثَلاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ المَدِينَةِ، فَحُمِلَ

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

عَلَى رِقَابِ الرِّجَالِ حَتَّى دُفِنَ بالمَدِينَةِ بِالبَقِيعِ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ عُثْمَانُ بنُ عفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ سَنَةَ ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ. وَكَانَ يَوْمَ مَاتَ ابنَ سَبْعِينَ سَنَةٍ أَوْ نَحْـوِهَا. وَقَـدْ أَثْنَى عَلَيْهِ عُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثَنَاءً عَطِراً.

وَقِيلَ عَنْ سَبَبِ مَوْتِهِ: إِنَّهُ شَرِبَ دُهْنَ الخَروَعِ فَمَاتَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ تَضَايَقَ مِنْ عِظَمِ بَطْنِهِ كَثيراً حَتَّى قَبِلَ مِنْ غُلامٍ رُومِيٍّ أَنْ يَشُقَ لَهُ بَطْنَهُ، وَيُخْرِجَ مِنْ شَحْمِهِ حَتَّى تَلْطُفَ، وَقَدْ فَعَلَ فماتَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ.

وَكَانَ المِقْدَادُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، مَيْسُوراً، فَقَـدْ أَوْصَى لِلحَسَنِ وَالحُسَيْنِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَـا، بِستةٍ وَثـلاثِينَ أَلْفاً، وَلأُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ بِسَبْعَةِ آلافِ دِرْهَمٍ. وَقَالَتِ ابنَتُهُ: بِعْنا طُعْمَةَ المِقْدَادِ التي أَطْعَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَيْبَرَ، خَمْسَةَ عَشَرَ وَسْقاً شَعِيراً مِنْ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبي سُفْيانَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.


ابنُ عمِّ رَسُوْلِ اللّهِ صلى الله عليهِ وسلَّم
عَقِيلُ بنُ أبي طالِب
رضيَ اللهُ عنـه

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِابنِ عَمِّهِ عَقِيلِ بْنِ أَبي طَالِبٍ: «يَا أَبا يَزِيدَ إِنِّي أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ، حُبّاً لِقَرَابَتِكَ، وَحُبّاً لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ على نَهْجِهِ إلى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدُ:

لَقَدْ طَغَى عَلَى شُهْرَةِ عَقِيلِ بنِ أَبي طَالِبٍ أَخَوَاهُ عَلِيٌّ وَجَعْفَرٌ لِسَابِقَتِهِمَا في الإِسْلامِ، وَكَانَ تَأَخُّرُهُ سَبَباً في جَعْلِهِ بَيْنَ عِدادِ المَنْسِيِّينَ.

كانَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِسْعَةُ أَعْمَامٍ مِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَ الإِسْلاَمَ وَدَخَلَ فِيهِ، وكَانَ لَهُ دَوْرُهُ مِثْلُ الحَمْزَةِ والعَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وَمِنْهُمْ مَنْ ماتَ على ما كَانَ عَلَيْهِ آباؤُهُ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْمَامِهِ عَدَدٌ مِنَ الأَبْنَاءِ، أَسْلَمَ أَكْثَرُهُمْ، وإنْ كانَ بَعْضُهُمْ قَدْ آمَنَ مُنْذُ بِدايَةِ الدَّعْوَةِ، ومِنْهُمْ مَنْ تَأَخَّرَ فِي إِسْلاَمِهِ حَتَّى دَانَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا فَعِنْدَهَا دَخَلَ بالإِسْلَامِ، لِذَا فَقَدِ اشْتَهَرَ بَعْضُهُمْ وَعُرِفَ لِمَا قَامَ بِهِ مِنْ دَوْرٍ فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ يَوْمَ كَانَ الأَصْحَابُ قِلَّةً، وَمِنْ

هَؤُلاءِ جَعْفَرٌ وَعَلِيٌّ ابنا أَبي طَالِبٍ، وَمِنْهُم مَنْ تَأَخَّرَ أَمْثَالُ أَخِيهِمْ عَقِيلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَادَ تَأَخُّرُهُ أَمثالُ عَبدِاللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ بنِ عبدِالمُطَّلِبِ، وعُتْبَةَ ومُعَتِّبِ ابنَيْ أَبي لَهَبٍ، وبِذا يُعْرَفُ المَرْءُ مِنَ النَّاسِ، وَيَشْتَهِرُ الذِي يَتَحَمَّلُ العِبْءَ وَقْتَ الشِّدَّةِ والضِّيقِ ويُضَحِّي في سَبِيلِ ما يَحْمِلُ مِنْ فِكْرَةٍ، على حِينِ يَضِيعُ أُولئكَ الَّذِينَ يَتَرَاكَضُونَ وَقْتَ الرَّخاءِ عِندما يَكْثُرُ النَّاسُ، وَيَنْدَفِعُونَ نحوَ إظْهارِ التَّأْييدِ والمُوافَقَةِ لِلدَّعْوَةِ.

كَانَ أَعمامُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أُمَّهاتٍ عِدَّةٍ، وإنَّ الزُّبَيْرَ وَأَبا طَالِبٍ كانا أَشِقَّاءَ عَبدِاللَّهِ وَالِدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُمُّهُمْ هِيَ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو المَخْزُومِيَّةُ، وَقَدْ أَنْجَبَتْ لِعَبْدِالمُطَّلِبِ أَيضاً بَنَاتِهِ كُلَّهُنَّ ما عَدا صَفِيَّةَ الَّتي هِيَ شَقِيقَةُ الحَمْزَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأُمُّهُمَا هِيَ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبٍ الزُّهْرِيَّةُ.

تَزَوَّجَ أَبو طَالِبٍ فَاطِمَةَ بِنْتَ أَسَدِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبْدِمَنَافٍ، وَقَدْ أَنْجَبَتْ لَهُ مِنَ الأَوْلادِ طَالِباً، وَعَقِيلاً، وَجَعْفَراً، وَعَلِيّاً. وَبَيْنَ كُلِّ وَلَدٍ وآخَرَ ما يَقْرُبُ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، أَكْبَرُهُمْ طَالِبٌ الَّذي تَقْرُبُ سِنُّهُ مِنْ سِنِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْغَرُهُمْ عَلِيٌّ الَّذي تَقِلُّ سِنُّهُ عَنْ

سِنِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِحَوَالِي الثَّلاثِينَ سَنَةً. وكانَ أَبُو طَالِبٍ فَقِيراً، كَثِيرَ العِيَالِ، وَكَانَ عَقِيلٌ أَحَبَّ وَلَدٍ إلى أبيهِ.

وَشَبَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَزَوَّجَ مِنْ خَدِيجَة بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَتَحَسَّنَتْ حَالَتُهُ المَادِّيَّةُ، وَتَذَكَّرَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ، وما يُعَانِيهِ مِنَ الضِّيقِ، فَذَهَبَ إِلَى عَمِّهِ العَبَّاسِ، وَكَانَ أَثْرَى بَنِي هَاشِمٍ، فَذَكَّرَهُ بِأَخِيهِ أَبي طَالِبٍ، وَكَثْرَةِ عِيَالِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُسَاعِدَاهُ بِتَرْبِيَةِ بَعْضِ وِلْدِهِ، فَسَارَا إِلَيْهِ، وَطَلَبَا مِنْهُ ما قَرَّراهُ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ لَهُمَا: خُذا ما شِئْتُما وَدَعَا لي عَقِيلاً. فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيّاً، وَأَخَذَ العَبّاسُ جَعْفَراً، فَكَانَا عِنْدَهُما.

تَزَوَّجَ عَقِيلٌ أُمَّ سَعِيدٍ بِنْتَ عَمْرِو بنِ يَزِيدَ فَأَنْجَبَتْ لَهُ يَزِيداً، وَسَعِيداً، وَكَانَ يُكَنَّى بِأَبِي يَزِيد، كما تَزَوَّجَ أُمَّ البَنِينَ بِنتَ الثَّغْرِ، وكانَ لَهُ مِنْها جَعْفَرٌ الأكبرُ وأَبو سَعِيدٍ، وَوَلَدَ لَهُ عَدَدٌ مِنَ الأَوْلادِ والبَنَاتِ كُلُّهُمْ مِنْ أُمَّهاتِ أَوْلَادٍ، آشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُسلمُ بنُ عَقِيلٍ الذي بَعَثَهُ الحُسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مِنْ مَكَّةَ إلى الكُوفَةِ لِيَأْخُذَ لَهُ العَهْدَ مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَ على هَانِيءِ بنِ عُرْوَةَ المُرَادِيِّ، إلَّا أَنَّ أَمْرَهُما قَدْ آنْكَشَفَ

عَلَى وَالي الأُمَـوِيّين عُبَيْدِاللَّهِ بنِ زِيَـادٍ فَتَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِمَـا. وَمِنْهُمْ عَبْدُاللَّهِ، وعبدُالـرَّحْمَنِ، وَعَبْدُاللَّهِ الأَصْغَـرُ، وعليٌّ، وَجَعْفَرٌ الأَصْغَرُ، وَحَمْزَةُ، و عُثْمَانُ، وَمُحَمَّدٌ، وَمِنَ البَنَاتِ: رَمْلَةُ، وأُمُّ هَانِيءٍ، وأسْمَاءُ، وفَاطِمَةُ، وأُمُّ القَاسِمِ، وَزَيْنَبُ، وَأُمُّ النُّعمَانِ.

وَعِنْدَمَا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَـدَأَ يَدْعُو النَّاسَ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، أَسْلَمَ أَخَوَاهُ الصَّغِيرَينِ جَعْفَرٌ وَعَلِيٌّ، وَلَكِنَّ عَقِيلاً تَأَخَّرَ في قَبُولِ الدَّعْوَةِ وَبَقِيَ عَلَى دِينِ أَبِيهِ أبي طَالِبٍ الَّذي كَانَ سَيِّدَ بَني هَاشِمٍ، لِذَا فَقَدْ بَرَزَ أَخَوَاهُ وآشْتَهَرا، عَلَى حِينَ أُغْفِلَ هُوَ لِتَأَخُّرِهِ في الاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

تُوُفِّيَ أَبُو طَـالِبٍ، وَهَاجَـرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، إلى المَـدِينَـةِ وَلَمْ يُسْلِمْ عَقِيـلٌ، وآسْتَـدَارَ العَـامُ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ إلى بَدْرٍ تُرِيدُ إنقَاذَ شَرَفِها، وَحِمَايَةَ عِيرِها، وَتَـأْدِيبَ المُسْلِمِينَ ـ عَلَى حَدِّ زَعْمِهـا ـ، وَسَارَ في الجَيْشِ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ وَرِجَالاتُها ما عَدَا بَنِي هَـاشِمٍ، فَقَدْ رَفَضـوا الخُرُوجَ إلاَّ أَنَّهم قَدْ أُكْرِهُوا عَلَيْهِ، وَخَرَجَ فِيمَنْ خَرَجَ مُكْرَهاً عَقِيلُ بنُ أَبي طَالِبٍ، فَشَهِدَ المَعْرَكَةَ، وَأُسِرَ فِيها، وَكَانَ فَقِيراً

لا مَـالَ لَهُ لِيَفْتَـدِيَ بِهِ نَفْسَـهُ، وَقَدْ قَبِـلَ مِنْهُمْ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، الفِدْيَـةَ، فَافْتَـدَاهُ عَمُّـهُ العَبَّـاسُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّ بَني هَاشِمٍ قَدْ خَرَجُوا مُكْرَهِينَ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ يَوْمَئذٍ: إنِّي قَدْ عَرَفْتُ أنَّ رِجَالاً مِنْ بَني هَاشِمٍ وغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهاً، لا حَـاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أحداً مِنْ بَني هَاشِمٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ، وَمَنِ لَقِيَ أبَـا البَخْتَرِيَّ بنَ هِشَـامِ بنِ الحَارثِ بنِ أَسَـدٍ فلا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ العَبَّاسَ بنَ عَبْدِالمُطَّلِبِ ـ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَلاَ يَقْتُلْهُ، فإنَّهُ إنَّما خَرَجَ مُسْتَكرَهاً، فَقَالَ أَبُو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ: أَنَقْتُلُ آباءنـا، وَأَبْنَاءَنـا، وإخْوَتَنا، وَعَشِيرَتَنا وَنَتْـرُكُ العَبَّاسَ! واللَّهِ لَئِنْ لَقِيتُـهُ لأُلْجِمَنَّهُ السَّيْفَ، فَبَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَقَالَتُهُ، فَقَالَ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: «يا أَبَا حَفْصٍ[1] أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالسَّيْفِ؟» فَقَالَ عُمَرُ: يا

---

(١) قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: والله إنه لأول يومٍ كناني فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأبي حفص.

رَسُـولَ اللَّهِ، دَعْنِي فَـلأَضْـرِبْ عُنُقَـهُ بـالسَّيفِ، فَـوَاللَّهِ لَقَـدْ نافَقَ[1].

وَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، يَـوْمَ بَـدْرٍ: «آنْظُرُوا مَنْ هَا هُنَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مِنْ بَنِي هَـاشِمٍ»، فَجَاءَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَـالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَنَـظَرَ إلى العَبَّاسِ، وَنَوْفَلٍ، وَعَقِيلٍ ثُمَّ رَجَعَ، فَنَـادَاهُ عَقِيلٌ: يـا آبنَ أُمِّ عَلِيٍّ، أَما واللَّهِ لَقَدْ رأيتَنا. فَجَاءَ عَلِيٌّ إلى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْتُ العَبَّـاسَ، وَنَوْفَـلاً، وَعَقِيلاً، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ عَقِيلٍ فَقَالَ: «أَبا يَزيدَ قُتِلَ أَبو جَهْلٍ»، قَالَ: إذَنْ لا يُنَـازِعُوا في تِهـامَـةَ إنْ كُنْتَ أَثْخَنْتَ القَـوْمَ وإلاَّ فَـآرْكَبْ أَكْتَافَهُمْ. وَقَالَ عَقِيلٌ للنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَتَلْتَ مِنْ أَشْرافِهِمْ؟ قَالَ: «قُتِلَ أَبو جَهْلٍ»، قال: الآن صَفَا لَكَ الوَادِي.

وَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لِلْعَبَّاسِ بنِ

---

(١) كان أبو حذيفة يقـول: ما أنـا بآمن من تلك الكلمـة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تكفّرها عني الشهادة. وقـد استشهد يوم اليمامة، رضي الله عنه.

عَبْدِالمُطَّلِبِ حِينَ ٱنْتَهى بِهِ إلى المَدِينَةِ: «يا عَبَّاسُ ٱفْدِ نَفْسَكَ، وابنَ أَخِيكَ عَقِيلَ بنَ أبي طَالِبٍ، وَنَوْفَلَ بنَ الحَارِثِ، وَحَلِيفَكَ عُقْبَةَ بنَ عَمْرِو بنِ جَحْدَمٍ أَخَا بَني الحَارِثِ بنِ فِهْرٍ فإنَّك ذُو مَالٍ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنّي كُنْتُ مُسْلِماً ولَكِنَّ القَوْمَ اسْتَكْرَهُوني. قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بإسْلاَمِكَ، إنْ يكُ ما تَذْكُرُ حَقّاً فاللَّهُ يَجْزِيكَ بِهِ، فَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنا، فَٱفْدِ نَفْسَكَ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَخَذَ مِنْهُ عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَال العَبَّاسُ: يا رَسُولَ اللَّهِ ٱحْسِبْها لِي مِنْ فِدَايَ. قَالَ: «لا، ذَلِكَ شَيْءٌ أَعْطَانَاهُ اللَّهُ مِنْكَ»، قَالَ: فَإنَّهُ لَيْسَ لي مَالٌ، قَالَ: «فَأَيْنَ المَالُ الذي وَضَعْتَ بِمَكَّةَ حِينَ خَرَجْتَ عِنْدَ أُمِّ الفَضْلِ بِنْتِ الحَارِثِ لَيْسَ مَعَكُمَا أَحَدٌ ثُمَّ قُلْتَ لَهَا: إنْ أُصِبْتُ في سَفَرِي هَذا فَلِلْفَضْلِ كَذَا وكَذَا، وَلِعَبْدِاللَّهِ كَذَا وكَذا؟» قَالَ: وَالَّذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ ما عَلِمَ بِهَذا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرَها وإنّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فَفَدَى العَبَّاسُ نَفْسَهُ، وابْنَيْ أَخِيهِ، وَحَلِيفَهُ.

وَقِيلَ: إنَّ العَبَّاسَ فَدَى نَفْسَهُ وابنَ أَخِيهِ عَقِيلاً بِثَمَانينَ أوقيةً مِنْ ذَهَبٍ، وَيُقالُ أَلْفَ دِينارٍ. قَالوا: وَخَرَجَ العَبَّاسُ إلى مَكَّةَ فَبَعَثَ بِفِدَائِهِ وَفِداءِ ابنِ أَخِيهِ، ولَمْ يَبْعَثْ بِفِدَاءِ حَلِيفِهِ،

فَـدَعا رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَسَّـان بنَ ثَابتٍ وأَخْبَرَهُ وَرَجَعَ أَبُو رَافِعٍ فَكَانَ رَسُولَ العَبَّاسِ بِفِدَائِهِ فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: ما قَالَ لَكَ؟ فَقصَّ عَلَيْهِ الأَمْرَ فَقَالَ: وأَيُّ قَوْلٍ أَشَدُّ مِنْ هذا؟ آحْمِلِ البَاقِيَ قَبْلَ أَنْ تَحُطَّ رَحْلَكَ، فَحَمَلَهُ فَفَدَاهُمُ العَبَّاسُ[1].

وَرَجَعَ عَقِيلُ بنُ أَبي طَالِبٍ إلى مَكَّةَ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ أَحَدٌ إلاَّ وَقَدْ أَسْلَمَ، قَالَ: «قُلْ لَهُمْ فَلْيَلْحقُوا بي». فَلَمَّا أَتَاهُمْ عَقِيلٌ بِهَذِهِ المَقَالَةِ خَرَجُوا.

وَذُكِرَ أَنَّ العَبَّاسَ، وَنَوْفلاً، وَعَقِيلاً، رَجَعُوا إلى مَكَّـةَ، أُمِرُوا بِذَلِكَ لِيُقِيمُوا ما كَانُوا يُقِيمُونَ مِنْ أَمْرِ السِّقَايَةِ والرِّفادَةِ والرِّئاسَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَبي لَهَبٍ. وَكَانَتِ السِّقَايَةُ والرِّفادَةُ في الجَـاهِلِيَّةِ في بَني هَـاشِمٍ، ثُمَّ هاجَـرُوا بَعْدَ ذَلِـكَ إلى المَدِينَةِ فَقدِمُوها بِأَوْلادِهِمْ وَأَهَالِيْهِمْ[2].

يَبْدُو أَنَّ عَقِيلاً قَدْ عَاشَ في مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ أُطْلِقَ سَرَاحُهُ وَقَدْ أَسْلَمَ، وَلَمْ يَشْتَرِكْ مَعَ المُشْرِكِينَ في غَزْوَةٍ ثانِيَة، وَبَعْدَ

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) المصدر نفسه.

فَتْح ِ خَيْبَرَ في السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنْ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ عَقِيلُ إلى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ مُسْلِماً مُهاجِراً، وَقَدْ أَطْعَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَيْبَرَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ وَسْقاً كُلَّ سَنَةٍ. وَذَلِكَ لأَنَّ بَني هَاشِمٍ ومن بَيْنِهِمْ العَبَّاسُ وَعَقِيلُ كانوا بِمَكَّةَ يَوْمَ كانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخَيْبَر قَدْ فَتَحَها، وَقَدِمَ الحَجَّاجُ بنُ عِلاطِ السَّلَمِيِّ مَكَّةَ فَأَخبَرَ قُرَيْشاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بما أَحَبُّوا أَنَّهُ قَدْ ظُفِرَ بِهِ، وَقُتِلَ أَصْحَابُهُ، فَسُرُّوا بِذَلِكَ، وَأَقْطَعَ العَبَّاسَ خَبَرُهُ، وَسَاءَهُ، وَفَتَحَ بَابَهُ، وَأَخَذَ ابنَهُ قُثَمَ فَجَعَلَهُ على صَدْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا قُثَمُ يا قُثَمُ يا شِبْهَ ذِي الكَرَمِ[1]

حَتَّى أَتاهُ الحَجَّاجُ فَأَخْبَرَهُ بِسَلاَمَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ خَيْبَرَ وَغَنَّمَهُ اللَّهُ ما فيها، فَسُرَّ بِذَلِكَ العَبَّاسُ وَلَبِسَ ثِيَابَهُ، وَغَدا إلى المَسْجِدِ فَدَخَلَهُ، وَطَافَ بِالبَيْتِ، وَأَخْبَرَ قُرَيْشاً بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ الحَجَّاجُ مِنْ سَلامَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ قَدْ فَتَحَ خَيْبَرَ، وَمَا

---

(١) نَعياً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتذكراً له، إذ كان قثم يشبه ابن عمه رسول الله.

غَنَّمَهُ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. فَكُبِتَ المُشْرِكُونَ وَسَاءَهَمْ ذَلِكَ، وَعَلِمُوا أَنَّ الحَجَّاجِ قَدْ كَانَ كَذَبَهُمْ في خَبَرِهِ الأَوَّلَ، وَسَرَّ ذَلِكَ المُسْلِمِينَ الَّذين بِمَكَّةَ وَأَتَوْا العَبَّاس فَهَنَّؤُوهُ بِسَلاَمَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ العَبَّاسُ فَلَحِقَ بالنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَطْعَمَهُ بِخَيْبَرَ مِائَتَيْ وَسْقٍ تَمْراً في كُلِّ سَنَةٍ[1]. بَيْنَمَا أَطْعَمَ عَقِيلاً مِائَةً وَأَرْبَعِينَ وَسْقاً.

وَٱنْطَلَقَ المُسْلِمُونَ إلى مُؤْتَةَ مُجاهِدِينَ، وَخَرَجَ عَقِيلٌ مَعَهُمْ، تَحْتَ رَايَةِ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واسْتُشْهِدَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأُنْهِكَ عَقِيلُ، وَتَسَلَّمَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَسَبَ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَاتَلَ تَحْتَ رَايَةِ أَخِيهِ قِتَالَ الأَبْطَالِ، وَرَأى ٱسْتِشْهَادَ أَخِيهِ فَزَادَهُ ذَلِكَ ٱنْدِفَاعاً، وَحَارَبَ تَحْتَ إِمْرَةِ عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ في مُقَدِّمَةِ المُجَاهِدِينَ حَتَّى إذا اسْتُشْهِدَ عَبْدُاللَّهِ... ٱسْتَمَرَّ عَقِيلُ في قِتَالِهِ لا يَلِي عَلَى شَيْءٍ، يَرْغَبُ في الحُصُولِ عَلَى الشَّهَادَةِ

(١) طبقات ابن سعد.

في سَبِيلِ اللَّهِ لِيُكَفِّرَ عَمَّا سَبَقَ أَنْ بَدَرَ مِنْهُ. . . وَتَسَلَّمَ الرَّايَةَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ آسْتِشْهَادِ عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَآسْتَطَاعَ أَنْ يُنَاوِرَ، وَيَنْسَحِبَ بِالمُسْلِمِينَ، وَيُجَنِّبَهُمْ هَزِيمَةً كَبِيرَةً، وَجُرِحَ عَقِيلٌ يَوْمَها عِدَّةَ جِراحٍ.

وأصابَ عقيلُ يومَ مؤتةَ خاتماً فأتى بِهِ إلى رسولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنفله إياه، فكان في يده.

وَجَاءَ عَقِيلُ بِمِخْيَطٍ فَقَالَ لامرأتِهِ: مَا أَرَى إبْرَتَكِ إلاَّ وَقَدْ فَاتَتْكِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهُ: «يا أَبَا يَزِيدَ إنِّي أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ، حُبَّاً لِقَرَابَتِكَ وَحُبَّاً لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إيَّاكَ».

وَبَعْدَ أَنْ رَجَعَ عَقِيلُ مِنْ مُؤْتَةَ لَمْ يَسْتَقِرَّ طَوِيلاً في المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ حَتَّى أَصابَهُ مَرَضٌ لَمْ يُمَكِّنْهُ مِنَ الجِهَادِ، وَحُضُورِ المَشَاهِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِذا نَرَاهُ لَمْ يَشْتَرِكْ في فَتْحِ مَكَّةَ، ولا في غَزْوَةِ حُنَيْنٍ والطَّائِفِ.

وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ

رَاضٍ ، وَعَاشَ عَقِيلُ بنُ أَبي طَالِبٍ بَعْدَهُ طَوِيلاً، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنْهُ شَيْءٌ في عَهْدِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الثَّلاثَةِ أبي بَكْرٍ، وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَيَبْدُو أَنَّـهُ كَانَ مَـرِيضاً، عَلِيـلَ الجِسْمِ ، الأَمْـرُ الَّـذي جَعَلَهُ لَـمْ يَشْتَـرِكْ في الفُتُـوحَـاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَلَمْ يَظْهَرْ في الحَيَاةِ العَامَّةِ، وَجَدِيـرٌ بِأَمْثَـالِهِ أَنْ يَبْرُزَ .

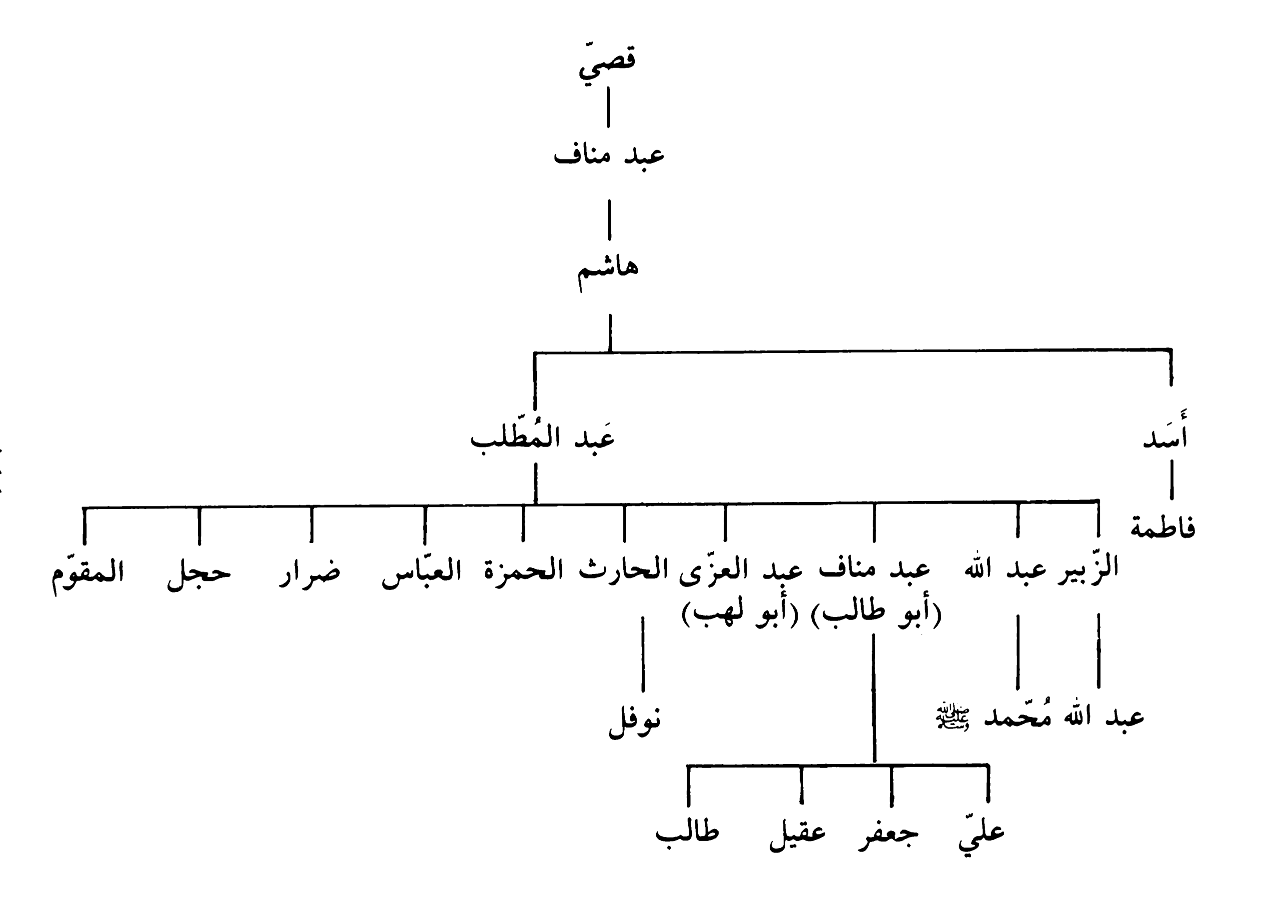
وَيَبْرُزُ عَقِيلُ أَثناءَ خِلافَةِ أَخِيهِ عَلِيٍّ، وَيَـظْهَرُ اسمُـهُ في الخِلافِ الَّذي وَقَـعَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَـةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وَتُرْوَى أَخْبَارٌ لَمْ تَصِلْ إلى دَرَجَةِ الصِّحَةِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَثَرٌ في الخِلافِ الذي حَدَثَ، فيُرَوى أَنَّهُ قَدِمَ على أَخِيهِ بالعِرَاقِ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: ما أُعْطِيكَ شَيْئاً. فَقَالَ: إنِّي فَقِيـرٌ وَمُحْتَاجٌ. فَقَالَ: آصْبِرْ حَتَّى يَخْـرُجَ عَطَائِي مِنَ المُسْلِمِينَ وَأُعْـطِيكَ. فَأَلَحَّ عَلَيْـهِ. فَقَالَ عَلِيٌّ لِـرَجُلٍ : خُـذْ بِيَدِهِ وَآنْـطَلِقْ بِهِ إلى الحَوَانِيتِ، فَآفْتَحْ أَقْفَالَها، وخُذْ ما فِيها. فَقَالَ عَقِيلُ: أَنْتَ أَرَدْتَ أَنْ تَجْعَلَني سَارِقاً. فَقَـالَ عَلِيٌّ: أَنْتَ أَرَدْتَ أَنْ آخُذَ أَمْوَالَ المُسْلِمِينَ وَأُعْطِيَكَ إيَّاهـا. فَقَالَ عَقِيـلُ: لَأَذْهَبَنَّ إلى رَجُلٍ هُوَ أَوْلى بِي مِنْكَ، يَعني مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. فَذَهَبَ إلى مُعَاوِيَةَ فَأَعْطَاهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ . وَقَالَ: آصْعَـدِ

المِنْبَرَ وَٱذْكُرْ ما أَوْلَاكَ عَلِيٌّ وَمَا أَوْلَيْتُكَ. فَصَعِدَ المِنْبَرَ وَقَالَ: أَيُّها النَّاسُ إنِّي أُخبِرُكُمْ أَنِّي أَرَدْتُ عَلِيّاً عَلَى دِينِهِ فَاخْتَارَ دِينَهُ عَلَيَّ، وَإِنِّي أَرَدْتُ مُعاوِيَةَ على دِينِهِ فَٱخْتَارَني عَلَى دِينِهِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: هذا الَّذي تَزْعَمُ قُرَيْشٌ أَنَّهُ أَحْمَقُ وَأَيُّما أَعْقَلَ مِنْهُ[1]. وَقِيلَ: إنَّ مُعَاوِيَةَ قَالَ لَهُمْ: هَذا عَقِيلٌ وَعمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، فَقَالَ: هَذَا مُعَاوِيَةُ وعَمَّتُهُ حَمَّالةُ الحَطَبِ. وَذَلِكَ لأَنَّهُ كانَ أَسْرَعَ النَّاسِ جَوَاباً فَنَسَبُوهُ إلى الحَمَاقَةِ.

لَقَدْ عَمِيَ عَقِيلٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في آخِرِ حَيَاتِهِ، وَتُوُفِّيَ في خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ عَامِ ٥٠ هـ عَنْ عُمْرٍ يُنَاهِزُ الثَّالِثَةَ والتِّسْعِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

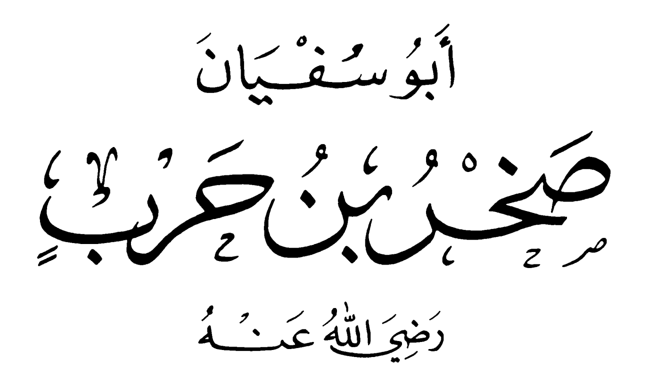
---

(١) أغاليط المؤرخين: محمد أبو اليسر عابدين نقلاً عن حاشية الأمير على المغني لابن هشام في حرف الهاء. وطبقات ابن سعد، وسير أعلام النبلاء.


قصيّ
عبد مناف
هاشم
عَبد المُطّلب
أَسَد
فاطمة
الزّبير
عبد الله
عبد مناف (أبو طالب)
عبد العزّى (أبو لهب)
الحارث
الحمزة
العبّاس
ضرار
حجل
المقوّم
عبد الله
مُحّمد ﷺ
نوفل
عليّ
جعفر
عقيل
طالب

بُنَاة دَوْلَةِ الإِسْلام

- ١٧ -



بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنْ أَبُو سُفْيَانَ رَجُلاً مَجْهُولاً، وَإِنَّما كانَ مِنْ أَعْلامِ العَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ، وَزُعَماءِ قُرَيْشٍ أَشْهَرِ قَبائِلِ العَرَبِ، غَيْرَ أَنَّهُ رَجُلٌ مَظْلُومٌ، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَكْثَرِ الأَشْخَاصِ الَّذِينَ ظَلَمَهُمُ التَّارِيخُ، وَقَدْ يَكُونُ ظُلْمُ أَبْنائِهِ وَدَوْلَتِهِم التِّي أَسَّسُوهَا بِسَبَبِهِ هُوَ، وَظُلْمُ التَّارِيخِ إِغْفَالُ جَوانِبَ مِنْهُ فَتُسَبِّبُ الجَهْلَ بِالحَقِيقَةِ، وَلِهَذا الظُّلْمِ أَسْبَابٌ وَدَوَافِعُ، وَطُرُقٌ اتَّبَعَهَا المُغْرِضُونَ، وَلَهُ أَشْخَاصٌ بِأَعْيُنِهِمْ قَامُوا بِهَذا، وَخَطَّتْ أَيْدِيْهِمْ آفْتِراءَاتٍ أَوْجَدُوهَا، وَأَغْفَلُوا كُلَّ جَوانِبِ الخَيْرِ عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ العَظِيمِ، حَتَّى اتَّجَهَ التَّارِيخُ فِي خَطٍ نَسِيَ مَعَهُ القُرَّاءُ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَفْكِيرُهُمْ وَحُكْمُهُمْ. وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ هَذَا الظُّلْمِ:

١ ـ الخِلافُ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ بُطُونِ القَبَائِلِ قَبْلَ الإِسْلَامِ:

اخْتَلَفَ أَبْنَاءُ سَيِّدِ مَكَّةَ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَجْمَعَ

النَّاسُ عَلَى الحَرْبِ، ثُمَّ تَدَاعَوْا إِلَى الصُّلْحِ عَلَى أَنْ يُعْطَى بَنُو عَبْدِمَنَافٍ السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ، وَأَنْ تَكُونَ الحِجَابَةُ واللِّوَاءُ والنَّدْوَةُ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَرَضِيَ الفَرِيقَانِ.

وَكَمَا ٱخْتَلَفَ أَبْنَاءُ قُصَيٍّ ٱخْتَلَفَ أَبْنَاءُ عَبْدِمَنَافٍ، فَكَانَ بَنُو هَاشِمٍ فِي جِهَةٍ وَمَعَهُمْ بَنُو المُطَّلِبِ، وَكَانَ بَنُو عَبْدِشَمْسٍ يُنَافِسُ عَمَّه هَاشِماً، واستَمَرَّ النِّزَاعُ حَتَّى جَاءَ الإِسْلَامُ، وَبَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو أُمَيَّةَ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ عَلَى الزَّعَامَةِ والوَجَاهَةِ بَيْنَ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ وَبُطُونِهَا المُخْتَلِفَةِ.

وَعِنْدَمَا جَاءَ الإِسْلَامُ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بنُ حَرْبٍ سَيِّدَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَأَحَدَ رِجَالَاتِ بَنِي عَبْدِشَمْسٍ، بَلْ وَأَحَدَ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ المَعْرُوفِينَ.

وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ المُنَافَسَةُ بَيْنَ هَذَيْنِ البَطْنَيْنِ مِنْ قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ مِنْ جُمْلَةِ العَوَامِلِ الَّتِي جَعَلَتْ أَبَا سُفْيَانَ يَقِفُ هَذَا المَوْقِفَ مِنَ الدَّعْوَةِ، إِضَافَةً إِلَى مَصْلَحَةِ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ جَمِيعاً لِلْحِفَاظِ عَلَى مَرْكَزِهِمْ، وَوَجَاهَتِهِمْ، وَسَيْطَرَتِهِمْ، وَنُفُوذِهِمْ، وَتَسَلُّطِهِمْ عَلَى الأَرِقَّاءِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِمَصْلَحَةِ سَادَتِهِمْ.

وَالنَّفْسُ البَشَرِيَّةُ فِيهَا عُنْصُرُ الخَيْرِ كَمَا فِيهَا عُنْصُرُ الشَّرِّ، وَلْنَنْظُرْ إِلَى بَعْضِ عَنَاصِرِ الخَيْرِ فِي نَفْسِ هَذَا الرَّجُلِ العَظِيمِ في حَدِيثِهِ مَعَ هِرَقْلَ كَبِيرِ الرُّومِ : «أَرْسَلَ هِرَقْلُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ مَعَ رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكَانُوا تُجَّاراً في المُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَادَّ[1] فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَأَتَوْهُ وَهُوَ بِإِيْلِيَاءَ[2]، فَدَعَاهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَباً بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ، إِنِّي سَائِلٌ هَذَا الرَّجُلَ، إِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّهِ لَوْلاَ الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثُرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عَنْهُ. ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟.

قُلْتُ: هُوَ ذُو نَسَبٍ فِينَا.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟.

قُلْتُ: لاَ.

---

(١) ماد: عاهد، إشارة إلى مدّة صلح الحديبية.

(٢) إيلياء: بيت المقدس.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟.

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَاف النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟.

فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟.

قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِيْنِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟.

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ما قَالَ؟.

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟.

قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ في مُدَّةٍ لا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ؟.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ تُمَكِّنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً غَيْرَ هَذِهِ الكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟.

قُلْتُ: نعَم.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟.

قُلْتُ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟.

قُلْتُ: يَقُولُ: اَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَاتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ وَالصِّدْقِ والعَفَافِ والصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبٍ مِنْ قَوْمِها. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَتَأَسَّى بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ

اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعفاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الـرُّسُلِ. وَسَـأَلْتُكَ أَيَـزِيـدُونَ أَمْ يَنْقُصُـونَ؟ فَـذَكَـرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانَ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيـهِ؟ فَذَكَـرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِـكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ. وَسَـأَلْتُكَ هَـلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ. وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُهُ حَقّاً فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ. وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ. فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْـهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَـوْ كُنْتُ عِنْـدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

ثُم دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي بُعِثَ بِهِ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ. . . وَاخْتَلَفَ مَعَ رِجَالِهِ وَالأَسَاقِفَةِ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ.

هَـذِهِ الجَوَانِبُ الخَيِّـرَةُ قَدْ طَمَسَتْهَـا جَوَانِبُ الشَّـرِّ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ جَانِبِ الزَّعَامَةِ، والشُّحِّ والبُخْلِ.

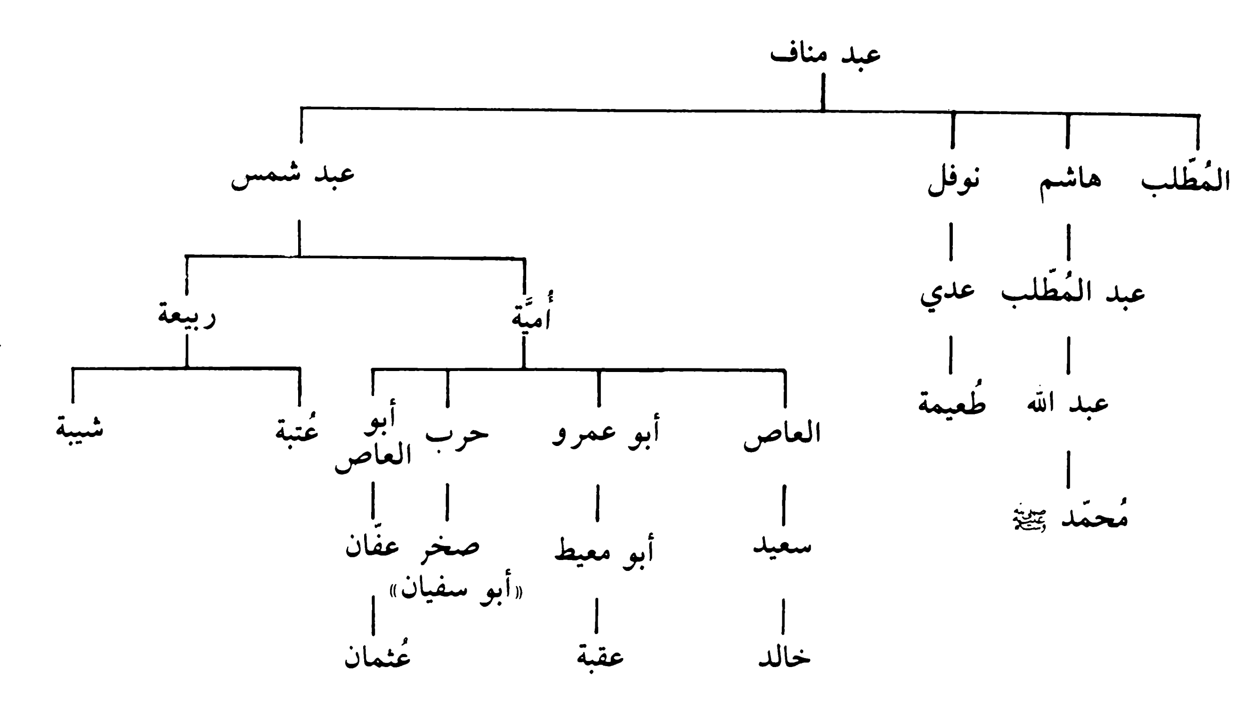
٢ ـ الزَّعَامَةُ:

كَانَ أَبُو سُفْيَانَ أَحَدَ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ حَالَتْ زَعَامَتُهُمْ دُونَ رُؤْيَتِهِمْ لِلحَقِّ، وَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَنْفَرِدَ زَعِيمٌ عَنْ بَقِيَّةِ الأَعْيَانِ، فَأَكْثَرُهُمْ وَقَفُوا صَفّاً وَاحِداً فِي سَبِيلِ مَصَالِحِهِمْ الَّتي تَصَوَّرُوا أَنَّها تَضِيعُ لَوْ انْتَصَرَ الحَقُّ، وَفِي سَبِيلِ أَهْوَائِهِمْ الَّتِي عَرَفُوا أَنَّهُمْ يَفْقِدُونَهَا فِيمَا لَوْ نَجَحَتِ الدَّعْوَةُ الجَدِيدَةُ، وَهَذَا شَأْنُهُمْ جَمِيعَاً. وَلْنَنْظُرْ إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَبْدِمَنَافِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي وَقَفَ بِجَانِبِ ابنِ أَخِيهِ، وَدَافَعَ عَنْهُ بِكُلِّ طَاقَتِهِ، وَحُوصِرَ فِي الشَّعْبِ مَعَ أُسْرَتِهِ، وَأَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ بَنِي المُطَّلِبِ في سَبِيلِ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا فَعِنْدَمَا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ جَلَسَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ: «يَا عَمُّ أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَشْفَعُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

قَالَ: وَمَا هِيَ يَا ابنَ أَخِي؟.

قَالَ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

فَقَالَ: إِنَّكَ لِي نَاصِحٌ. واللَّهِ لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي بِها قُرَيْشٌ، فَيُقَالُ: جَزِعَ عَمُّكَ عِنْدَ المَوْتِ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ.


عبد مناف
المُطّلب
هاشم
نوفل
عبد شمس
عبد المُطّلب
عدي
عبد الله
طُعيمة
مُحمّد ﷺ
أُميّة
ربيعة
العاص
أبو عمرو
حرب
أبو العاص
عُتبة
شيبة
سعيد
أبو معيط
صخر
«أبو سفيان»
عفّان
خالد
عقبة
عُثمان

هَـذِهِ حَالُ الـزَّعَامَـةِ تُعْمِي وَتُصِمُّ، وَتُبْعِـدُ عَنِ الحَقِّ، وَتَتَشَبَّثُ بِمَا هِيَ عَلَيْهِ سَوَاءٌ أَكَانَتْ عَلَى بَاطِلٍ أَمْ عَلَى غَيْرِهِ.

وَلَرُبَّما لَوْ كَانَ زَعِيماً وَحْدَهُ لأَمْكَنَ الوُصولُ إِلَى دَاخِلِ نَفْسِهِ وَتَزْكِيَةُ عُنْصُرِ الخَيْرِ فِيهَا، وَجَذْبُهُ نَحْوَ الطَّرِيقِ السَوِيِّ، وَعِنْدَهَا يَتْبَعُهُ النَّاسُ جَمِيعَاً، وَهَذَا مَا يَحْدُثُ بَيْنَ القَبَائِلِ الَّتِي لَهَا زَعِيمٌ وَاحِدٌ فَإِذَا سَارَ فِي طَرِيقٍ تَبِعَتْهُ القَبِيلَةُ كُلُّهَا، إِلَّا أَنَّ تَعَـدُّدَ الزُّعَمَاءِ قَدْ جَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَزْدَادُ فِي مَوَاقِفِهِ وَثَبَاتِهِ عَلَى مَـا وَجَدُوا عَلَيْـهِ آبَاءَهُمْ، وَأَنَّ فِي ذَلِـكَ القُـوَّةَ وَالحَقَّ وَالخَيْرَ عَلَى زَعْمِهِمْ، وَكُنَّا نَرَى هَذَا يَحْدُثُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ، فَإِذَا لاَنَ أَحَدُهُمْ قَلِيلاً، أَوْ فُتِحَتْ نَـافِذَةٌ مِنْ نَـوَافِذِ الخَيْـرِ عِنْدَهُ أَسْرَعَ بَقِيَّةُ الزُّعَمَاءِ، لإِغْلاَقِهَا بِاتِّهَامِهِ بِالجُبْنِ وَالضَّعْفِ، أَوْ أَنَّهُ صَبَأَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَإِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَتَسْتَمِرُّ النَّفْسُ فِي غَيِّهَا، وَتَطِيشُ الأَحْلاَمُ، وَيَبْقَى صَمَمُهَا.

٣ ـ الشُّحُّ وَالبُخْلُ:

لَقَدْ كَانَ أَبُـو سُفْيَانَ بَخِيـلاً شَحِيحَاً، يُقَلِّلُ عَلَى أَهْلِهِ، وَيُمْسِكُ عَنْ عِيَالِهِ، حَتَّى تَضْطَرَّ زَوْجَتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ إِلَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَتُخْفِي عَنْهُ مَا تَفْعَلُ.

وَيَبْدُو ذَلِكَ فِي بَيْعَةِ النِّسْوَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهِنَّ زَوْجُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، فَلمَّا أَنْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ»، قَالَتْ هِنْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبا سُفْيَانَ رَجُلٌ مَسِّيكٌ فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِ؟ فَرَخَّصَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ فِي الرَّطِبِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهَا فِي اليَابِسِ.

وَهَذَا البُخْلُ يَجْعَلُهُ يَحْرِصُ عَلَى الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي تُسَخِّرُ لَهُ المُسْتَضْعَفِينَ وَالأَرِقَّاءِ فَيَعْمَلُونَ لَهُ، وَيَأْخُذُ أَجْرَهُمْ، وَيَتْعَبُونَ وَيَسْتَفِيدُ هُوَ مِنْ تَعَبِهِمْ، وَيَكِدُّونَ وَيَأْكُلُ مَا يَحْصَلُون عَلَيْهِ.

وَتَزَوَّجَ أَبُو سُفْيَانَ عِدَّةَ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ: زَيْنَبُ بِنْتُ نَوْفَلٍ الكِنَانِيَّةُ وَأَنْجَبَتْ لَهُ يَزِيدَ[1] وَعَمْرَاً[2] وَأُمَّ حَبِيبَةَ الَّتِي أَسْلَمَتْ، وَهَاجَرَتْ إِلَى الحَبَشَةِ مَعَ زَوْجِها عُبَيْدِاللَّهِ بنِ جَحْشٍ وَالَّذِي ارْتَدَّ هُنَاكَ فَفَارَقَتْهُ، وَأَصْبَحَتْ بَعْدَئِذٍ مِنْ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، زَوَّجَهَا النَجَاشِيُّ فِي الحَبَشَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي مَهْجَرِهِ فِي المَدِينَةِ. وَتَزَوَّجَ أَبُو سُفْيَانَ صَفِيَّةَ بِنْتَ أَبِي العَاصِ بنِ أُمَيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ أُمِينَةَ، وَتَزَوَّجَ هِنْدَ بِنْت

---

(١) يزيد: أسلم يوم الفتح.

(٢) عمرو: أُسِرَ يوم بدر، ومات بعدها مشركاً.

عُتْبَةَ وَأَنْجَبَتْ لَهُ حَنْظَلَةَ[1] وَمُعَاوِيَةَ[2]، وَعَزَّةَ[3]، وَجُوَيْرِيَّةَ، وَأُمَّ الحَكَمِ، وَتَزَوَّجَ بِنْتَ حَارِثَةَ بنِ الأَوْقَصِ، وَوَلَدَتْ لَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ الَّتِي تَزَوَّجَهَا عَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَزَوَّجَ صَفِيَّةَ بِنْتَ أَبِي عَمْرِو بنِ أُمَيَّةَ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ هِنْدَاً وَصَخْرَةَ. وَتَزَوَّجَ لُبَابَةَ بِنْتَ أَبِي العَاصِ بنِ أُمَيَّةَ، وَوَلَدَتْ لَهُ مَيْمُونَةَ الَّتِي تَزَوَّجَهَا عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ثُمَّ خَلَفَهُ عَلَيْهَا المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ الثَّقَفِيُّ. وَهَكَذَا كَانَ لأَبِي سُفْيَانَ أَرْبَعَةُ ذُكُورٍ، وَتِسْعُ بَنَاتٍ.

وَلْنَنْظُرْ إِلَى بَعْضِ مَوَاقِفِ أَبِي سُفْيَانَ العِدَائِيَّةِ مِنَ الإِسْلَامِ قَبْلَ إِسْلَامِهِ إِضَافَةً إِلى مَوَاقِفِهِ مَعَ بَاقِي زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ.

هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ سَبَقَهُ إِلَيْها أَصْحَابُهُ وَبَدَؤُوا بِدِرَاسَةِ المَنْطِقَةِ الَّتِي تَمُرُّ

---

(١) حنظلة: قتل يوم بدر كافراً.

(٢) معاوية: أسلم عام الحديبية، وكتم إسلامه، وأظهره يوم الفتح.

(٣) عزّة: أسلمت قبل هجرة المسلمين إلى الحبشة، وزوجها أهلها من علي بن أمية بن خلف ثم فارقته عندما علمت أنه منافق، وقد قتل في بدر كافراً، وهاجرت عزّة على غير علم من أهلها.

فِيهَا قَوَافِلُ قُرَيْشٍ ذَاهِبَةً إِلَى الشَّامِ وَآيِبَةً، لأَنَّهـا سَتَكُونُ المَيْدَانَ الَّذِي يَلْتَقُونَ فِيهِ مَعَهُمْ، والَّذِي سَيَكُونُ سَاحَةَ مَعَارِكَ مُرْتَقَبَةٍ، لِذَا يَجِبُ مَعْرِفَةُ أَرْضِهَا وَدِرَاسَتُهَا، وَمَعْرِفَةُ قَبَائِلِهَا الَّتِي يَجِبُ مَنْعُهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَعَ قُرَيْشٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ مَعَ المُسْلِمِينَ، فَحِيادُهَا نُقْطَةٌ مُهِمَّةٌ، إِذْ لِقُرَيْشٍ هَيْبَةٌ لَدَى قَبَائِلِ العَرَبِ كُلِّهَا بِسَبَبِ مَسْكَنِهَا فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، وَحَجِّ القبائِلِ كُلِّهَا إِلَيْهَا.

كَانَتْ قَافِلَةٌ لأَبِي سُفْيَانَ تَتَحَرَّكُ بِاتِّجَاهِ الشَّامِ ، وَخَرَجَ لَهَا المُسْلِمُونَ وَلَكِنْ لَمْ يَظْفَرُوا بِهَا إِذ فَاتَتْهُمْ، فَعَادَ المُسْلِمُونَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ خَلَّفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِاللَّهِ وَسَعِيدَ بنَ زَيْدٍ لِيَنْتَظِرَا عَوْدَتَهَا وَإِخْبَارِ المُسْلِمِينَ بِذَلِكَ.

وَآبَتِ القَافِلَةُ، وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى مُنْتَظِرَيْهَا اللَّذَيْنِ نَقَلا بِدَوْرِهِمَا الخَبَرَ إِلَى المَدِينَةِ، فَخَرَجَ المُسْلِمُونَ لَهَا بِإِمْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ أَنْ طَلَبَ مِنْ أَصْحَابِهِ الخُرُوجَ لَهَا قَائِلاً لَهُمْ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفِلْكُمُوهَا». فَانْتَدَبَ النَّاسَ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ، وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ

رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقى حَرْباً، وَأَنَّ القَافِلَةَ لَا يَعْدُو رِجَالُهَا الأَرْبَعِينَ، فَلَيْسَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى النَفِيرِ العَامِّ، أَوِ العَدَدِ الكَبِيرِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ ثَلاثمِائَةٍ وَنَيِّفٍ.

كَانَ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ اقْتَرَبَ مِنَ الحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الأَخْبَارَ، وَيَتَحَسَّسُ مِنَ الرُّكْبَانِ، يَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّى عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّداً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدِ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لِلتَّعَرُّضِ لِلقَافِلَةِ، فَاسْتَأْجَرَ عِنْدَهَا رَجُلاً مِنْ بَنِي غِفَارٍ هُوَ ضَمْضَمُ بنُ عَمْرٍو، وَبَعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ يَطْلُبُ نَجْدَةَ أَهْلِهَا، وَالخُرُوجَ إِلَى أَمْوَالِهِمْ وَعِيرِهِمْ، فَخَرَجَ ضَمْضَمُ سَرِيعاً إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا وَقَفَ بِبَطْنِ الوَادِي وَقَدْ جَدَعَ بَعِيرَهُ، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، وَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.. اللَّطِيمَةَ.. اللَّطِيمَةَ، أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ، لَا أَرَى أَنْ تُدْرِكُوهَا، الغَوْثَ الغَوْثَ.

تَجَهَّزَتْ قُرَيْشٌ سِرَاعاً وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْ أَشْرَافِهَا إلّا مَنِ اسْتَأْجَرَ مَكَانَهُ كَأَبِي لَهَبٍ، وَانْطَلَقَتْ نَحْوَ المَدِينَةِ، وَأَمَّا أَبُو سُفْيَانَ فَقَدْ تَرَكَ طَرِيقَهُ المَسْلُوكَةَ، وَاتَّجَهَ نَحْوَ السَّاحِلِ وَنَجَا بِعِيرِهِ.

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ، وَالْتَقَتْ قُرَيْشٌ بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهِ، وَكَانَتِ الدَائِرَةُ عَلَيْهَا فَانْهَزَمَتْ مُخَلِّفَةً وَرَاءَهَا سَبْعِينَ قَتِيلاً بَيْنَهُمْ أَشْرَافُهَا، مِنْهُمْ حَنْظَلَةُ بنُ أَبي سُفْيَانَ، وعُتْبَةُ بنُ رَبيعَةَ أَبُو زَوْجِهِ هِنْدٍ، وَعَمُّهَا شَيْبَةُ، وَأَخُوهَا الوَلِيدُ. كَمَا أُسِرَ سَبْعُونَ آخَرُونَ مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ أَبي سُفْيَانَ و. . .

وَبَعْدَ هَذِهِ المَعْرَكَةِ أَصْبَحَ أَبُو سُفْيَانَ شَيْخَ قُرَيْشٍ وَزَعِيمَهَا، وَعَلَيْهِ أَنْ يُقَاتِلَ مَا قَاتَلَ الأَشْرَافُ مِنْ قُرَيْشٍ قَبْلَهُ، وَأَنْ يَتَحَمَّسَ لِلأَمْرِ، وَبِخَاصَّةٍ أَنَّ مَقْتَلَهُمْ كَانَ بِسَبَبِهِ وَبِسَبَبِ إِنْقَاذِ حَيَاتِهِ، وَقَادَ قُرَيْشاً في هَذِهِ الطَّرِيقِ.

قَادَ قُرَيْشاً فِي أُحُدٍ وَحَقَّقَ لَهَا بَعْضَ النَّصْرِ المَادِّيِّ، وَأَعَادَ لَهَا شَيْئاً مِنْ هَيْبَتِهَا وَمَعْنَوِيَّاتِهَا، وَلْنَنْظُرْ إِلَى مَوْقِفِهِ إِثْرَ تِلْكَ المَعْرَكَةِ. . . وَالَّذِي يُثِيرُ حَفِيظَةَ المُؤْمِنِينَ.

مَرَّ بِالحَمْزَةِ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدِ اسْتُشْهِدَ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ فِي شَدْقِهِ بِزُجِّ الرُّمْحِ، وَيَقُولُ: ذُقْ عُقَقُ، وَعِنْدَمَا أَرَادَ الانْصِرَافَ مِنْ أُحُدٍ، أَشْرَفَ عَلَى الجَبَلِ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَنْعَمْتَ فَعَالِ، إِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ يَوْمٌ

بِيَـوْمٍ ، أُعْلِ هُبَـلْ، أَيْ أَظْهِـرَ دِينَـكَ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُمْ يَا عُمَرُ فَأَجِبْهُ، فَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، لَا سَوَاءَ قَتْلَانَا في الجَنَّةِ، وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ». فَلَمَّا أَجَابَ عُمَرُ أَبَا سُفْيَانَ، قَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا عُمَرُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِعُمَرَ: «إِئْتِهِ فَانْظُرْ مَا شَأْنُهُ»، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا عُمَرُ، أَقَتَلْنَا مُحَمَّداً؟ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ لَا، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ كَلَامَكَ الآنَ.

قَالَ: أَنْتَ أَصْدَقُ عِنْدِي مِنِ ابْنِ قُمَيْئَةَ وَأَبَرُّ، لِقَوْلِ ابْنِ قُمَيْئَةَ لَهُمْ: إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ مُحَمَّداً[1]. ثُمَّ نَادَى أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي قَتْلَاكُمْ مُثَلٌ، وَاللَّهِ مَا رَضِيْتُ، وَمَا سَخِطْتُ، وَمَا نَهَيْتُ، وَمَا أَمَرْتُ. وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ بَدْرٌ لِلْعَامِ القَابِلِ . . .

قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لِأَحَـدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: «قُلْ: نَعَمْ، هُوَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَوْعِدٌ».

وَخَرَجَ بِقُرَيْشٍ فِي العَامِ المُقْبِلِ بِاتِّجَاهِ بَدْرٍ إِلَّا أَنَّهُ عَادَ مِنَ الطَّرِيقِ مِنْ عُسْفَانَ، وَلَمْ يَحْدُثْ قِتَالٌ ذَلِكَ العَامِ.

---

(١) قتل ابن قميئة ـ قبحه الله ـ مصعب بن عمير، رضي الله عنه، وإنه ليظنّ أنه محمد، صلى الله عليه وسلم.

ثُمَّ قَامَ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ، وَيَجْمَعُ القَبَائِلَ لِضَرْبِ المَدينَةِ ضَرْبَةً قَاضِيَةً، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ الخَنْدَقِ، إِلَّا أَنَّهُ فَشِلَ وَأَحْزَابُهُ فِيهَا، وَانْسَحَبَ يَجُرُّ ذُيُولَ الفَشَلِ وَالخُسْرَانِ.

ثُمَّ كَانَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَّةِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنِ اعْتَدَتْ بَنُو بَكْرٍ حَلِيفَةُ قُرَيْشٍ وَبِدَعْمٍ مِنْهَا عَلَى قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ حَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَافَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يُنْجِدَ المُسْلِمُونَ خُزَاعَةَ، لِذَا ذَهَبَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى المَدِينَةِ لِيُؤَكِّدَ الصُّلْحَ، وَيَزِيدَ فِي مُدَّتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يَتَنَاسَبُ مَعَ زَعَامَتِهِ فَابْنَتُهُ أُمُّ المؤْمِنِينَ رَمْلَةُ (أُمُّ حَبِيبَةَ) رَفَعَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ تَحْتِهِ، وَلَمْ يَجِدْ أُذُنًا صَاغِيَةً عَنْدَ أَبِي بَكْرٍ، وَلَا عِنْدَ عُمَرَ، وَلَا عِنْدَ عَلِيٍّ، الأَمْرَ الَّذِي جَعَلَهُ يَعُودُ خَائِباً، وَيَشْعُرُ أَنَّ زَعَامَتَهُ لَمْ تُفِدْهُ، وَشَعَرَ عِنْدَهَا بِقِيمَتِهِ الحَقِيقِيَّةِ، وَبَدَأَتْ تَتَغَيَّرُ فِكْرَةُ الزَّعَامَةِ فِي ذِهْنِهِ.

لَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَارَ المُسْلِمُونَ بِقِيَادَةِ رَسُولِهِمْ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَحْوَ مَكَّةَ، وَشَعَرَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهَا لَا قِبَلَ لَهَا بِالمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ رَأَتْ مَا رَأَتْ مِنْ قُوَّةِ أَصْحَابِهِ وَكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ، وَالتَقَى العَبَّاسُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَكَانَ قَدْ هَاجَرَ،

وَالتَقَى بِرَسُولِ اللَّهِ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ فَانْطَلَقَ مَعَهُ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ يَدْخُلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَكَّةَ عَنْوَةً، وَالتَقَى بِأَبِي سُفْيَانَ فَأَخَذَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتَأْمَنَهُ، وَفِي اليَوْمِ التَّالِي التَقَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»

قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! وَاللَّهِ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ غَيْرَهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنِّي شَيْئاً بَعْدُ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! أَمَّا هَذِهِ وَاللَّهِ فَإِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْهَا حَتَّى الآنَ شَيْئاً.

فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: وَيْحَكَ أَسْلِمْ وَاشْهَدْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ. فَشَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ فَأَسْلَمَ.

٤ ـ عَدَمُ وُضُوحِ الإِيمَانِ بَعْدَ الإِسْلَامِ :

وَيَبْدُو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَسْلَمَ ظَاهِرَاً خَوْفَاً مِنَ القَتْلِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ دَخَلَ الإِسْلَامُ فِي قَلْبِهِ بِشَكْلٍ صَحِيحٍ ، فَبَعْدَ إِسْلَامِهِ قَالَ العَبَّاسُ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئَاً، قَالَ: «نَعَمْ. . . مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ».

وَلَمَّا مَرَّتِ القَبَائِلُ أَمَامَ العَبَّاسِ وَهُوَ وَاقِفٌ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ حَسْبَ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِلْعَبَّاسِ : مَا لأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ قِبَلٌ وَلَا طَاقَةٌ، وَاللَّهِ يَا أَبَا الفَضْلِ ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الغَدَاةَ عَظِيمَاً، فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَنَعَم إِذَنْ.

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالمُسْلِمُونَ مَكَّةَ، وَأَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَهَا وَقَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ. . .».

وَلَمْ تَطُلِ المُدَّةُ حَتَّى خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى قِتَالِ هَوازِنَ وَثَقِيفٍ، وَخَرَجَ مَعَهُ طُلَقَاءُ مَكَّةَ،

وَلَكِنَّ المُسْلِمِينَ فُوجِئُوا بِأَعْدَائِهِمْ يَكْمِنُونَ لَهُمْ وَقَدْ شَدُّوا عَلَيْهِمْ شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَانْشَمَرَ النَّاسُ رَاجِعِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا مَنْ ثَبَتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ قِلَّةٌ، وَقَدْ شَمِتَ أَبُو سُفْيَانَ بِهَذِهِ الهَزِيمَةِ ـ عَلَى مَا يَظْهَرُ ـ وَقَالَ: لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ البَحْرِ، وَإِنَّ الأَزْلَامَ لَمَعَهُ فِي كِنَانَتِهِ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَادَى المُسْلِمِينَ، فَجَاؤُوا إِلَيْهِ وَتَجَمَّعُوا حَوْلَهُ، وَشَدُّوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ جَمَعُوا الغَنَائِمَ الكَثِيرَةَ، وَسَارُوا إِلَى الطَّائِفِ فَحَاصَرُوهَا، ثُمَّ عَادُوا وَوَزَّعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الغَنَائِمَ وَأَعْطَى المُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرَ لَهُمْ، وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ، وَابْنَاهُ يَزِيدُ، وَمُعَاوِيَةُ إِذْ أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِائَةَ نَاقَةٍ وَأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنَ الدَّرَاهِمِ، وَيَبْدُو بَعْدَهَا أَنَّ إِسْلَامَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ حَسُنَ وَكَذَلِكَ إِسْلَامُ ابْنِهِ يَزِيدَ، أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَكَانَ قَدْ دَخَلَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ مُنْذُ عَامِ الحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ أَبِيهِ، وَإِنْ كَانَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحْيَانًا فَيَقُولُ لَهُ: يَزِيدُ أَفْضَلُ مِنْكَ، هُوَ عَلَى دِينِي، وَأَنْتَ عَلَى غَيْرِ دِينِ أَبِيكَ، وَفَقَدَ أَبُو سُفْيَانَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ فِي الطَّائِفِ، وَعِنْدَمَا عَادَ المُسْلِمُونَ إِلَى مَكَّةَ مَكَثُوا فِيهَا قَلِيلًا، ثُمَّ انْطَلَقَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ إِلَى المَدِينَةِ، وَبَقِيَ أَبُو سُفْيَانَ

فِي مَكَّـةَ ثُـمَّ انْطَـلَـقَ إلى نَـجْـرَانَ حَيْثُ وَلاَّهُ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، تِلْكَ الوِلاَيَـةَ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تُـوُفِّيَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، بَعْـدَ أَقَـلَّ مِنْ ثَـلاَثِ سَنَواتٍ. وَارْتَدَّ النَّاسُ، وَثَبتَ أَبُو سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعَ مَنْ ثَبَتَ عَلَى إيمَانِهِ.

وَعَقَدْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَلْوِيَةَ الفَتْحِ، وَكَانَ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمِيراً عَلَى أَحَدِ الجُيُوشِ الَّتِي سَارَتْ إلى الشَّامِ، وَقَالَ الصِّدِّيقُ لِلأُمَرَاءِ: إن اجْتَمَعْتُمْ فِي كَيْدٍ فَيَزِيدُ عَلَى النَّاسِ، وَإِنْ تَفَرَّقْتُمْ فَمَنْ كَانَتِ الوَقْعَةُ مِمَا يَلِي عَسْكَرَهُ فَهُوَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَشَيَّعَهُ أَبُـو بَكْرٍ مَاشياً وَقَالَ: إنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هِذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُوصِيهِ.

وَكَـانَ أَبُو سُفْيَـانَ فِي جَيْشِ ابنِهِ يَـزِيدَ، وَكَـانَتْ جِهَةُ الجَيْشِ دِمَشْقَ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ اليَرْمُوكِ فَقَالَ لاَبْنِهِ يَزِيـدَ: يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِتقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ فَإِنَّهُ لَيْس رَجُلٌ بِهَذَا الوَادِي مِنَ المُسْلِمِينَ إلاَّ مَحْفُوفاً بِالقِتَالِ، فَكَيْفَ بِكَ وَبِأَشْبَاهِكَ الَّذِينَ وُلُّوا أُمُورَ المُسْلِمِينَ؟ أُولَئِكَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالصَّبْرِ وَالنَّصِيحَةِ،

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا بُنَيَّ، وَلَا يَكُونَنَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ بِأَرْغَبَ فِي الأَجْرِ وَالصَّبْرِ فِي الحَرْبِ، وَلَا أَجْرَأَ عَلَى عَدُوِّ الإِسْلَامِ مِنْكَ، فَقَالَ: أَفْعَلُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -[1].

وَقَفَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ اليَرْمُوكِ يَحُثُّ المُسْلِمِينَ عَلَى القِتَالِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ أَنْتُمُ العَرَبُ وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي دَارِ العَجَمِ مُنْقَطِعِينَ عَنِ الأَهْلِ، نَائِينَ عَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَأَمْدَادِ المُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَاللَّهِ أَصْبَحْتُمْ بِإِزَاءِ عَدُوٍّ كَثِيرٍ عَدَدُهُ، شَدِيدٍ عَلَيْكُمْ حَنَقُهُ، وَقَدْ وَتَرْتُمُوهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، وَاللَّهِ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ، وَلَا يَبْلُغُ بِكُمْ رِضْوَانَ اللَّهِ غَداً إِلَّا بِصِدْقِ اللِّقَاءِ وَالصَّبْرِ فِي المَوَاطِنِ المَكْرُوهَةِ، أَلَا وَإِنَّهَا سُنَّةٌ لَازِمَةٌ، وَأَنَّ الأَرْضَ وَرَاءَكُمْ، بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ صَحَارَى وَبَرَارِي، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا مَعْقِلٌ وَلَا مَعْدِلٌ إِلَّا الصَّبْرَ وَرَجَاءَ مَا وَعَدَ اللَّهُ فَهُوَ خَيْرُ مُعَوَّلٍ، فَامْتَنِعُوا بِسُيُوفِكُمْ وَتَعَاوَنُوا وَلْتَكُنْ هِيَ الحُصُونُ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى النِّسَاءِ فَوَصَّاهُنَّ، ثُمَّ عَادَ فَنَادَى: يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الإِسْلَامِ حَضَرَ مَا تَرَوْنَ فَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ،

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَامَكُمْ، وَالشَّيْطَانُ وَالنَّارُ خَلْفَكُمْ، ثُمَّ سَارَ إِلَى مَوْقِعِهِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ[1]..

وَجَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ يَقِفُ عَلَى كُلِّ كُرْدُوسٍ وَيَقُولُ: اللَّهَ... اللَّهَ، إِنَّكُمْ دَارَةُ العَرَبِ وَأَنْصَارُ الإِسْلَامِ، وَإِنَّهُمْ دَارَةُ الرُّومِ وَأَنْصَارُ الشِّرْكِ، اللَّهُمَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِكَ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ عَلَى عِبَادِكَ[2].

قَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ: هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ يَوْمَ اليَرْمُوكِ فَسَمِعْنَا صَوْتاً يَكَادُ يَمْلأُ العَسْكَرَ يَقُولُ: يَا نَصْرَ اللَّهِ اقْتَرِبْ. الثَّبَاتَ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، قَالَ: فَنَظَرْنَا فَإِذَا هُوَ أَبُو سُفْيَانَ تَحْتَ رَايَةِ ابنِهِ يَزِيدَ[3].

وَانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ فِي اليَرْمُوكِ، وَفَقَدَ أَبُو سُفْيَانَ عَيْنَهُ الثَّانِيَةَ، وَعَاشَ بِذَلِكَ بَعْدَهَا كَفِيفاً، مُنْقَطِعاً لِلْعِبَادَةِ، يَخْشَى مَا سَبَقَ مِنْهُ أَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَلَقَدْ فَعَلَ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ مَا فَعَلَ، وَمِنْهُمْ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالَّذِي يَقُولُ عَنْ إِسْلَامِهِ وَبَيْعَتِهِ

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير جـ ٧ ص ٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر نفسه.

لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: وَبَايَعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لِي كُلَّ مَا أَوْضَعْتُ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «إِنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بنَ الوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيْهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ»[1].

عَاشَ أَبُو سُفْيَانَ بَعْدَ ذَلِـكَ كَفِيفاً فِي المَـدِينَةِ المُنَـوَّرَةِ ثَمَانِيَ عَشَرَةَ سَنَةً مُنْصَرِفاً إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ حَتَّى تُوُفِّيَ عَامَ ٣١ هـ فِي أَيَّامِ سَيِّدِنَا عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ عُمْـرٍ يَزِيدُ عَلَى ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً.

٤ ـ الهُجُومُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ وَقَدْ نَشَأَ بِسَبَبِ:

أ ـ مَوْقِفِ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الدَّعْوَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ قَبْـلَ فَتْحِ مَكَّةَ وَدُخُولِهِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَكَذَلِـكَ مَوْقِفُ زَوْجِـهِ هِنْدٍ بِنْتِ عُتْبَةَ وَعَدَاؤُهَا الصَّارِخُ وَاللَّئِيمُ، فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَنَهْشُهَا كَبِدَ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَكَذَلِكَ إِلَى مَوْقِفِ عَدَدٍ مِنْ زَعَمَـاءِ بَنِي أُمَيَّةَ قَبْـلَ إِسْلاَمِهِمْ. وَلَكِنَّ الإِسْلامَ قَدْ جَبَّ كُلَّ هَذَا.

---

(١) طبقات ابن سعد: جـ ٤ ص ٢٥٢.

ب ـ الفِتْنَـةِ الَّتِي حَـدَثَتْ أَيَّـامَ عُثْمَـانَ بنِ عَفَّـانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاتِّهَامِهِ بِالضَّعْفِ، وَتَقْرِيبِ بَنِي أُمَيَّةَ وَالصَّدِّ عَنْ بَنِي هَاشِمٍ.

وَفِي هَذَا افْتِرَاءٌ عَلَى عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاجْتِهَادٌ مِنْهُ فِي بَعْضِ الجَوَانِبِ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَاحِبَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ مَعَ مُلَاحَظَةِ اخْتِيَارِ القَوِيِّ الأَمِينِ، وَعَـدَمِ الاسْتِغْنَـاءِ عَنْ أَهْـلِ العِلْمِ وَالشُّـورى فِي مَـدِينَـةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جـ ـ الخـلافِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَـةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَـدْ شَقَّ عَلَى النَّاسِ هَـذَا كَثِيراً، لِمَـا لِعَلِيٍّ مِنَ فَضْـلٍ، وَقَرَابَةٍ، وَحُسْنِ بَلاءٍ، وَعِلْمٍ لَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي عَصْرِهِ، وَهَذَا لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ مُسْلِمَانِ، إِلَّا أَنَّ لِكُلٍّ مِنْ هَذَينِ الصَّحَابِيَّيْنِ اجْتِهَـادَهُ وَعَمَلَهُ الَّـذِي يَـرَى فِيـهِ صَـلَاحَ الأُمَّـةِ وَالنَّصِيحَـةَ لِلْمُسْلِمِينَ.

فَكَانَ رَأْيُ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ هَيْبَةَ الدَّوْلَةِ تَضِيعُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الإِمَامُ عَزْلَ وَالٍ، وَلَا بُدَّ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ تَهْيِئَـةِ الوَضْـعِ حَتَّى يَسْتَطِيـعَ أَنْ يَـطْرُدَ المُشَـاغِبِينَ، وَيُقِيمَ الحُدُودَ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ وَيُطَالِبُ مُعَاوِيَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ،

ذَلِكَ بِسُرْعَةٍ وَيَرْفُضُ البَيْعَةَ إِلَّا إِذَا تَـمَّ ذَلِكَ. عَلَى حِين يَرَى عَلِيٌّ أَنَّهُ لَا بُدَّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَخْذِ البَيْعَةِ مِنَ الوُلَاةِ كَافَّةً، وَإِنَّ تَعَنُّـتَ الوُلَاةِ لَهُوَ فَسْـحُ المَجَالِ لِإِبْقَـاءِ المُشَاغِبِينَ فِي المَدِينَةِ. ثُمَّ إِنَّ قَتَلَةَ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَصْحَابَ الفِتْنَةِ هُمُ المُسَيْطِرُونَ عَلَى المَدِينَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَحَكَّمُونَ بِشُؤُونِهَا بِسَبَبِ هَـذِهِ الأَوْضَاعِ. وَيَنْـطَلِقُ رَأْيُ عَلِيٍّ - كَعَـادَتِـهِ - مِنَ الإِيمَانِ العَمِيقِ والصَّلَابَةَ فِي الدِّينِ.

أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَيَرَى أَنَّهُ وَالٍ لَا أَكْثَرَ، وَلَكِنْ مِنَ الضَّرُورِيِّ بِمَكَانٍ بَقَاءَهُ فِي الشَّامِ حَيْثُ خَبِرَ الرُّومَ، وَعَرَفَ أُمُورَهُمْ وإِذَا عَابَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَقَرَّهُ عَلَى ذَلِكَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَذَهَابُهُ عَنْهَا ضَيَاعٌ لِثُغُورِهَا. ثُمَّ إِنَّ الوَضْعَ فِي المَدِينَةِ لَمْ يَسْتَقِرَّ فَأَصْحَابُ الفِتْنَةِ هُمُ الَّذِينَ نَصَّبُوا عَلِيّاً، وَإِنَّ عَدَداً مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ لَمْ يُبَايِعِ الخَلِيفَةَ الجَدِيدَ عَلِيّاً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الشُّـورَى، فَقَدِ امْتَنَـعَ عَنِ البَيْعَةِ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُاللَّهِ بنُ عُمَـرَ، وَأُسَامَـةُ بنُ زَيْدٍ، وَصُهَيْبٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَحَسَّانُ بنُ ثَـابِتٍ، وَزَيدُ بنُ ثَابِتٍ، وَكَعْبُ بنُ مَالِـكٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَـةَ، وَالنُّعْمَان بنُ بَشِيـرٍ، وَرَافِعُ بنُ خُـدَيجٍ، وَسَلَمَـةُ بنُ وَقْشٍ، وَأَبُـو سَعِيـدٍ الخُدْرِيُّ مِنَ الأَنْصَارِ. وَإِنَّ الحُدُودَ قَدْ أُهْمِلَتْ لِعَدَمِ إِقَامَتِهَا

عَلَى مَنْ قَتَلُوا الخَلِيفَةَ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعِنْدَمَا يَتِمُّ البَيْعَةُ وَتُقَامُ حُدُودُ اللَّهِ يَكُنْ أَوَّلَ المُبَايِعِينَ.

ثُمَّ جَرَتِ الحُرُوبُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ الجَمَلِ، وَمَعْرَكَةُ صِفِّينَ وَتُعَدَّانِ مِنْ أَصْعَبِ المَعَارِكِ وَأَكْبَرِهَا أَثَراً فِي الخِلَافِ الَّذِي نَشَأَ فِي التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، وَلَا يَزَالُ الحَدِيثُ يَدُورُ عَنْهُمَا.

د ـ الحَوَادِثِ الَّتِي وَقَعَتْ أَيَّامَ يَزِيدَ بنِ مُعَاوِيَةَ: وَهِيَ حَادِثَةُ كَرْبَلَاءَ الَّتِي اسْتُشْهِدَ فِيهَا الحُسَيْنُ بنُ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَوَقْعَةُ الحَرَّةِ فِي المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ.

هـ ـ الحَوَادِثِ الَّتِي وَقَعَتْ أَيَّامَ عَبْدِالمَلِكِ بنِ مَرْوَانَ: وَهِيَ انْتِهَاكُ البَيْتِ الحَرَامِ، وَمَقْتَلُ عَبْدِاللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَشِدَّةُ الحَجَّاجِ.

و ـ وِلَايَةِ العَهْدِ الَّتِي بَدَأَهَا مُعَاوِيَةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَرْكَ مَبْدَأَ الشُّورَى الإِسْلَامِيَّ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ قَبْلُ.

ز ـ ضَعْفِ بَعْضِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ المُتَأَخِّرِينَ. وَلَا مَجَالَ الآن لِلْوُقُوفِ أَمَامَ هَذِهِ الاتِّهَامَاتِ وَدِرَاسَتِهَا بِشَكْلٍ مُفَصَّلٍ، وَإِعْطَاءِ الرأْيِ فِيهَا.

كُلُّ هَذَا جَعَلَ الهُجُومَ يَنْصَبُّ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ وَرَأْسِ الأُسْرَةِ السُّفْيَانِيَّةِ، وَهُوَ أَبُو سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَخَاصَّةً أَنَّ التَّارِيخَ قَدْ دُوِّنَ فِي أَيَّامِ خُصُومِهِمْ السِّيَاسِيِّينَ مِنْ بَنِي العَبَّاسِ، الأَمْرُ الَّذِي سَمَحَ للأَيْدي أَنْ تَلْعَبَ فِيْهِ، وَتَكْتُبَ حَسْبَ هَوَاهَا.

وَلَقَدِ اتَّخَذَ الهُجُومُ شَكْلَ رِوَايَاتٍ مُغْرِضَةٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَدَسٍّ عَلَى الأَدَبِ حَتَّى غَدَا تَارِيخُنَا يَسْتَقِي مَصْدَرَهُ الرَّئِيسيَّ مِنَ الأَدَبِ لِكَثْرَةِ مَا انْتُحِلَ مِنَ الشِّعْرِ، وَمَا وُضِعَ مِنْ قَصَصٍ، وَمَا نُسِبَ مِنْ حِكَمٍ وَكِتَابَاتٍ، وَخُطَبٍ لأَشْخَاصٍ تَبَرَّؤُوا مِنْهَا وَلاَ عِلْمَ لَهُمْ بِهَا، بَلْ تُوُفُّوا قَبْلَ وَضْعِهَا بِعَشَرَاتِ السِّنِينَ إنْ لَمْ نَقُلْ بِقُرُونٍ.

كُلُّ هَذَا جَعَلَ جَوَانِبَ مِنْ حَيَاةِ أَبِي سُفْيَانَ غَامِضَةً، وَلَمْ يَقْبَلِ النَّاسُ مِنْ حُسْنِ إِيمَانِهِ، وَجِهَادِهِ، بَلْ رَدُّوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإِسْلاَمُ يَجُبُّ كُلَّ مَا كَانَ قَبْلَهُ» دُونَ أَنْ يَدْرُوا.

وَتُوُفِّيَ أَبُو سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلاَ هَمَّ لَهُ إِلَّا العِبَادَةَ رَاجِياً مِنَ اللَّهِ تَكْفِيرَ مَا وَقَعَ مِنْهُ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهِ، وَمَا اسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَعْمَالٍ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١٨ -

حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم

زَيْدُ بْنُ حَارِثَة

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

● قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِزَيْدِ بنِ حَارِثَةَ:

«يَا زَيْدُ أَنْتَ مَوْلَايَ، وَمِنِّي، وَإِلَيَّ، وَأَحَبُّ القَوْمِ إِلَيَّ».

● قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ أُخْبِرَ بِمَا تَمَّ بِمُؤْتَةَ:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِزَيْدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِزَيْدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِزَيْدٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِجَعْفَرٍ وَلِعَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ».

● قَالَتْ عَائِشَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

«مَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ فِي جَيْشٍ إِلَّا أَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ بَقِيَ بَعْدَهُ اسْتَخْلَفَهُ».

● قَالَ ابنُ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«فَرَضَ عُمَرُ لأُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَرَضَهُ إِلَيَّ، فَكَلَّمْتُهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْكَ، وَإِنَّ أَبَاهُ كَـانَ أَحَبَّ إلى رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَبِيكَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ والصَّـلاَةُ والسَّـلاَمُ عَلى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِـهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدُ:

فَإِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ لَمْ يُسَمِّ صَحَابِيّاً بِاسْمِـهِ إِلَّا زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[1].

لَقَدْ كَانَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَيْدَانَ الدِّرَاسَةِ العَمَلِيَّ لِإِلْغَاءِ بَعْضِ الأَعْرَافِ الَّتِي كانَ مَعْمُولاً بِهَا فِي الجَاهِلِيَّـةِ، وَتَـطْبِيقِ النُّظُمِ الصَّحِيحَـةِ الَّتِي أَمَـرَ بِهَـا الإِسْـلامُ لِتَنْـظِيمِ الأُسْـرَةِ، والمُسَاوَاةِ، وَحِفْظِ الإِرْثِ فِي ذَوِي الأَرْحَـامِ، وَإِبْطَالِ عَادَةِ التَّبَنِّي.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ إِذَا أَحَبَّ الإِنْسَانُ مَوْلَىً لَهُ تَبنَّاهُ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ، أَوْ إِذَا كَانَ مُجِيراً لَهُ وَرَغِبَ فِيْهِ تَبنَّاهُ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَهْلِهِ. وَلَقَدْ أَحَبَّ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ والسَّلاَمِ مَوْلاَهُ زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ فَتَبَنَّاهُ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ، وَأَصْبَحَ يُعْرَفُ بِزَيْدِ بنِ مُحَمَّدٍ. وَرَغِبَ الأَسْوَدُ بنُ عَبْدِيَغُوث فِي المِقْدَادِ بنِ عَمْرٍو الَّذِي أَجَارَهُ فَنَسَبَهُ إِلَيْهِ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ المِقْدَادُ بنُ الأَسْوَدِ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1]. فَأُلْغِيَتْ بِهَذَا ظَاهِرَةُ التَّبَنِّي، وَكَانَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَاحَتَهَا وَذَلِكَ تَمْهِيداً لِزَوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ ابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الَّتِي كَانَتْ زَوْجَ زَيْدٍ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤، ٥.

وَمَعَ إِلْغَاءِ ظَاهِرَةِ التَّبَنِّي الَّتي كَانَتْ مَعْرُوفَةً في الجَاهِلِيَّةِ أُلْغِيَ التَّوارُثُ بَيْنَ السَّيِّدِ وَمَوْلاَهُ، وَأَصْبَحَ الإِرْثُ مَحْصُوراً فِي ذَوِي الأَرْحَامِ كَتَنْظِيمٍ جَدِيدٍ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ.

وَفِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ العَبْدُ لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ سَيِّدَةٍ شَرِيفَةٍ حَيْثُ كَانَتِ الطَّبَقَاتُ قَائِمَةً وَمُتَعَارَفاً عَلَيْهَا، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ وَدَعَا إِلَى المُسَاوَاةِ وَتَرْكِ مَا كَانَ مُتَعَارَفاً عَلَيْهِ مِنْ نِظَامِ الطَّبَقَاتِ، زَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابْنَةَ عَمَّتِهِ السَّيِّدَةَ الشَّرِيفَةَ الجَمِيلَةَ المُتَبَاهِيَةَ بِجَمَالِهَا، المُعْتَزَّةَ بِنَسَبِهَا، المُفْتَخِرَةَ بِوَضْعِهَا من مَوْلاَهُ زَيْدٍ. وَقَدْ وَجَدَتْ فِي نَفْسِهَا شَيْئاً مِنْ هَذَا الزَّوَاجِ، كَمَا وَجَدَ أَهْلُهَا كَذَلِكَ حَتَّى غَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقْبَلْ أَبْنَاءُ عَمَّتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، عَلَى غَضَبِهِ فَوافَقُوا عَلَى الزَّوَاجِ وَوَافَقَتْ صَاحِبَةُ الشَّأْنِ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَتَمَّ الزَّوَاجُ. وَكَانَ قَدْ نَزَلَ قُرْآنٌ بِذَلِكَ بِأَنْ لاَ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ خِيَرَةٌ فِي أَمْرٍ قَطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾[1]. فَكَانَ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

دَرْسَاً فِي المُسَاوَةِ، دَرْسَاً عَمَلِيّاً، سَاحَتُهُ زَيْدٌ وَزَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما.

كَانَتِ الجَاهِلِيَّةُ لَا تُجِيزُ أَبَدَاً أَنْ يَتَزَوَّجَ المُتَبَنِّي زَوْجَةَ المُتَبَنَّى إِذَا طَلَّقَهَا أَبَدَاً، وَكَيْفَ يَتَزَوَّجُهَا وَهُوَ ابْنُهُ؟. فَجَاءَ الإِسْلَامُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ المُتَبَنَّى لَيْسَ ابْنَ المُتَبَنِّي أَبَدَاً، وَيَحِقُّ لَهُ الزَّوَاج مِنْ مُطَلَّقَتِهِ وَكَانَ زَيْدٌ وَزَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، مَيْدانَ هذا أيضاً. فَقَدْ تَزَوَّجَ زيدٌ زَيْنَب، وَلَم يُوَفَّقْ هَذَا الزَّوَاجُ، فَلَمْ يَسْتَمِرَّ فَطَلَّقَ زَيْدٌ زَيْنَبَ، وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَمْرٍ مِنَ السَّمَاءِ كَيْ تُلْغَى أَعْرَافُ الجَاهِلِيَّةِ، وَتَسْتَقِرَّ فِي المُجْتَمَعِ النُّظُمُ الصَّحِيحَةُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ[1] وَأَنَعَمْتَ عَلَيْهِ[2] أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللّهُ مُبْدِيْهِ[3] وَتَخْشَى النَّاسَ واللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَرَاً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى المُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً. مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ

(١) أنعم الله عليه بالإسلام.

(٢) أنعم عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالعتق.

(٣) كان يُخفي رسول، صلى الله عليه وسلم، ما أطلعه الله عليه بما سيتمّ.

لَهُ، سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدَاً إِلَّا اللَّهَ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[1].

زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بنِ شَرَاحِيلَ مِنْ قَبِيلَةِ كَلْبٍ الَّتِي كَانَتْ تُقِيمُ فِي شَمَالِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَهِيَ مِنْ قُضَاعَةَ مِنْ قَحْطَانَ. وَأَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ سُعْدَى بِنْتُ ثَعْلَبَةَ مِنْ بَنِي مَعْنٍ مِنْ طَيِّءٍ التي مَنَازِلُهَا فِي مَنْطِقَةِ حَائِلٍ.

وُلِدَ زَيْدٌ حَوالي عَامِ ٤٣ قَبْلَ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وفي العَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ ذَهَبَ مَعَ أُمِّهِ لِزِيَارَةِ أَهْلِهَا، وَفِي دِيَارِ أَخْوَالِهِ خَرَجَ يَلْعَبُ فَمَرَّتْ بِهِ خَيْلٌ لِبَنِي القَيْنِ بن جَسْرٍ فِي غَارَةٍ لَهَا فَاحْتَمَلَتْهُ مَعَهَا، وَأَتَتْ بِهِ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَعَرَضَتْهُ لِلْبَيْعِ فَاشْتَرَاهُ حَكِيمُ بنُ حِزَامِ بنِ خُوَيْلِدٍ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ.

وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى حَارِثَةَ وَالِدِ زَيْدٍ، خَبَرُ اخْتِطَافِ ابنِهِ فَجَزِعَ أَشَدَّ الجَزَعِ وَرَثَاهُ فَقَالَ:

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٣٧ ـ ٤٠.

بَكَيْتُ عَلَى زَيْـدٍ وَلَمْ أَدْرِ مَا فَعَـلْ
أَحَيٌّ فَيُـرْجَى أَمْ أَتَى دُونَـهُ الأَجَـلْ
فَـوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وإِنْ كُنْتُ سَـائِـلاً
أَغَالَكَ سَهْلُ الأَرْضِ أَمْ غَالَكَ الجَبَلْ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَكَ الدَّهْرَ رَجْعَةٌ
فَحَسْبِي مِنْ الدُّنْيَا رُجُوعُكَ لِي بَجَلْ
تُـذَكِّـرْنِيـهِ الشَّمْسُ عِنْـدَ طُلُوعِهَـا
وَتَعْـرِضُ ذِكْرَاهُ إِذَا قَـارَبَ الـطَّفَـلْ
وَإِنْ هَـبَّتِ الأَرْوَاحُ هَـيَّجْـنَ ذِكْـرَهُ
فَيَـا طُولَ حُـزْنِي عَلَيْـهِ وَيَـا وَجَـلْ
سَأُعْمِلُ نَصَّ العِيس فِي الأَرْضِ جَاهِدَاً
وَلاَ أَسْـأَمُ التَّطْوَافَ أَوْ تَسْـأَمَ الإِبِلْ
حَـيَـاتِيَ أَوْ تَـأْتِـي عَلَيَّ مَـنِـيَّـتـي
وَكُـلُّ امْرِىءٍ فَـانٍ وَإِنْ غَرَّهُ الأَمَـلْ
وَأُوصِي بِـــهِ قَيْسَـاً وَعَمْـرَاً كِلَيْهِمَـا
وَأُوصِي يَزِيدَاً[1] ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِمْ جَبَلْ[2]

---

(١) يزيد بن كعب بن شراحيل: هو ابن أخي حارثة، وأخو ابنه زيد لأمه.

(٢) جبل: هو جبلة بن حارثة، وأخو زيد.

وَحجَّ نَاسٌ مِنْ قَبِيلةِ كَلْبٍ فَرَأَوْا زَيْدَاً فَعَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، فَقَالَ: بَلِّغُوا أَهْلِي هَذِهِ الأَبْيَاتَ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَدْ جَزِعُوا عَلَيَّ، وَقَالَ:

أَلِكني إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِياً
بِأَنِّي قَطِينُ البَيْتِ عِنْدَ المَشَاعِرِ
فَكُفُّوا مِنْ الوَجْدِ الَّذِي قَدْ شَجَاكُمُ
وَلَا تَعْمَلُوا فِي الأَرْضِ نَصَّ الأَبَاعِرِ
فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ أُسْرَةٍ
كِرَامٍ مَعَدٍّ كَابِرَاً بَعْدَ كَابِرِ

وَعِنْدَمَا رَجعَ الكَلْبِيُّونَ أَعْلَمُوا أَبَاهُ، فَقَالَ: ابْنِي وَرَبِّ الكَعْبةِ! وَوَصَفُوا لَهُ مَوْضِعَهُ، وَعِنْدَ مَنْ هُوَ. فَخَرَجَ حَارِثَةُ أَبُوهُ، وَكَعْبُ عَمُّهُ بِفِدَائِهِ.

بَقِي زَيْدٌ عِنْدَ خَدِيجَةَ، فَلَمَّا تَزَوَّجَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِخَدِيجَةَ، وَهَبَتْهُ لَهُ، فَكَانَ بِجَانِبِهِ يُسَاعِدُهُ، وَيَخْدُمُهُ، وَقَدْ أَحَبَّهُ حُبَّاً جَمَّاً، وَسُرَّ بالحياةِ مَعَهُ، فَقد رَأَى فِيهِ الإِنْسَانِيَّةَ وَالحَنَانَ، وَعَرَفَ فِيهِ الأُخُوَّةَ وَالعَطْفَ، وَشَعَرَ مِنْهُ بِالأُبُوَّةِ الَّتِي افْتَقَدَهَا وَالشَّفَقَةِ الَّتِي أَضَاعَهَا بِسَبَبِ قَسْوَةِ الجَاهِلِيَّةِ، وَظُلْمِ تِلْكَ المُجْتَمَعَاتِ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً.

وَقَدِمَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ إِلَى مَكَّةَ يَبْحَثَانِ عَنْهُ، وَسَأَلَا عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُمَا: هُوَ في المَسْجِدِ، فَدَخَلَا عَلَيْهِ، فَقَالاَ: يَا ابنَ عَبْدِاللَّهِ، يَـا ابْنَ عَبْدِالمُـطَّلِبِ، يَا ابنَ هَاشِمٍ، يا ابنَ سَيِّدِ قَوْمِهِ، أَنْتُمْ أَهْلُ الحَرَمِ وَجِيرَانُهُ وَعِنْدَ بَيْتِهِ تَفُكُّونَ العَانِيَ وَتُطْعِمُونَ الأَسِيرَ، جِئْنَاكَ فِي ابْنِنَا عِنْدَكَ، فَامْنُنْ عَلَيْنَا وَأَحْسِنْ إِلَيْنَـا فِي فِدَائِـهِ، فَإِنَّـا سَنَرْفَـعُ لَكَ فِي الفِدَاءِ.

قَالَ: «مَنْ هُوَ؟».

قَالُوا: زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ.

فَقَـالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلْ لِغَيْـرِ ذَلِكَ؟».

قَالُوا: مَا هُوَ؟.

قَالَ: «دَعُوهُ فَخَيِّرُوهُ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمَا بِغَيْرِ فِدَاءٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَـا أَنا بـالَّذِي أَخْتَـارُ عَلَى مَنِ اخْتَارَنِي أَحَدَاً».

قَالُوا: قَدْ زِدْتَنَا عَلَى النَّصَفِ وَأَحْسَنْتَ.

فَدعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ: «هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ؟».

قَالَ زَيْدٌ: نَعَمْ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ هُمَا؟».

قَالَ زَيْدٌ: هَذَا أَبِي - وَأَشَارَ إِلَيْهِ - وَهَذَا عَمِّي - وَأَشَارَ إِلَيْهِ -.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ صُحْبَتِي لَكَ فَاخْتَرني أَو اخْتَرْهُمَا».

قَالَ زَيْدٌ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَداً، أَنْتَ مِنِّي بِمَكَانِ الأَبِ وَالأُمِّ.

فَقَالا: وَيْحَكَ يَا زَيْدُ، أَتَخْتَارُ العُبُودِيَّةَ عَلَى الحُرِيَّةِ وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ.

قَالَ زَيْدٌ: نَعَمْ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئاً مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَداً أَبَداً.

فَلَمَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَلِكَ أَخْرَجَهُ إِلَى الحِجْرِ، فَقَالَ:

«يَا مَنْ حَضَرَ، آشْهَدُوا أَنَّ زَيْداً ابْنِي أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي».

فَلَمَّا رَأَى أَبُوهُ وَعَمُّهُ ذَلِكَ طَابَتْ أَنْفُسُهُمَا وانْصَرَفَا، وَدُعِيَ زَيْدُ بنُ مُحَمَّدٍ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَأَصْبَحَ بَعْدَهَا يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ.

وَتَزَوَّجَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ، خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَأَصْبَحَتْ دَارُهُمَا تَضُمّ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِمَا زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ الَّذِي قَدَّمَتْهُ خَدِيجَةُ لِمُحَمَّدٍ لِيَخْدِمَهُ، وَهِنْدَ ابْنَةَ خَدِيجَةَ مِنْ زَوْجِهَا الأَوَّلِ، وَبَرَكَةَ تِلْكَ الفَتَاةُ الحَبَشِيَّةُ الَّتِي وَرِثَها مُحَمَّدٌ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، مِنْ أَبِيهِ...

كَانَ، عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ، بَرَّاً رَحِيماً بِأَهْلِهِ وَبِمَنْ يُقِيمُ مَعَهُ، بَلْ وَبِأَهْلِ الأَرْضِ، فَقَالَ لِبَرَكَةَ: «هَا قَدْ أَصْبَحْتُ رَجُلاً وَتَزَوَّجْتُ، وَتَعِبْتِ فِيَّ، وَالآنَ يَجِبُ أَنْ تَتَزَوَّجِي»، واخْتَارَ لَهَا عُبَيْدَ بنَ زَيْدٍ الخَزْرَجِيَّ، فَوَافَقَتْ بَعْدَ تَمَنُّعٍ لِمَا تَجِدْ مِنْ صُعُوبَةٍ فِي تَرْكِهِ، وَآنْتَقَلَتْ إِلَى يَثْرِبَ لِزَوْجِهَا، وَلَمْ يَسْتَدِرِ العَامُ حَتَّى تُوُفِّيَ عُبَيْدُ، فَاضْطَرَّتْ إلى العَوْدَةِ إِلَى مَكَّةَ، إِلَى دَارِ سَيِّدِهَا مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللَّهَ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وَكَانَ البَيْتُ قَدْ ضَمَّ أَيْضاً عَليَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَبُعِثَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِاللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَحَدَّثَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِدَعْوَتِهِ فَأَسْلَمَ زَيْدٌ، وَأَسْلَمَ أَهْلُ الدَّارِ جَمِيعاً لِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ صِدْقِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ بَيْنَ النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَلِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ سُلُوكِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَمُعَامَلَتِهِ وَبِرِّهِ وَمَحَبَّتِهِ. وَبَدَأَ أَتْبَاعُهُ يَزْدَادُونَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وَبَدَؤُوا يَلْتَقُونَ سِرّاً فِي دَارِ الأَرْقَمِ بنِ أَبي الأَرْقَمِ المَخْزُومِيِّ عِنْدَ الصَّفا، وَيَجْتَمِعُ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُوَجِّهُهُمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ القُرْآنَ، وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

وَتَفَقَّدَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَ بَيْتِه، فَوَجَدَ أَنَّ بَرَكَةَ بِحَاجَةٍ إِلى زَوَاجٍ غَيْرَ أَنَّ سِنَّها، وَعَدَمَ نَضَارَتِها، لا يُشَجِّعَانِ أَحداً عَلَى طَلَبِهَا، فَعَرَضَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ في دَارِ الأَرْقَمِ، فَقَالَ: «مَنْ يَتَزَوَّجُ بَرَكَةَ وَلَهُ الجَنَّةُ». فَتَقَدَّمَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَاغِباً بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِمَا عَرَضَ، وَمُضَحِّياً بِشَبَابِهِ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَسَوادِهَا مَعَ بَيَاضِهِ، وَزَواجُها مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ لَمْ يَعْرِفِ النِّسَاءَ، وَوَلَدِهَا أَيْمَنُ، وَهُوَ لَمْ يُنْجِبْ. وَتَزَوَّجَ زَيْدٌ مِنْ بَرَكَةَ، وَكانَ زَوَاجاً مَيْمُوناً، وَقَدْ أَنْجَبَ مِنْهَا أُسَامَةَ، وَبِهِ يُكَنَّى، أَمَّا هِيَ فَتُكَنَّى بِأُمِّ أَيْمَنٍ.

وَاشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ فَاضْطَرَّ المُسْلِمُونَ إِلَى الهِجْرَةِ مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَاراً بِدِينِهِمْ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ مَرَّتَيْنِ، وَبَقِي زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِجَانِبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. . . وَعَادَ المُهَاجِرُونَ مِنْ مَهْجَرِهِمْ بَعْدَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِمُ الأَخْبَارُ بِإِسْلَامِ أَهْلِ مَكَّةَ، فَلَمَّا رَجَعُوا لَمْ يَجِدُوا شَيْئاً صَحِيحاً مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْبَاءٍ، وَاضْطُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ فِي جِوَارِ رَجُلٍ صَاحِبِ مَكَانَةٍ بَيْنَ قَوْمِهِ.

وَعَادَ المُشْرِكُونَ إِلَى طُغْيَانِهِمْ أَوْ مَا انْقَطَعُوا عَنْهُ، وَظَلُّوا عَلَى بَاطِلِهِمْ الَّذِي يَدْعُونَ لَهُ، وَحَرَصَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَجِدَ لأَصْحَابِهِ دَارَ أَمَانٍ يُقِيمُونَ فِيهَا وَيُؤَدُّونَ عِبَادَتَهُمْ، وَيَدْعُونَ لِدِينِهِمْ، وَفَشِلَ فِي الطَّائِفِ، وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ فِي المَوْسِمِ فَلَمْ يَجِدْ سِوَى الصُّدودِ، إِذْ كَانَ المُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُحَذِّرُونَ كُلَّ قَادِمٍ إِلَى مَكَّةَ، وَيَفْتَرُونَ الكَذِبَ عَلَى صَاحِبِ الدَّعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى الدَّعْوَةِ بَعْضُ أَهْلِ يَثْرِبَ، وَالْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي مَوْسِمَيْنِ بِهِمْ، وَأَخَذَ مِنْهُمُ البَيْعَةَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ،

والنُّصْرَةِ لَهُ إنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ. وَلَمَّا استَوْثَقَ لأَصْحَابِهِ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بالهِجْرَةِ إِلَى يَثْرِبَ، فَبَدَؤُوا يَنْتَقِلُونَ إِلَيْهَا أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ، وَهَاجَرَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِأَهْلِهِ مَعَ مَنْ هَاجَرَ، وَنَزَلَ عَلَى كُلْثُومِ بنِ الهَدْمِ أَوْ سَعْدِ بنِ خَيْثَمَةَ - في رِوَايَتَيْنِ -.

وَهَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَصَلَ إِلىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرةِ، وَآخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَآخَى بَيْنَ زَيْدٍ وَبَيْنَ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكِلاهُمَا مُهَاجِرٌ حَيْثُ كَانَتِ المُؤَاخَاةُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ جَمِيعاً لِشَدِّ صَفِّهِمْ وَتَقْوِيَةِ وَحْدَتِهِمْ، وَبُعْداً عَنْ تَجَمُّعَاتٍ قَبَلِيَّةٍ أَوْ عَصَبِيَّاتٍ لِلْمُدُنِ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ آخَى بَيْنَ زَيْدٍ وَبَيْنَ أُسَيْدِ بنِ الحُضَيْرِ أَحَدِ سَادَةِ الأَوْسِ.

أُذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ، وَانْطَلَقَتِ الغَزَوَاتُ وَالسَّرَايَا، وَبَدَأَ الصِّدَامُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ والمُشْرِكِينَ وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى فُرْقَاناً بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ فَنَصَرَ اللَّهُ جُنْدَهُ، وَأَذَلَّ أَعْدَاءَهُ، ثُمَّ كَانَتْ أُحُدٌ، والخَنْدَقُ، وَشَهِدَها زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كُلَّهَا، وَكَانَ مِنَ الرُّمَاةِ المَشْهُورِينَ. وَوَلَّاهُ الرَّسُولُ،

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَدِينَةِ عِنْدَمَا سَارَ إِلَى المُرَيْسِيعِ[1]، كَمَا شَهِدَ الحُدَيْبِيَّةَ وَخَيْبَرَ. وَأُمِّرَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى سَبْعِ سَرَايَا، كَانَ أَوَّلَهَا سَرِيَّةُ «القَرَدَةِ» وَكَانَتْ فِي أَوَّلِ جُمَادَى الآخِرَةِ مِنَ العَامِ الثَالِثِ لِلهِجْرَةِ، قَبْـلَ غَزْوَةِ أُحُـدٍ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا حَذِرَتْ قُرَيْشٌ طَرِيْقَ الشَّامِ. قَالَ صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ: إِنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ قَدْ عَوَّرُوْا عَلَيْنَا مَتْجَرَنَا، فَمَـا نَدْرِي كَيْفَ نَصْنَعُ بِأَصْحَابِهِ؛ لَا يَبْرَحُونَ السَّـاحِلَ، وَأَهْـلُ السَّاحِـلِ قَدْ وَادَعَهُمْ وَدَخَلَ عَامَّتُهُمْ مَعَهُ، فَمَا نَدْرِي أَيْنَ نَسْلُكُ، وَإِنْ أَقَمْنَا نَأْكُلُ رُؤُوسَ أَمْوَالِنَا وَنَحْنُ فِي دَارِنَا هَذِهِ، مَا لَنَا بِهَا نَفَاقٌ[2]، إِنَّمَـا نَزَلْنَـاهَا عَلَى التِّجَـارَةِ، إِلَى الشَّامِ فِي الصَّيْفِ، وَفِي الشِّتَاءِ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَقَالَ الأَسْوَدُ بنُ المُطَّلِبِ: فَنَكِّبْ عَنْ السَّاحِلِ وَخُذْ طَرِيقَ العِرَاقِ.

فَقَالَ صَفْوَانُ: لَسْتُ بِهَا عَارِفاً.

قَالَ أَبُو زَمْعَةَ: فَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى أَخْبَرِ دَلِيلٍ بِهَا يَسْلُكُهَا وَهُوَ مُغْمِضُ العَيْنَيْنِ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ.

قَالَ: مَنْ هُوَ؟.

---

(١) المريسيع: ماء لخزاعة.

(٢) نفاق: جمع نفقة.

قَالَ: فُرَاتُ بنُ حَيَّانٍ العُجَلِيُّ، قَدْ دَوَّخَهَا وَسَلَكَهَا.

قَالَ صَفْوَانُ: فَذَلِكَ وَاللَّهِ!.

فَأَرْسَلَ إلَى فُرَاتٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ: إنِّي أُرِيدُ الشَّامَ وَقَدْ عَوَّرَ عَلَيْنَا مُحَمَّدٌ مَتْجَرَنَا لأَنَّ طَرِيقَ عِيرنَا عَلَيْهِ، فَأَرَدْتُ طَرِيقَ العِرَاقِ.

قَالَ فُراتٌ: أَنَا أَسْلُكُ بِهَا فِي طَرِيقِ العِرَاقِ، لَيْسَ يَطَؤُهَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - إنَّمَا هِيَ أَرْضُ نَجدٍ وَفَيَافٍ -.

قَالَ صَفْوَانُ: هَذِهِ حَاجَتِي، وَتَجَهَّزَ.

وَوَصَلَ الخَبَرُ إلىٰ المَدِينَةِ عَنْ طَرِيقِ نُعَيْمِ بنِ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيِّ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيداً عَلَى رَأْسِ مَائَةِ رَاكِبٍ، فَاعْتَرَضُوا القَافِلَةَ فِي «القَرَدَةَ»[1]، فَأَصَابُوا العِيرَ، وَأَفْلَتَ أَعْيانُ القَوْمِ، وَأَسَرُوا رَجُلاً أَوْ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا فُرَاتُ بنُ حَيَّانَ العُجَليُّ، وَقَدِمُوا بالعِيرِ وَالأَسْرَى إلى النَّبِيِّ فَخَمَّسَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الغَنِيمَةَ، وَأَسْلَمَ يَوْمَهَا فُراتُ بنُ حَيَّانَ.

---

(١) القردة: من أرض نجد بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق.

وَكَانَتْ سَرِيَّةُ زَيدٍ الثَّانِيَةُ سَرِيَّةَ الجَمُومْ حَيْثُ سَارَ بِـأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى رَأْسِ سَـرِيَّةٍ إلى الجَمُومِ، فَلَمَّا وَصَلَ إلى ذَلِكَ المَحَلِّ وَجَدَ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَة فَدَلَّتْهُ عَلى مَكانِ القَوْمِ، فَأَصَابَ إبِلاً وَشَاءً، وَأَسَرَ جَمَاعَةً مِنَ القَـوْمِ وَمِنْ بَيْنِ الأَسْرَى كـانَ زَوْجُ المَرْأَةِ المُـزَيْنِيَّـةِ، وَلَمَّا رَجَعَتِ السَّرِيَّةُ إلى المَدينَةِ وَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرَّجُلَ لامْرَأَتِهِ، كَمَا وَهَبَها نَفْسَها لأَنَّهَا دَلَّتِ السَّرِيَّةَ عَلَى مَكَانِ القَوْمِ.

وَكَانَتْ سَرِيَّةُ زَيْدٍ الثَّالِثَةُ سَرِيَّةَ العِيصِ[1]، حَيْثُ أَرْسَلَهُ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فِي السَّنَـةِ السَّـادِسَـةِ لِلْهِجْرَةِ في سَبْعِينَ رَاكِباً عِنْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّ عِيراً لِقُرَيْشٍ أَقْبَلَتْ مِنْ الشَّامِ، فَاعْتَرَضُوا طَرِيقَهَا، فَغَنِمُوا كَثِيراً، وأَسَرُوا عَدَداً مِنْ رِجَـالِها مِنْهُمْ صِهْـرُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُـو العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ، زَوْجُ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ، وَدَخَـلَ أَبُو العَـاصِ عَلَى زَوْجَتِهِ زيْنَبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي المَدِينَةِ فَاسْتَجَارَهَا فَأَجَارَتْهُ وَنَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِها: «إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبا العَاصِ».

---

(١) العيص: بينهـا وبين المدينة أربع ليالٍ، وبينهـا وبين ذي المروة ليلة واحدة.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّـاسُ هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعَتُ؟».

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ حَتَّى سَمِعْتُ الَّـذِي سَمِعْتُمْ، المُؤْمِنُونَ عَلَى مَنْ سِـوَاهُمْ، يُجِيـرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَقَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ».

فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مَنْزِلِهِ دَخَلَتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهُ زَيْنَبُ، فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَى أَبِي العَاصِ مَا أُخِذَ مِنْهُ مِنَ المَالِ، فَفَعَلَ، وَأَمَرَهَا أَلا يَقْرَبَهَا، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ مَـا دَامَ مُشْرِكاً. وَرَدَّ النَّاسُ لأَبِي العَاصِ مَـا أَخَذُوا مِنَ العِيرِ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ، فَـأَدَّى لِلنَّاسِ حُقُـوقَهُمْ، ثُمَّ أَعْلَنَ إِسْلاَمَهُ، وَهَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ.

ثُمَّ كَانَتْ سَـرِيَّـةُ «الطَّـرَفِ»[1] حَيْثُ خَـرَجَ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلاً إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالطَّرَفِ هَرَبَ بَنُو ثَعْلَبَةَ وَأَصَابَ زَيْدٌ نَعماً وشَاءً، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَهَا قِتَالٌ، وَغَابَتِ

---

(١) الطرف: مكان يبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلاً.

السَّرِيَّةُ عَنِ المَدينَةِ أَرْبَعَ لَيَالٍ. وَهِيَ السَّرِيَّةُ الرَّابِعَةُ لِزَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعِنْدَمَا رَجعَ دِحْيَـةُ الكَلْبِيُّ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ وَقَدْ أَجازَهُ مَالاً وَكَسَاهُ حَتَّى إذا كَانَ بـ (حِسْمَى) لَقِيَهُ نَاسٌ مِنْ جُذَامٍ فَقَطَعُوا عَلَيْهِ طَرِيقَهُ وَأَخَذُوا مَا مَعَهُ وَتَرَكُوهُ، وَجَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ قُضَـاعَةَ فَأَغَاثُوهُ، وَقَاتَلُوا الَّذِينَ قَطعُوا طَرِيقَهُ وَرَدُّوا إِلَيْهِ مَالَهُ بَعَدَ أَنِ اسْتَرْجَعُوهُ مِنْ جُذَامٍ. وَانْطَلَقَ دِحْيَةُ إِلَى المَدِينَةِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْها أَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا حَدَثَ لَهُ. وَكَانَ رِفَاعَةُ بنُ زَيْدٍ الجِذَامِيُّ وَافِداً يَوْمَذَاكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَـلَ مَعَهُ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَجُلاً إِلَى جُذَامٍ فَأَجَابَتْهُ. وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْداً عَلَى رَأْسِ خَمسِمـائِةِ مُقَـاتِلٍ وَمَعَهُ دَلِيلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ فَأَغَارَ عَلَى المُعْتَدِينَ، وَقَتَلَ الَّذِينَ اعْتَدَوْا عَلَى دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، وَأَخَذَ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَخَمْسَةَ آلاَفٍ مِنَ الشِّيَاهِ، وَمِائَةً مِنَ السَّبَايَـا. وَلَكِنَّ القَوْمَ أَسْلَمُـوا، وَسَارَ رِفَاعَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَلَبَ مِنْهُ رَدَّ مَا أَخَذَ زَيْدٌ، لأَنَّ مَا أُخِـذَ إِنَّمَا أَخَـذَهُ مِنْ مُسْلِمِينَ فَأَرْسَـلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ إِلَى

زَيْدٍ لِيَرُدَّ مَا أَخَذَ مِنْ جُذَامٍ فَفَعَلَ، وَكَانَ سَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ عَلِيٍّ إِشَارَةً إِلَى زَيْدٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ سَرِيَّةَ زَيْدٍ الخَامِسَةَ.

وَخَرَجَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي تِجَارَةٍ فَلَقِيَهُمْ قَوْمٌ مِنْ فَزَارَةَ دُونَ وَادِي القُرَى، فاعْتَرَضُوا قَافِلَةَ زَيْدٍ وَضَرَبُوهُ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ مَاتُوا ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَلَمَّا صَحَا زَيْدٌ تَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ وَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَعَثَهُ عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ، فَأَصَابَ القَوْمَ وَغَنِمَ، وَقُتِلَتْ أُمُّ قِرْفَةَ(١) الَّتِي جَهَّزَتِ القَوْمَ لِقِتَالِ المُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةَ السَّادِسَةَ.

أَمَّا السَّابِعَةُ فَهِيَ غَزْوَةُ مُؤْتَةَ وَهِيَ الَّتِي اسْتُشْهِدَ بِهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَتَحَدَّثُ عَنْها بَعْدَ قَلِيلٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -.

هَاجَرَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَخَطَبَها الزُّبَيْرُ بنُ العوَّامِ، وَعَبْدُالرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ، وَزَيْدُ بنُ حَارِثَة فَٱسْتَشَارَتْ أَخَاهَا لأُمِّهَا عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ حَيْثُ أَنَّ أُمَّهُمَا أَرْوَى بِنْتُ كَرِيْزٍ الَّتِي أُمُّهَا البَيْضَاءُ أُمُّ

---

(١) أم قرفة: هي فاطمة بنت ربيعة بن زيد من بني بدر من فزارة.

حَكِيمٍ بِنْتُ عَبْدِالمُطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَشَارَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ أَنْ تَأْتِيَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْهُ، فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِزَيْدٍ، فَتَزَوَّجَهَا، فَوَلَدَتْ لَهُ زَيْدَ بْنَ زَيْدٍ، وَرُقَيَّةَ، ثُمَّ طَلَّقَهَا.

وَتَزَوَّجَ دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي لَهَبٍ، ثُمَّ طَلَّقَهَا.

وَتَزَوَّجَ هِنْدَ بِنْتَ العَوَّامِ أُخْتَ الزُّبَيْرِ.

كَانَ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَصِيراً، شَدِيدَ البَيَاضِ، فِي أَنْفِهِ فَطَسٌ، أَمَّا ابنُهُ أُسَامَةُ فَكَانَ أَسْوَدَ.

رَغِبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي إِكْرَامِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَخَطَبَ لَهُ ابنَةَ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ[١] بِنْتَ جَحْشٍ، الفَتَاةَ القُرَشِيَّةَ الَّتِي تَعْتَزُّ بِنَسَبِهَا، وَتَفْتَخِرُ بِجَمَالِهَا، فَوَجَدَتْ فِي نَفْسِهَا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الخِطْبَةِ، وَأَبْدَتْ ذَلِكَ، وَلَمْ تُخْفِهِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُهَا، وَلَكِنْ لا يُمْكِنُ مُخَالَفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ مَحَبَّةً لَهُ وَاتِّبَاعاً، وَطَاعَةً وَتَقْدِيراً. وَتَمَّ الزَوَاجُ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْدُثِ

---

(١) زينب: كان اسمها برّة، فسمّاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، «زينب»، واسم أمّها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم أي عمّة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الوِفَاقُ لأَمْرٍ أَرَادَهُ اللَّهُ، إِذْ كَانَتْ تُبْدِي لَهُ أَنفَةً، وتُظْهِرُ تَعَالِياً بِقُرَشِيَّتِهَا، وَوَجَدَ زَيْدٌ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً، وَرَغِبَ فِي طَلاَقِهَا، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُهُ حَتَّى يَسْتَشِيرَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي زَوَّجَهُ وَأَكْرَمَهُ، فَطَلَبَ مِنْهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الصَّبْرَ والمُحَافَظَةَ عَلَى زَوْجِهِ المُؤْمِنَةِ. وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ، أَنَّ زَيْداً سَيُطَلِّقُ زَوْجَهُ زَيْنَبَ، وَسَيَتَزَوَّجُهَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ، لِيُبْطِلَ التَّبَنِّي، وَيُلْغِي تَحْرِيمَ الزَّواجِ مِنْ زَوْجَةِ الَّذِي تَبَنَّاهُ، فَأَخْفَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ مَا سَيَقُولُونَ «تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ» أَوْ «أَحَبَّهَا لِجمَالِهَا» أَوْ... وَلَكِنَّ اللَّهَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُظْهِرَ ذَلِكَ... وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ حَتَّى يَنْزِلَ بِذَلِكَ قُرْآنٌ أَوْ أَمْرٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَعَادَتِ النَّفْرَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ، وَجَاءَ زَيْدٌ إِلَى الرَّسُولِ الكَرِيمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَشْكُو زَيْنَبَ، فَقَالَ لَهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ اللَّهَ»، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الأَجَلُ المُعَيَّنُ، ٱسْتَحَالَتِ الحَيَاةُ الزَّوْجِيَّةُ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنَ الفِرَاقِ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وٱتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي

نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى مِنْهَا زَيْدٌ وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[1] وَطَلَّقَ زَيْدٌ زَوْجَهُ زَيْنَبَ، وَانْقَضَتْ عِدَّتُها، وَتَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَفْخَرُ عَلَى بَقِيَّةِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ فَتَقُولُ: كُلُّكُنَّ زَوَّجَكُنَّ أَهْلُكُنَّ أَمَّا أَنَا فَقَدْ زَوَّجَنِي اللَّهُ.

وَٱتَّسَعَ نِطَاقُ الدَوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَكَانَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى الدُّوَلِ الأُخْرَى سَوَاءٌ أَكَانَتْ دَاخِلَ الجَزِيرَةِ أَمْ خَارِجَهَا. فَالرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِهِ مُكَلَّفُونَ بِإِبْلَاغِ الدَّعْوَةِ إِلَى البَشَرِ جَمِيعاً. أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرُّسُلَ إِلَى المُلُوكِ وَالحُكَّامِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ وِفَادَةَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ وَرَدَّ بِإِحْسَانٍ وَأَهْدَى كالمُقَوْقِسَ حَاكِمِ مِصْرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْلَظَ القَوْلَ، وَمَزَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَزَّقَ اللَّهُ دَوْلَتَهُ، وَهُوَ كِسْرَى أَمْبَرَاطُورُ الفُرْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ وَقَبِلَ الدَّعْوَةَ إِذْ أَسْلَمَ مَلِكُ البَحْرَينِ المُنْذِرُ بنُ سَاوِي، وَمَلِكُ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

الحَبَشَةِ النَّجَاشِيُّ، وَكَانَ حَديثَ العَهْـدِ بِالمُلْكِ حَيْثُ كَـانَ المَلِكُ الذِي أَسْلَمَ عَلَى يَدِ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ قَدْ تُوُفِّيَ، كَمَا أَسْلَمَ حَاكِمُ اليَمَنِ وَأَخَوَاهُ، وَمَلِكَا عُمَانَ ابْنَا جُلُنْدَي. أَمَّا هِرَقْلُ فَقَدْ خَافَ عَلَى مُلْكِهِ وَتَمَسَّكَ فِيهِ، وَأَطَاعَ البَـطَارِقَةَ، وَقَرَّرَ مُقَاوَمَـةَ الدَّعْـوَةِ وَقِتَالِ أَهْلِهَـا، وَهَدَّدَ مَلِكُ الغَسَـاسِنَةِ الحَارِثُ بنُ أَبِي شِمْرٍ بِغَزْوِ المَدِينَةِ، أَمَّا مَلِكُ اليَمَامَةِ هَوْذَةُ بنُ عَلِيٍّ الحَنَفِيُّ فَقَدِ اشْتَرَطَ علَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَجْعَلَ لَهُ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ.

وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحارِثَ بنَ عُمَيْرٍ الأَزْدِيَّ إِلَى مَلِكَ الغَسَاسِنَةِ فَالْتَقَى بِمُؤتَةَ بِعَامِلِ مَلِكِ الغَسَاسِنَةِ عَلَى جَنُوبِي بِلادِ الشَّـامِ وَهُوَ شُـرَحْبِيلُ بنُ عَمْـرٍو الغَسَّانِيُّ، فَسَأَلَ شُرَحْبِيلُ الحَارِثَ عنْ وِجْهَتِهِ فَأَخْبَرَهُ بِحَمْلِ رِسَـالَةٍ مِنْ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، إِلَى مَلِكِ الغَسَاسِنَةِ فَقَتَلَ شُرَحْبِيلُ الحَارِثَ، فَكَانَ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يُؤَدِّبُوا هَذَا الوَالِيَ الطَّاغِيَةَ لِحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَرِجَالِهَـا، وَلِمَنْعِ الظُّلْمِ، وَالوُقُوفِ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ.

جَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، جَيْشاً قِـوَامُهُ ثَلاثَةُ آلافِ مُقَاتِلٍ، وَأَعْطَى قِيَادَتَهُ إِلَى زَيْدِ بن حَارِثَةَ، وَقَالَ:

«إنْ أُصِيبَ فَالأَمِيرُ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإنْ أُصِيْبَ فَالأَمِيْرُ عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ وَإِذَا حَدَثَ فَالرَّأْيُ لِلمُسْلِمِينَ يَخْتَارُونَ مَنْ يَشَاؤُونَ. وَأَحسَّ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ مُوَدِّعٌ لِهَذِه الحَيَاةِ الدُّنْيَا إِذْ لَمْ يَسْبِقْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ أَمَّر ثَلاثَةَ قَادَةٍ، وَتَحرَّكَ الْجَيْشُ باتِّجَاهِ الشَّمَالِ.

وَصَلَ الخَبَرُ إِلَى شُرَحْبِيل بن عَمْرٍو الغَسَّانِيِّ عَامِلِ الرُّومِ عَلى بِلَادِ الشَّامِ الجَنُوبِيَّةِ، فَبَعَثَ أَخاهُ (سُدُوْسَ) طَلِيعَةً لَهُ مَعَ خَمْسِينَ مُقَاتِلٍ، غَيْرَ أَنَّ (سُدُوسَ) وَقَعَ أَسِيراً بِيَدِ المُسْلِمِينَ فِي شَمَالِ وَادِي القُرَى وَقُتِلَ.

وَجَهَّزَ هِرَقْلُ جَيْشاً قِوَامُهُ مِائَةُ أَلْفٍ وَعَهِدَ بِقِيَادَتِهِ إِلَى أَخِيهِ تِيُودُورَ، كَمَا اسْتَعَدَّتِ العَرَبُ المُتَنَصِّرَةَ وَجَمَّعَت مِائَةَ أَلْفِ مُقَاتِلٍ أَيْضاً. وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ هَذَا الحَشْدِ النَّصْرَانِيِّ إِلَى الجَيْشِ الإِسْلَامِيِّ، فَبَدَأَ أُمَراؤُهُ يَتَدَاوَلُونَ الرَّأيَ في العَمَلِ أَمَامَ هَذِهِ القُوَّةِ الرُّومِيَّةِ الطَّاغِيَةِ. فَرَأى بَعْضُهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْ يَنْتَظِرُوا حَتَّى تَأْتِي أَوَامِرُهُ، وَرَأَى بَعْضُهُمْ المُتَابَعَةَ وَالاشْتِبَاكَ مَعَ الرُّومِ مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ فَقَدْ خَرَجُوا لِهَذَا، وَأَرْسَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِهَذَا، وَكَانَ مِنْ هَذَا الرَّأْيِ

عَبْدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الأَمِيرُ الثَّالِثُ لِلْجَيْشِ، قَالَ لَهُمْ: إِنَّ الذِي تَكْرَهُونَ لَلَّذِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ، وَمَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعَدَدٍ ولاَ قُوَّةٍ وَلا كَثْرَةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إلا بهذا الدِّينَ الْذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنَا يَوْمَ بَدرٍ مَا مَعَنَا إلاَّ فَرَسَانِ، وَيَوْمَ أُحُدٍ فَرَسٌ وَاحِدٌ، فَانْطَلِقُوا بِنَا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ، إِمَا ظُهُورٌ عَلَيْهِمْ فَذَلِكَ مَا وَعَدَنَا بِهِ نَبِيُّنَا وَلَيْس لِوَعْدِهِ خُلْفٌ، وَإِمَّا الشَّهَادَةُ فَنَلْحَقُ بِالإِخْوَانِ نُرَافِقُهُمْ بالجِنَانِ. فَدَبَّتِ الحَمَاسَةُ بِالنُّفُوسِ، وَأَمَرَ قَائِدُ الجَيْشِ زَيْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جُنْدَهُ بِالتَّحَرُّكِ.

كَانَ جَيْشُ الرُّومِ وَعُمَلاؤُهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ بِقِيَادَةِ تُيُودُورِ أَخِي هِرَقْلَ، وَمِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الغَسَاسِنَةِ وَالعَرَبةِ المُتَنَصِّرَةِ بِقِيَادَةِ مَالِكِ بنِ رَافِلَةَ البَلَوِيِّ، وَمَعَ هَذَا الجَيْشِ، الْعَرَمْرَمِ عَشَرَاتُ الأُلُوفِ مِنَ الخَيْلِ تَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفاً. أَمَّا الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ فَلَمْ يَكُنْ لِيَزِيدَ عَلَى ثَلاَثَةِ آلافٍ.

وَصَلَ الجَيْشُ الإِسْلاَمِيُّ إِلَى مُؤْتَةَ فَتَحصَّنَ بِهَا خَوْفاً مِنَ التَّطْوِيقِ، أَمَّا الرُّومُ فَقَدْ تَوَقَّعُوا أَنْ يُبِيدُوا الجَيْشَ الإِسْلاَمِيَّ إِبَادَةً تَامَّةً خِلاَلَ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَاتٍ قَلاَئِلَ، أَوْ يَضْطَرُّوهُ إِلَى الاسْتِسْلاَمِ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوا غَيْرَ مَا تَوَقَّعُوا فَقَدْ وَجَدُوا أُنَاساً

يَنْدَفِعُونَ إِلَى القِتَالِ دُونَ مُبالاَةٍ، وَكَأَنَّهُ لاَ شَيْءَ أَمَامَهُمْ، أَوْ كَأَنَّهُمْ يَحْصِدُونَ حُقُولاً مِنَ القَمْحِ تَمَايَلَتْ سَنابِلُهَا، وَقَدِ آسْتَمَرَّتِ المَعْرَكَةُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَجَدَ الرُّومُ خِلاَلَ الأَيَّامِ السِّتَّةِ الأَهْوَالَ كُلَّهَا، وَعَانُوا الشَّدَائِدَ، وَشُدِهُوا مِنَ الشَّجَاعَةِ البَالِغَةِ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَهُمْ، وَكُلَّمَا حَاوَلُوا اقْتِحَامَ مَوَاقِعِ المُسْلِمِينَ بَاؤُوا بِالفَشَلِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَتِهِمْ الكَبِيرَةِ، وَرَجَعُوا إِلَى أَمَاكِنِهِمْ مُخَلِّفِينَ عَدَداً كَبِيراً مِنَ القَتْلَى في ساحَةِ المَعْرَكَةِ، وَظَلَّ المُسْلِمُونَ في صُمُودٍ تَامٍّ.

وَفِي اليَوْمِ السَّادِسِ استَشْهَدَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ بَيْنَ صُفُوفِ الأَعْدَاءِ وَقَتَلَ مِنْهُمْ الكَثِيرَ كَعَادَتِهِ في كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ المَعْرَكَةِ، وَفِي هَذِهِ المَرَّةِ تَنَاوَشَتْهُ رِمَاحُ الأَعْدَاءِ فَخَرَّ صَرِيعاً، وَلَمْ يَسْقُطِ اللِّوَاءُ مِنْ يَدِهِ بَلْ تَنَاوَلَهُ القَائِدُ الثَّانِي جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ وَالَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ بِجَانِبِ زَيْدٍ طِيلَةَ أَيَّامِ المَعْرَكَةِ السَّابِقَةِ، فَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً شُدِهَ لَهُ الرُّومُ، فَكَانَ يَدْفَعُ جَحَافِلَ الأَعْدَاءِ أَمَامَهُ وَتَسِيرُ كَتَائِبُ المُسْلِمِينَ خَلْفَهُ، ثُمَّ أَقْحَمَ فَرَسَهُ وَسَطَ جُمُوعِ الخُصُومِ، وَلِكَثْرَةِ الزِّحَامِ وَشِدَّةِ اللالْتِحَامِ عَجزَتْ فَرَسُهُ مَعَ قُوَّتِهَا عَنِ الحَرَكَةِ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ عَنْهَا وَعَقَرَهَا، وَقَاتَلَ مُتَرَجِّلاً قِتَالاً لَمْ يَكَدْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَيْهِ،

وَأَحَاطَ الرُّومُ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَهُوَ يُشَتِّتُ شَمْلَهُمْ حَيْثُ ٱتَجَهَ حَتَّى أُنهِكَ، وَقُطِعَتْ يَدُهُ اليُمْنَى الَّتِي تَحْمِلُ الرَّايَةَ فَأَخَذَهَا بِاليُسْرَى فَقُطِعَتْ، فَاحْتَضَنَهَا بِعَضُدِهِ خَوْفاً مِنْ أَنْ تَقَعَ، لأَنَّ وُقُوعَ الرَّايَةِ دَلِيلُ هَزِيمَةِ الجَيْشِ، وَبِوُقُوعِهَا تَنْهَارُ مَعْنَوِيَّاتُ المُقَاتِلِينَ، ثُمَّ أَثْخَنَتْهُ الجِرَاحُ فَوَقَعَ شَهِيداً، وبِهِ أَكْثَرُ مِنْ تِسْعِينَ ضَرْبَةً، مِنْهَا ضَرْبَةُ رُمْحٍ قَدْ أَنْفَذَتْهُ، وَضَرْبَةُ سَيْفٍ شَطَرَتْهُ.

ثُمَّ تَنَاوَلَ الرَّايَةَ عَبدُاللَّهِ بنُ رَوَاحَةَ فَاسْتَبْسَلَ في القِتَالِ حتَّى لَقِيَ مَصْرَعَهُ كَسَابِقَيْهِ، وَسَقَطَ لِوَاءُ المُسْلِمينَ فِي الأَرْضِ، فَضَعُفَتِ المَعنَوِيَّاتُ، وَبَدَأَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ بِالتَّرَاجُعِ، إلَّا أَنَّ قَطْبَةَ بنَ عَامِرٍ الأَنْصَارِيَّ قَدْ رَفَعَ اللِّوَاءَ، وَأَخَذَهُ مِنْهُ ثَابِتُ بنُ أَقْرَمَ، وَبَدَأَ يَصِيحُ فِي النَّاس، فَثَابُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَطَلَبَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَعْمَلُوا على ٱخْتِيَارِ قَائِدٍ لَهُمْ يَرْفَعُ لَهُمُ اللِّوَاءَ، فَاخْتَارُوهُ، فَأَبَى، وَلَكِنَّهُ أَخَذَهُ فَسَلَّمَهُ إِلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، فَوَافَقَ وُجُوهُ الجَيْشِ، وَكَانَ اليَوْمُ السَّادِسُ قَدِ انْتَهَى، وَأَرْخَى الظَّلَامُ سُدُولَهُ، وَمَنَعَ اللَّيْلُ بَعْضَ الفَرِيْقَيْنِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْنَاءَ اللَّيْلِ نَظَّمَ خَالِدٌ الجَيْشَ مِنْ جَدِيدٍ، وَفَكَّرَ فِي إِنْقَاذِ المَوْقِفِ، فَاخْتَارَ كَتَائِبَ مِنَ الفُرْسَانِ،

وَطَلَبَ مِنْهَا المُرَابَطَةَ خَارِجَ مُؤْتَةَ، فإذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَالْتَحَمَ النَّاسُ، جَاءَ بَعْضُهَا إِثْرَ بَعْضٍ مُرْتَفِعَةً أَصْوَاتُهَا بِالتَّكْبِيرِ، وَعَدْوُ الخَيْلِ يُثِيرُ النَقْعَ، ثُمَّ تَشْتَرِكُ في المَعْرَكَةِ، كَمَا أَبْدَلَ مَواقِعَ فِرَقِ الجَيْشِ، إِذْ جَعَلَ المَيْمَنَةَ مَكَانَ المَيْسَرَةِ، والسَّاقَةَ بَدَلَ المُقَدِّمَةِ. . . وَمَعَ آنبِلَاجِ الفَجْرِ عَادَ القِتَالُ، وَشَنَّ خَالِدُ هُجُوماً مُعَاكِساً زَلْزَلَ فِيه الرُّومَ، فَوَجَدَ المُقَاتِلَةُ الرُّنمُ أَمَامَهُمْ غَيْرَ الَّذِينَ عَرَفُوهُمْ فَظَنُّوا أَنَّ مَدداً قَدْ جَاءَ لِلْمُسْلِمِينَ فَخَافُوا مَغَبَّةَ الأَمْرِ، ثُمَّ تَتَالَتْ كَتَائِبُ فُرْسَانِ المُسْلِمِينَ تَصِلُ إِلَى المَعْرَكَةِ وَكَأَنَّها فِرَقٌ جَدِيدَةٌ وَكَبِيرَةٌ حَسْبَمَا يَظْهَرُ مِنَ الغُبَارِ المُرْتَفعِ وَالأَصْوَاتِ المُتَعَالِيَةِ، وَزَادَ خَوْفُ الرُّومِ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ المَدَدَ قَدْ وَصلَ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ لا قِبَلَ لَهُمْ بِقُوَّاتٍ إِضَافِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَقَدْ أَنْهَكَتْهُمْ قُوَّةٌ صَغِيرَةٌ فَكَيْفَ لَهُمْ بِجُمُوعٍ كَثِيرَةٍ لَمْ تَعْرِفِ التَّعَبَ بَعْدُ.

وَصَبَرَ المُسْلِمُونَ يَوْمَهُمْ السَّابعَ بِبَسَالَةٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ التَّعَبِ، وَعِنْدَمَا جَاءَ المَسَاءُ وَفَصَلَ الظَّلامُ بيْنَ الجَيْشَيْنِ انْسَحَبَ خَالِدُ بِالجَيْشِ عَلَى شَكْلِ كَتَائِبَ يَحْمِي بَعْضُهَا أَثْنَاءَ التَّرَاجُعِ بَعْضَهَا الآخَرَ، خَوْفاً مِنْ مُلاحَقَةِ الرُّومِ وَمُطَارَدَتِهِمْ، وَعِنْدَهُمُ الإمكانَاتُ الضَّخْمَةُ، فَعِنْدَهُمْ مِن سِلَاحِ المُطَارَدَةِ

خَمْسُونَ أَلْفَاً مِنَ الفُرْسَانِ إِلَّا أَنَّ الرُّومَ أَيْقَنُوا أَنَّ هَذَا الانْسِحَابَ إِنَّمَا هُوَ مَكِيدَةٌ حَرْبِيَّةٌ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ القُوَّاتُ الجَدِيدَةُ، وَأَنَّهُمْ يَنْصُبُونَ الكَمَائِنَ لِيُوقِعُوا الرُّومَ فِيهَا، فَأَحْجَمُوا عنِ المُطَارَدَةِ، وَنَجَا الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ الصَّغِيرُ بِهَذِهِ الخُطَّةِ.

وَنَعَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْداً وَجَعْفراً وَعَبْدَاللَّهِ بنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الخَبَرُ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ - يَعْنِي خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ - حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

صِهْرُ رَسُوْلِ اللهِ صلى الله عليه وسلم

أبو العاص بن الربيع

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَقِّهِ: **«حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي»**.

متفق عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ العَـالَمِينَ وَالصَّـلاَةُ وَالسَّـلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَبَعْدُ:

فَقَدْ كَانَ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ أُخْتٌ تُدْعَى «هَالَةَ»، وَبَيْنَ الأُخْتَيْنِ حُبٌّ كَبِيرٌ أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الأَخَوَاتِ عَادَةً. وَتَزَوَّجَتْ خَدِيجَةُ مِنْ أَبِي هَالَةَ بن زُرَارَةِ التَّمِيمِيِّ، وَأَنْجَبَتْ مِنْهُ ابنَةً أَطْلَقَتْ عَلَيها اسْمَ أُخْتِهَا «هَالَةَ» تَقْدِيراً وَمَحَبَّةً، ثُمَّ تَزَوَّجَتْ بَعْدَهُ عَابِدَ بنَ عَبدِاللَّهِ بنِ عُمَرَ المَخْزُومِيَّ، وَلَمْ تَطُلِ الحَياةُ بَيْنَهُما كَذَلِكَ.

وَتَزَوَّجَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ الرَّبِيعَ بنَ عَبْدِالعُزَّى بن عَبْدِ شَمْسٍ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَنْجَبَتْ مِنْهُ وَلَداً هُوَ «أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ»[1]، وكَانَتْ خَالَتُهُ خَدِيجَةُ تُحِبُّهُ كَثِيراً، وَتَعُدُّهُ كَوَلَدٍ لَهَا، وَخَاصَّةً أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ وَلَدٍ.

---

(١) يُسمّى أبو العاص «لقيط»، ويُدعى جرو البطحاء، كما يقال: إن اسم أبيه «ربيعة».

وَتَـزَوَّجَتْ خَدِيجَـةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّـدِ بنِ عَبْدِاللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَأَنْجَبَتْ مِنْهُ الذُّكُورَ وَالإِنَاثَ، وَمَاتَ الذُّكُورُ صِغَاراً، وَبَقِيَتِ البَنَاتُ، وَكَانَتْ أَكْبَرَ بَنَاتِ خَدِيجَـةَ مِنْهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، «زَيْنَبُ»، وَلَمَّا شَبَّتْ زَيْنَبُ خَطَبَهَا ابنُ خَالَتِهَا أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ، وَتَمَّ الزَّوَاجُ، وَكَانَ مُوَفَّقاً، وَكَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ حُبٌّ شَدِيدٌ، واسْتَمَرَّ مُدَّةَ حَيَاتَيْهِمَا.

وَبُعِثَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَآمَنَـتْ بِدَعْوَتِهِ زَوْجُهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ خَدِيجَـةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأَهْلُ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ بِمَا فِيهِمْ بَنَاتُهُ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِنَّ، وَلَمْ يُسْلِمْ أَبُو العاص بنُ الرَّبِيعِ، كَمَا لَمْ يُسْلِمْ صِهْرَا النَّبِيِّ، عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، الآخَرَيْنِ، وَهُمَـا: عُتْبَةُ بنُ أَبي لَهَبٍ الَّذِي كَانَ زَوْجَ رُقَيَّةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخُـوهُ عُتَيْبَةُ بنُ أَبِي لَهَبٍ الَّـذِي كَانَ زَوْجَ أُمِّ كُلْثُـومٍ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابْنَا أَبِي لَهَبٍ هَذَيْنِ كَانَا زَوْجَيْنِ لِبِنْتَيْ رَسُـولِ اللَّهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونَا قَدْ دَخَلاَ بِهِنَّ بَعْدُ.

بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، الدَّعْـوَةَ سِرّاً،

فآمَنَ لَهُ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِـهِ وَقَوْمِهِ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، ثُمَّ جَهَرَ بِالدَّعْوَةِ فَوَقَفَتْ قُـرَيْشٌ فِي وَجْهِهِ بَغْيـاً وَعُتُوّاً واسْتِكْبـاراً فِي الأرض. تَغَطْرَسَتْ قُرَيْشٌ خَـوْفاً عَلَى زَعَـامَتِها، وَتَعَـاظَمَتْ بِأَمْوَالِهَا خَشْيَةً عَلَى مَصَالِحِهَا، وَتَفاخَرَتْ بِمَكَانَتِهَا حِرْصاً عَلَى وَجَاهَتِهَا، وآسْتَبَدَّتْ بِقُوَّتِهَا طَمَعاً فِي اسْتِعْبَادِ الضُّعَفَاءِ، وَإِبْقَاءِ الأَرِقَّـاءِ، وَتَمَلُّكِ الإِمَـاءِ، وَتَحْقِيقِ الشَّهَـوَاتِ. واسْتَعْـلَى المُسْلِمُـونَ بـإِيمَـانِهِمْ، وَتَحَمَّلُوا الأَذَى والحَـرْبَ النَّفْسِيَّـةَ والاقْتِصَادِيَّةَ وَصَبَرُوا. . . وَصَبَرُوا حَتَّى نَصَرَهُمُ اللَّهُ.

وَمِنَ الحَرْبِ الاقْتِصَادِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يُطَلِّقَ أَبْنـاؤُهَا بَنـاتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فَطَلَبَتْ مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ عَبْدُالعُـزَّى بنُ عَبْدِالمُـطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَشَدِّ قُرَيْشٍ عَدَاوَةً لابنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، وَقَـدْ أَكَّدَ عَلَى آبْنَيْهِ عُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ تَرْكَ زَوْجَتَيْهِمَا رُقَيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ ابنَتَيْ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْـزَلَ اللَّهُ سُبْحَـانَـهُ وَتَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ، فِي جِيـدِهَا حَبْـلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ حَيْثُ كَـانَ أَبُـو لَهَبٍ يُنْفِقُ المَـالَ

وَيُحارِبُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَعْوَتَهُ، وَتُثِيرُ زَوْجُهُ أُمُّ جَمِيلٍ أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بنِ أُمَيَّةَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ الفِتْنَةَ وَالشَّائِعَاتِ ضِدَّ الإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ وَهِيَ حَمَّالَةُ الحَطَبِ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ قَالَ أَبُو لَهَبٍ لابنِهِ عُتْبَةَ: «رَأْسِي مِنْ رَأْسِكَ حَرَامٌ إِنْ لَمْ تُطَلِّقِ ابْنَتَهُ» فَفَارَقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ، وَقَدِ آشْتَرَطَ عَلَى قُرَيْشٍ أَنْ يُزَوِّجُوهُ بِنْتَ أَبَانَ بنِ سَعِيدِ بنِ العاصِ، ففعلُوا. وَتَزَوَّجَ رُقَيَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ عُثمانُ بنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى الحَبَشَةِ الهِجْرَتَيْنِ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ عَبْدَاللَّهِ الَّذِي مَاتَ صَغِيراً ابنَ سِتٍّ سَنَواتٍ، وَمَرِضَتْ فِي المَدِينَةِ قُبَيْلَ بَدْرٍ، وَتُوُفِّيَتْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَالمُسْلِمُونَ بِبَدْرٍ.

وَكَذَلِكَ فَارَقَ عُتَيْبَةُ بنُ أَبِي لَهَبٍ زَوْجَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنَاءً عَلَى طَلَبِ أَبِيهِ وَزُعَمَاءِ قُرَيْشٍ قَبْلَ الدُّخُولِ، وَتَزَوَّجَهَا عُثْمانُ بنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِكْراً بَعْدَ وَفَاةِ أُخْتِهَا رُقَيَّةَ وَذَلِكَ سَنَةَ ثَلَاثٍ، وَلَمْ تَلِدْ لَهُ، وَتُوُفِّيَتْ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ تِسْعٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كُنَّ عَشْراً لَزَوَّجْتُهُنَّ عُثْمَانَ».

وَسَعَتْ قُرَيْشٌ فِي أَبِي العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ لِيُطَلِّقَ زَوْجَهُ

زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَنْ شَاءَ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ أَبُو العَاصِ مِنْ تُجَّارِ قُرَيْشٍ وَأُمَنَائِهِمْ، وَمِمَّنْ يُحِبُّهُ النَّاسُ، وَلَكِنَّ أَبَا العَاصِ رَفَضَ كَلاَمَهُمْ، وَأَصَرَّ عَلَى بَقَاءِ زَوْجِهِ وَقَالَ: «لاَ أُفَارِقُ صَاحِبَتِي، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِامْرَأَتِي امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ»، وَٱسْتَعْمَلَ كَلِمَةَ صَاحِبَتِي دَلاَلَةً عَلَى الوَفَاءِ وَالحُبِّ المُتَبَادَلِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، والتَّقْدِيرِ لِزَيْنَبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وٱشْتَدَّ أَذَى المُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابِهِ، وَاضْطُرَّ أَخِيراً لَمُغَادَرَةِ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ هَاجَرَ أَصْحَابُهُ جَمَاعَاتٍ وَأَفْرَاداً، وَبَقِيَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي مَكَّةَ مَعَ زَوْجِهَا، هِيَ مُسْلِمَةٌ، وَزَوْجُهَا عَلَى شِرْكِهِ.

وَتَشَكَّلَتِ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ الأُولَى فِي المَدِينَةِ، وَتَعَرَّضَ المُسْلِمُونَ لِقَوَافِلِ قُرَيْشٍ فِي دِرَاسَتِهِمْ للأَرْضِ، وَصِلَتِهِمْ مَعَ القَبَائِلِ، وَتَحَرُّشاً بِقُرَيْشٍ لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ، وَأُذِنَ بِالقِتَالِ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ

وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

وَتَعَرَّضَ المُسْلِمُونَ لِعِيرِ أَبِي سُفْيَانَ العَائِدَةِ مِنَ الشَّامِ بَعْدَ أَنْ أَفْلَتَتْ مِنْهُمْ فِي الذَّهَابِ، فَتَرَقَّبُوا عَوْدَتَها، وَأَحسَّ أَبُو سُفْيَانَ بِالخَطَرِ، فَبَعَثَ مَنْ يُخْبِرُ قُرَيْشاً، وَيَطْلُبُ مِنْهَا إِنْقَاذَ عِيرِهَا، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ لِقِتَالِ المُسْلِمِينَ وَتَأْدِيبِهِمْ - عَلَى زَعْمِ قَادَتِهَا - وَإِنْقَاذِ قَافِلَتِهَا، وَخَرَجَ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ مَعَ مَنْ خَرَجَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْجُوَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَافِلَتَهُ، وَأَنْ يَقَعَ القِتَالُ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالمُسْلِمِينَ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً، إِذْ أَصرَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى مُتَابَعَةِ سَيْرِهَا وَالصِّدَامِ مَعَ المُسْلِمِينَ مَعَ عِلْمِهَا بِنَجَاةِ قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ الَّتِي خَرَجُوا مِنْ أَجْلِهَا.

وَالتَقَى الفَرِيقَانِ وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا مَعْرَكَةٌ فِي أَرْضِ بَدْرٍ، تَحطَّمَتْ فِيها كِبْرِياءُ قُرَيْشٍ رَغْمَ كَثْرَتِها، إِذْ قُتِلَ زُعَمَاؤُهَا، وَأُسِرَ كُبَرَاؤُهَا، وَوَلَّتِ الأَدْبَارَ، وَانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ رَغْمَ قِلَّتِهِمْ، إذ قَتَلُوا، وَأَسَرُوا، وَغَنِمُوا، وَارْتَفَعَتْ رَايَتُهُمْ، وَكَانَ بَيْنَ

(١) سورة الحج: الآيات ٣٩ - ٤٠.

أَسْرَى قُرَيْشٍ صِهْرُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُو العاصِ بنُ الرَّبِيعِ، وَقَدْ سِيقَ مَعَ الأَسْرَى إِلَى المَدِينَةِ لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمْ، وَيَحْكُمَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وَكَانَ الَّذِي أَسَرَ أَبَا العَاصِ بنَ الرَّبِيعِ عَبْدُاللَّهِ بنُ جُبَيْرٍ الأَنْصَارِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي أَسَرَهُ خِرَاشُ بنُ الصِّمَّةِ، أَحَدُ بَنِي حَرَامٍ.

وَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَصْحَابَهُ، رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فِي أَسْرَى بَدْرٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِالقَتْلِ حَيْثُ فِيهِمْ سَادَةُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ آذُوا المُسْلِمِينَ، وَلِكَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ جَمِيعَاً أَنَّهُ لَا صِلَةَ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالكُفْرِ، إِذْ سَيَقْتُلُ المُؤْمِنُونَ أَقْرِبَاءَهُمْ مَا دَامُوا يَخْتَلِفُونَ مَعَهُمْ بِالعَقِيْدَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَشَارَ بِالفِدَاءِ كَيْ يَتَقَوَّى المُسْلِمُونَ بِما يَأْخُذُونَ، وَخَاصَّةً أَنَّ فِيهِمْ أَقْرِبَاءَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِثْلَ: عَمِّهِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَابْنِ عَمِّهِ عَقِيلِ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَابنِ عَمِّهِ نَوْفَلِ بنِ الحَارِثِ بنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ، وَصِهْرِهِ أَبِي العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ، وَمَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْرَأْيِ الثَّانِي طَمَعَاً فِي إِسْلَامِ هَؤُلَاءِ الأَسْرَى، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ، فَحَكَمَ بِالفِدَاءِ.

بَعَثَ أَهْـلُ مَكَّةَ فِي فِـدَاءِ أَسْرَاهُمْ، وَبَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي فِـدَاءِ زَوْجِهَا أَبِي العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ، وَبَعَثَتْ مَعَ المَالِ قِلَادَةً لَهَـا مِنْ جَزْعِ ظَفَارٍ كَانَتْ قَـدْ أَهْدَتْهَـا إِيَاهَـا أُمُّهَا خَـدِيجَةُ أُمُّ المُـؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَـا، يَوْمَ زَفَـافِهَا، وَسَـارَ فِي الفِـدَاءِ عَمْـرُو بنُ الرَّبِيعِ أَخُو أَبِي العَاصِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القِلَادَةَ عَرَفَهَا، وَرَقَّ لَهَا، وَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَـا، فَٱفْعَلُوا». فَقَـالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَطْلَقُوهُ وَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا.

وَانْطَلَقَ أَبُو العَاصِ نَحْوَ بَلَدِهِ مَكَّةَ، وَكَانَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ شَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ زَيْنَبَ، إِذْ لَا تَحِلُّ لَهُ، فَهِيَ مُسْلِمَةٌ وَهُوَ لَا يَزَالُ عَلَى شِرْكِهِ، وَلَمْ يَكُنْ وَهُوَ فِي مَكَّةَ لِيَسْتَطِيعَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِذْ أَنَّ الجَاهِلِيَّةَ هِيَ الَّتِي كَانَتْ مُتَحَكِّمَةً فِيهَا، وَوَافَقَ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ عَلَى الشَّرْطِ، وَوَعَدَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ زَيْنَبَ مُذْ يَصِلُ إِلَى بَلَدِهِ، وَقَدْ وَفَى بِـذَلِكَ إِذْ أَمَرَهَا بِاللُّحُوقِ بِأَبِيهَا مُنْذُ قَدِمَ مَكَّةَ، فَخَرَجَتْ تَتَجَهَّزُ.

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ

وَرَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ لِيَأْتِيَا بِـزَيْنَبَ، وَقالَ لَهُمَـا: كُونَـا بِبَطْنِ يَأْجج عَلَى ثَمَـانِيَةِ أَمْيَـالٍ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى تَمُـرَّ بِكُمَا زَيْنَبُ، فَتَصْحَبَـاهَا حَتَّى تَـأْتِيَانِي بِهَـا، فَخَرَجَـا إِلَى حَيْثُ أَمَـرَهُمَـا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ بَدْرٍ أَوْ قَرِيبٍ مِنَ الشَّهْرِ.

وَبَيْنَمَـا كَانَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَـا، تَتَجَهَّزُ لِلُّحُـوقِ بِأَبِيهَا إِذْ لَقِيَتْها هِنْدُ بِنْتُ عُتَبَـةَ زَوْجُ أَبِي سُفْيَانَ بنِ حَـرْبٍ، فَقَالَتْ لَهَا: يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكِ تُرِيدِينَ اللُّحُوق بِأَبِيكِ، فَقَالَتْ زَيْنَبُ: مَا أَرَدْتُ ذَلِكَ؛ فَقَالَتْ هِنْدُ: أَيْ ابْنَةَ عَمِّي، لاَ تَفْعَلِي، إِنْ كَانَتْ لَكِ حَاجَةٌ بِمَتَاعٍ مِمَّا يَرْفُقُ بِكِ فِي سَفَـرَكِ، أَوْ بِمَالٍ تَتَبَلَّغِينَ بِـهِ إِلَى أَبِيـكِ، فَـإِنَّ عِنْـدِي حَاجَتَكِ، فَلاَ تَضْطَنِي[1] مِنِّي، فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ بَيْنَ النِّسَاءِ مَا بَيْنَ الرِّجَالِ. ـ تَقُـولُ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «واللَّـهِ مَـا أَرَاهَا قَالَتْ ذَلِكَ إِلَّا لِتَفْعَلَ، وَلَكِنْ خِفْتُهَا، فَأَنْكَرْتُ أَنْ أَكُونَ أُرِيدُ ذَلِكَ، وَتَجَهَّزْتُ».

فَلَمَّا فَرَغَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مِنْ جَهَازِهَا قَدَّمَ لَهَا حَمُوهَا كِنَانَةُ بنُ الرَّبِيعِ، أَخُو زَوْجِهَا، بَعِيراً فَرَكِبَتْـهُ، وَأَخَذَ

---

(١) تضطني: تستحي.

قَوْسَهُ وَكِنَانَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ بِها نَهاراً يَقُودُ بِهَا، وَهِيَ فِي هَوْدَجٍ لَهَا. وتَحدَّثَ بِذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِهَا حَتَّى أَدْرَكُوهَا بِذِي طُوَى، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ سَبَقَ إِلَيْها هَبَّارُ بنُ الأَسْوَدِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبْدِالعُزَّى وَنَافِعُ بنُ عَبْدِ عَمْرٍو الفِهْرِيُّ، فَرَوَّعَها هَبَّارُ بِالرُّمْحِ، وَهِيَ فِي هَوْدَجِها، وَكَانَتْ حَامِلاً، فَلَمَّا رِيعَتْ طَرَحَتْ ذَا بَطْنِهَا، وَذُكِرَ أَنَّ هَبَّاراً نَخَسَ بِهَا الرَّاحِلَةَ فَسَقَطَتْ عَلَى صَخْرَةٍ فَسَقَطَ جَنِينُهَا، وَلَمْ تَزَلْ تَنْزِفُ مِنْهَا الدِّمَاءُ بَيْنَ المُدَّةِ وَالأُخْرَى حَتَّى مَاتَتْ بِالمَدِينَةِ فِي أَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانٍ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ زَوْجُهَا أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ.

وَلَمَّا رَأَى حَمُوهَا كِنَانَةُ بنُ الرَّبِيعِ مَا فَعَلَ هَبَّارُ بَرَكَ، وَنَثَر كِنَانَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا يَدْنُو مِنِّي رَجُلٌ إِلَّا وَضَعْتُ فِيهِ سَهْمَاً، فَرَجَعَ النَّاسُ عَنْهُ وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ فِي جِلَّةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: أَيُّها الرَّجُلُ، كُفَّ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّى نُكَلِّمَكَ، فَكَفَّ؛ فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تُصِبْ، خَرَجْتَ بِالْمَرْأَةِ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ عَلَانِيَّةً، وَقَدْ عَرَفْتَ مُصِيبَتَنَا وَنَكْبَتَنَا، وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَيَظُنُّ النَّاسُ إِذَا خَرَجْتَ بِابْنَتِهِ إِلَيْهِ عَلَانِيَّةً عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، أَنَّ ذَلِكَ عَنْ ذُلٍّ أَصَابَنَا عَنْ مُصِيبَتِنَا الَّتِي كَانَتْ،

وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَّا ضَعْفٌ وَوَهْنٌ. وَلَعَمْرِي مَا لَنَا بِحَبْسِها عَنْ أَبِيها مِنْ حَاجَةٍ، وَمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنْ ثُؤْرَةٍ[1]، وَلَكِنْ ارْجَعْ بِالمَرْأَةِ، حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنْ قَدْ رَدَدْنَاهَا، فَسُلَّها سِرّاً وَأَلْحِقْها بِأَبِيهَا؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ كِنَانَةُ. فَأَقَامَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَيَالِيَ، حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ خَرَجَ بِهَا لَيْلاً حَتَّى أَسْلَمَها إِلَى زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ وَصَاحِبِهِ، فَقَدِمَا بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا تَمَّ لابْنَتِهِ زَيْنَبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَلَى يَدِ هَبَّارٍ وَصَاحِبِهِ تَأَثَّرَ تَأَثُّراً عَظِيماً، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَرِيَّةً أَنا فِيها، فَقَالَ لَنَا: «إِنْ ظَفِرْتُمْ بِهَبَّارِ بنِ الأَسْوَدِ، أَوْ نَافِعِ بنِ عَبْدِ عَمْرٍو فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ». قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الغَدُ بَعَثَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «إِنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ بِتَحْرِيقِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِنْ أَخَذْتُمُوهُمَا، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُعذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِهِمَا فَاقْتُلُوهُمَا».

---

(١) ثؤرة: طلب الثأر.

وَأَقَـامَ أَبُو العَـاصِ بِمَكَّةَ عَلَى شِـرْكِهِ، وَأَقَـامَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها بِالمَدِينَةِ عِنْـدَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، أَبِيهَا، حِيْنَ فَرَّقَ الإِسْلاَمُ بَيْنَهُمَا، وَمَرَّتْ أَعْوَامٌ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ أَيُّ مَـوْقِفٍ غَيْرَ طَيِّبٍ لأَبِي العَـاصِ مِنْ زَوْجِهِ زَيْنَبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بَلْ كَانَ يُحِبُّها حُبَّاً شَدِيدَاً.

وَفِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنْ هِجْرَةِ المُصْطَفَى عَلَيْهِ أَفْضَـلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ ، خَرَجَ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيـعِ تَاجِـرَاً إِلَى الشَّامِ ، وَكَانَ رَجُلاً مَأْمُوناً، بِمَـالٍ لَهُ وَأَمْوَالٍ لِرِجَـالٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، أَبْضَعُوهَا مَعَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تِجَارَتِهِ وَأَقْبَلَ قَافِـلاً، لَقِيَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِإِمْرَةِ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَصَابُوا مَا مَعَهُ، وَأَعْجَزَهُمْ هَرَبـاً، وَقَدِمَتِ السَّرِيَّةُ بِمَا أَصَابَتْ مِنْ مَالٍ إِلَى المَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ دَخَلَ أَبُو العَاصِ المَدِينَةَ تَحْتَ جُنْـحِ الظَّلاَمِ وَعَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَـا، وَدَخَـلَ عَلَى زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَـا وَاسْتَجَارَ بِهَا فَأَجَارَتْهُ، وَجَاءَ فِي طَلَبِ مَالِهِ، فَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى الصَّلاَةِ، وَلَمَّا كَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ، صَرَخَتْ زَيْنَبُ مِنْ صُفَّةِ النِّسَاءِ: أَيُّها النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا العَـاصِ بنَ الرَّبِيـعِ . فَلَمَّا سَلَّمَ

رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الصَّلَاةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ؛ قَال: أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُمْ، إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ.

وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةَ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكِ، فَإِنَّكِ لَا تَحِلِّينَ لَهُ. وَسَأَلَتْ زَيْنَبُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَبَاهَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي أَن يَرُدَّ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ وَمَالَهُ.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى السَّرِيَّةِ الَّتِي أَصَابَتْ مَالَ أَبِي العَاصِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالاً، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَهُوَ فَيْءُ اللَّهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ؛ فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، بَل نَرُدُّهُ عَلَيْهِ، فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي بِالدَّلْوِ، وَيَأْتِي الرَّجُلُ بِالشَّنَّةِ[1] وَبِالإِدَاوَةِ[2]، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَأْتِي

(١) الشنة: السقاء البالي.
(٢) الإداوة: الإناء الصغير من الجلد.

بِالشِّظَاظِ[1]، حَتَّى رَدُّوا عَلَيْهِ مَالَهُ بِأَسْرِهِ لَا يَفْقِدُ مِنْهُ شَيْئاً.

وَقِيلَ لِأَبِي العَاصِ عندما رُدَّ عَلَيْهِ مَالُهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُسْلِمَ وَتَأْخُذَ هَذِهِ الأَمْوَالَ، فَإِنَّها أَمْوَالُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ: بِئْسَ مَا أَبْدَأُ بِهِ إِسْلَامِي أَنْ أَخُونَ أَمَانَتِي. فَعُلِمَ مِنْ جَوَابِهِ أَنَّ الإِسْلَامَ قَدْ دَاخَلَ قَلْبَهُ.

احْتَمَلَ أَبُو العَاصِ مَا رُدَّ إِلَيْهِ إِلَى مَكَّةَ، فَأَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَالَهُ، وَمَنْ كَان أَبْضَعَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ؛ قَالُوا: لَا، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً! فَقَدْ وَجَدْنَاكَ وَفِيَّاً كَرِيماً؛ قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي مِنَ الإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفَ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّما أَرَدْتُ أَنْ آكُلَ أَمْوَالَكُمْ، فَلَمَّا أَدَّاهَا اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَفَرَغْتُ مِنْهَا أَسْلَمْتُ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَوَصَلَ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِراً

---

(١) الشظاظ: الخشبة المعقوفة التي تدخل في عرا الأوعية، وجمعها أشظة.

مُسْلِمَاً، فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زَيْنَبَ عَلَى النِّكَاحِ الأَوَّلِ، وَلَمْ يُحْدِثْ شَيْئاً مِنْ شُرُوطٍ. وَكَانَ إِسْلاَمُ أَبِي العَاصِ قَبْلَ الحُدَيْبِيَّةِ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ أَيْ فِي مُنْتَصَفِ السَّنَةِ السَّادِسَةِ، فَعَاشَ بَعْدَهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَةٍ وَنِصْفِ السَّنَةِ مَعَ زَوْجِهِ زَيْنَبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثُمَّ تُوُفِّيَتْ تُوفيت فِي مَطْلَعِ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ، وَقَدْ أَنْجَبَتْ مِنْهُ عَلِيَّاً الَّذِي أَرْدَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَاءَهُ يَوْمَ الفَتْحِ، وَقَدْ تُوُفِّيَ صَغِيرَاً، وَأُمَامَةَ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُها رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي صَلاَتِهِ وَيَضَعُهَا إِذَا سَجَدَ، وَالَّتِي تَزَوَّجَهَا عَليُّ بنُ أَبِي طالبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ وَفَاةِ خَالَتِها فَاطِمَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عَاشَ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي المَدِينَةِ يُشَارِكُ المُسْلِمِينَ فِي كُلِّ الأَحْدَاثِ، وَيَضَعُ نَفْسَهُ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ، فَلاَ يَتَطَاوَلُ عَلَى أَحَدٍ بِصِفَتِهِ صِهْرَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ يُرِيدُ أَنْ يَتَأَمَّرَ، وَإِنَّما كَانَ جُنْدِيَّاً فِي كُلِّ مَيْدَانٍ، يَعْرِفُ لِلسَّابِقِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ قَدْرَهُمْ، وَيُنْزِلُهُمْ مَنْزِلَتَهُمْ، وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَعَاشَ أَبُو العَاصِ بنُ الرَّبِيعِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُدَّةً فِي خِلَافَةِ الصَّدِّيقِ وَتُوُفِّيَ فِي شَهْرِ ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٢٠ -

خَطيبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

ثَابِتُ بْنُ قَيْس

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ـ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ**».

ـ وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا ثَابِتُ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيداً، وَتُقْتَلَ شَهِيداً، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ**».

بسم الله الرحمن الرحيم

ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بن شَمَّاسٍ الأَنْصَارِيُّ الخَزْرَجِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ، خَطِيبُ الأَنْصَارِ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضاً خَطِيبُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأُمُّهُ كَبْشَةُ بِنْتُ وَاقِدِ بنِ الأَطْنَابَةِ الخَزْرَجِيَّةُ، فَهُوَ أَخُو عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ لأُمِّهِ.

أَسْلَمَ مَعَ أَوَائِلِ الأَنْصَارِ، وَخَطَبَ يَوْمَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَدِينَةَ فَقَالَ: نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا، فَمَا لَنَا؟.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الجَنَّةُ».

قَالُوا: رَضِينَا.

آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ.

كَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ خَطِيباً بَلِيغاً، وَكَانَ أَسْوَدَ قَصِيراً. وَيُعَدُّ مِنْ نُجَبَاءِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لَمْ يَشْهَدْ بَدْراً إِذْ لَمْ يَخْرُجْ إِلَى بَدْرٍ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ الخُرُوجَ لِلْقِتَالِ وَإِنَّما لِلْعِيرِ، وَلَا تَحْتَاجُ العِيرُ إِلَى خُرُوجِ المُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ إِذْ لَا يَزِيدُ عَدَدُ أَفْرَادِهَا عَلَى الأَرْبَعِينَ رَجُلاً.

وَلِهَذَا قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَبْلَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ مُخَاطِباً رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلَا نَبْنِي لَكَ عَرِيشاً تَكُونُ فِيهِ، وَتَقْعُدُ عِنْدَكَ رَكَائِبُكَ ثُمَّ نَلْقَى عَدُوَّنَا، فَإِنْ أَعَزَّنَا اللَّهُ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا، وَإِنْ كَانَتِ الأُخْرَى، جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِكَ فَلَحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنَا فَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ حُبّاً لَكَ مِنْهُمْ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّكَ تَلْقَى حَرْباً مَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ، يَمْنَعُكَ اللَّهُ بِهِمْ، يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَكَ.

وَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ بِمَا حَدَثَ مِنْ لِقَاءٍ مَعَ قُرَيْشٍ تَأَثَّرَ المُسْلِمُونَ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَشَدَّ التَّأَثُّرِ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ ـ وَلَكِنْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى مَعْرِفَةٍ بِمَا سَيَحْدُثُ ـ وَمِنْهُمْ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ

وَأُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ وَغَيْرُهُمْ، وَقَالَ ثَابِتُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ مَوْقَعَةً أُخْرَى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَشَهِدَ ثَابِتُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المَشَاهِدَ كُلَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُحُدَاً، وَبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، وَخَيْبَرَ، وَتَبوكَ، وَفَتْحَ مَكَّةَ و. . . .

تَزَوَّجَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلِ بنِ ثَعْلَبَةَ، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ شِدَّةٌ فَضَرَبَهَا، فَذَهَبَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ يَهِمُّ بِالخُرُوجِ فَرَأَى إِنْسَانَاً، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟.

قَالَتْ: أَنَا حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ.

قَالَ: مَا شَأْنُكِ؟.

قَالَتْ: لَا أَنا وَلَا ثَابِتُ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذْ مِنْهَا، وَخَلِّ سَبِيلَهَا».

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي واللَّهِ كُلُّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ. فَأَخَذَهُ مِنْهَا، وَقَعَدَتْ فِي أَهْلِهَا.

كَمَا تَزَوَّجَ جَمِيلَةَ بِنْتَ عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ، وَأُمُّهَا خَوْلَةُ بِنْتُ المُنْـذِرِ بنِ حَـرَامٍ ، وَكَـانَتْ جَمِيلَةُ قَـدْ أَسْلَمَتْ مَـعَ أَخِيهَـا عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ بَيْنَمَا بَقِيَ أَبُوهُمَا عَلَى رَأْسِ النِّفَاقِ.

وَكَانَتْ جَمِيلَةُ قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ قَبْلُ حَنْظَلَةَ بنَ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ، فَاسْتَشْهَدَ عَنْهَا يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُـوَ غَسِيلُ المَـلَائِكَةِ، وَوَلَدَتْ لَهُ بَعْدَ اسْتِشْهَادِهِ عَبْدَاللَّهِ بنَ حَنْظَلَةَ. وَبَعْـدَ وِلَادَتِهَا خَلَفَ عَلَيْهَا ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ فَوَلَدَتْ لَهُ مُحَمَّداً وَبِهِ يُكَنَّى، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ وَلَدَاهَـا عَبْدُاللَّهِ بنُ حَنْـظَلَةَ، وَمُحَمَّدُ بنُ ثَـابِتٍ يَوْمَ الحَرَّةِ.

وَيَبْـدُو أَنَّ جَمِيلَةَ اخْتَلَعَتْ أَيْضَـاً مِنْ ثَـابِتٍ، إِذْ قَـالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَفَعْتُ طَرَفَ الخِبَاءِ فَإِذَا ثَابِتٌ قَادِمٌ مَعَ أَصْحَابِهِ فَرَأَيْتُهُ دَمِيمَاً، أَقْصَرَ القَوْمِ ، وَأَشَدَّهُمْ سَوَاداً، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ مَعَهُ.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثَـابِتَاً، وَقَـالَ لَهَا: أَرْضِي ثَابِتَاً.

فَقَـالَتْ: أُعْـطِيـهِ حَـدِيقَتِي، وَهِيَ أَفْضَـلُ مَـا عِنْـدِي. وَيَتْرُكُنِي.

فَقَالَ ثَابِتُ: قَدْ رَضِيتُ. وَفَارَقَهَا.

وَفِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ نَقَضَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ العَهْدَ، فَمَا أَنْ رَحَلَ الأَحْزَابُ عَنِ المَدِينَةِ حَتَّى دَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ فِي مُقَدِّمَةِ المُنْطَلِقِينَ، وَكَانَ لَهُ دَوْرٌ لَا يُنْكَرُ فِي التَّنْكِيلِ بِهِمْ... ثُمَّ اسْتَسْلَمَ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَأَصْبَحُوا فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَحْكُمُ بِهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ. وَكَانَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَطْمَعُ فِي كَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ لَهُ طَلَبَاً.

تَفَرَّسَ ثَابِتُ فِي وَجْهِ أَحَدِ الأَسْرَى، وَهُوَ الزَّبِيرُ بنُ بَاطَا القُرَظِيُّ، وَعَرَفَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ هِيَ المَرَّةُ الأُولَى الَّتِي التَقَيَا فِيهَا بَيْنَ الرِّمَاحِ والسُّيُوفِ، لَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَقَعَ ثَابِتُ أَسِيرَاً فِي يَدِ الزَّبِيرُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ فِي يَوْمِ «بُعَاثٍ»، وَكَانَ الزَّبِيرُ عَلَى غَيْرِ عَادَةِ اليَهُودِ كَرِيمَاً مَعَهُ، فَلَمْ يَطْلُبْ فِدْيَةً أَوْ مَالاً، وَلَمْ يُنَكِّلْ بِهِ، أَوْ يَجْلُدْ ظَهْرَهُ، كَمَا كَانَ يَحْدُثُ مَعَ الأَسْرَى فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكُلُّ الَّذِي فَعَلَهُ مَعَهُ أَنْ أَخَذَهُ فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ...

عِنْـدَهَا قَـالَ ثَابِتُ لِلزَّبِيـرِ ـ وَهُـوَ شَيْـخٌ كَبِيـرٌ ـ يَـا أَبَـا عَبْدِالرَّحْمَنِ هَلْ تَعْرِفُنِي؟.

قَالَ اليَهُودِيُّ: وَهَلْ يَجْهَلُ مِثْلِي مِثْلَكَ؟؟...

قَالَ ثَابِتُ: إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْزِيَكَ بِيَدٍ لَكَ عِنْدِي.

قَالَ: إِنَّ الكَرِيمَ يَجْزِي الكَرِيمَ..

ثُمَّ أَتَى ثَابِتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَتْ لِلزَّبِيـرِ عَلَيَّ مِنَّةٌ، وَقَـدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا، فَهَبْ لِيْ دَمَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، : «هُوَ لَكَ».

فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ وَهَبَ لِي دَمَكَ فَهُوَ لَكَ.

فَقَالَ لَهُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ وَلَـدَ، فَمَاذَا يَصْنَـعُ بِالحَيَاةِ؟.

فَأَتَى ثَابِتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَـالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ هَبْ لِيَ امْرَأَتَهُ وَوَلَدَهُ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: هُمْ لَكَ.

فَأَتَاهُ ثَابِتُ فَقَالَ: قَـدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ فَهُمْ لَكَ.

قَالَ اليَهُودِيُّ: أَهْلُ بَيْتٍ بِالحِجَازِ لَا مَالَ لَهُمْ فَمَا بَقَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ؟.

فَأَتَى ثَابِتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالَهُ..

قَالَ: هُوَ لَكَ..

فَأَتَاهُ ثَابِتُ فَقَال: قَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَالَكَ فَهُوَ لَكَ..

قَالَ الزَّبِيرُ: أَيْ ثَابِتُ، مَا فَعَـلَ الَّذِي كَأَنَ وَجْهَهُ مِرْآةٌ يَتَرَاءَى فِيهَا عَذَارَى الحَيِّ: كَعْبُ بنُ أُسَدِ؟..

قَالَ ثَابِتُ: قَدْ قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الحَاضِرِ وَالبَادِي: حُيَيّ بنُ أَخْطَبَ؟.

قَال: قَدْ قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ مُقَدِّمَتُنَا إِذَا شَدَدْنَا، وَحَامِيَتُنَا إِذَا فَرَرْنَـا: «عَزَّالُ بـنُ سَمَوْأَلَ؟.

قَالَ ثَابِتُ: قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ المَجْلِسَانِ؟ يَعْنِي بَنِي كَعْبِ بنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بنِ قُرَيْظَةَ.

قَالَ: قُتِلُوا.

قَالَ الزَّبِيرُ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلْحَقْتَنِي بِالقَوْمِ، فَوَاللَّهِ مَا فِي العَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أَنَا بِصَابِرٍ بَعْدَهُمْ حَتَّى أَلْقَى الأَحِبَّةَ. فَقَدَّمَهُ ثَابِتُ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَوْلُهُ: «أَلْقَى الأَحِبَّةَ» قَالَ: يَلْقَاهُمْ وَاللَّهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً[1].

وَفِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ، عَادَ بَعْدَمَا أَثْبَتَ مَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ شَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ، وَمُضِيٍّ فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، عَادَ وَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ سَبَايَا بَنِي المُصْطَلِقِ، وَقَدْ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الحَارِثِ فِي السَّهْمِ لَهُ، وَهِيَ بِنْتُ سَيِّدِ القَوْمِ، وَمِنَ الجَمِيلَاتِ الَّتِي تَأْخُذُ النَّفْسَ، فَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِتَسْتَعِينَهُ فِي كِتَابَتِهَا،

(١) سيرة ابن هشام. الجزء الثالث.

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَا جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الحَارِثِ بنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ البَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي . .

قَالَ الرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلْ لَكِ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟».

قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟.

قَالَ: «أَقْضِي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتزَوَّجُكِ».

قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ».

وَخَرَجَ الخَبَرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَّةَ بِنْتَ الحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ. فَلَقَدْ أُعْتِقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي المُصْطَلِقِ، فَمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير. الجزء الرابع.

وَقَدِمَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فِي العَامِ التَّاسِعِ وُفُودُ العَرَبِ، وَكَانَ مِمَّنْ قَدِمَ عَلَيْهِ عُطَارِدُ بنُ حَـاجِبِ التَّمِيمِيُّ فِي أَشْـرَافِ بَنِي تَمِيمٍ، مِنْهُمُ الأَقْـرَعُ بنُ حَابِسٍ، والزِّبْرِقَانُ بنُ بَـدْرٍ، وَعَمْرُو بنُ الأَهْتَمِ، وَعُيَيْنَـةُ بنُ حِصْنٍ، وَقَيْسُ بنُ عَاصِمٍ. فَلَمَّا دَخَلَ وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ المَسْجِدَ نَادَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ وَرَاءِ حُجُرَاتِهِ: أَنِ اخْرُجْ إِلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ، فَآذَى ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ صِيَاحِهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، جِئْنَاكَ نُفَاخِـرُكَ، فَأْذَنْ لِشَـاعِرِنَـا وَخَطِيبِنَـا؛ قَالَ: قَـدْ أَذِنْتُ لِخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ، فَقَامَ عُطَارِدُ بنُ حَاجِبٍ فَقَالَ:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الفَضْـلُ والمَنُّ، وَهُوَ أَهْلُهُ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكـاً، وَوَهَبَ لَنَا أَمْـوَالاً عِظَامَـاً، نَفْعَلُ فِيهَـا المَعْرُوفَ، وَجَعَلَنَا أعزَّ أَهْلِ المَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عَـدَداً، وَأَيْسَرَهُ عُدَّةً، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ؟ أَلَسْنَا بِـرُؤُوسِ النَّاسِ وَأُوْلِـي فَضْلِهِمْ؟ فَمَنْ فَاخَرَنَا فَلْيَعْدُدْ مِثْلَ مَا عَدَدْنَا، وَإِنَّـا لَوْ نَشَـاءُ لأَكْثَرْنَا الكَلامَ، وَلَكِنَّا نَحْيَا مِنَ الإِكْثَارِ فِيمَا أَعْطَانَا، وَإِنَّا نُعْرَفُ بِذَلِكَ. أَقُولُ هَذَا لأَنْ تَأْتُوا بِمِثْـلِ قَوْلِنَـا، وَأَمْرٍ أَفْضَـلَ مِنْ أَمْرِنَا». ثُمَّ جَلَسَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ: «قُمْ، فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ». فَقَامَ ثَابِتُ، فَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي السمواتُ وَالأَرْضُ خَلْقُهُ، قَضَى فِيهِنَّ أَمْرَهُ، وَوَسِعَ كُرْسِيُّهُ عِلْمَهُ، وَلَمْ يَكُ شَيْءٌ قَطُّ إلَّا مِنْ فَضْلِهِ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكاً. واصْطَفَى مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولاً، أَكْرَمَهُ نَسباً، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثاً، وَأَفْضَلَهُ حَسَباً. فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ وَائتَمَنَهُ عَلَى خَلْقِهِ، فَكَانَ خِيرَةَ اللَّهِ مِنَ العَالَمِينَ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إلى الإِيمَانِ بِهِ، فَآمَنَ بِرَسُولِ اللَّهِ المُهاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذِي رَحِمِهِ، أَكْرَمُ النَّاسِ حَسَباً، وَأَحْسَنُ النَّاسِ وُجُوهاً، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالاً. ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ الخَلْقِ إجَابَةً، وَاسْتَجَابَ لِلَّهِ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَحْنُ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَوُزَرَاءُ رَسُولِهِ، نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَدَمَهُ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَداً، وَكَانَ قَتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيراً. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ».

فَقَامَ الزِّبْرِقَانُ بنُ بَدْرٍ فَقَالَ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا:

نَحْنُ الكِـرَامُ فَـلاَ حَيٌّ يُعَـادِلُنَـا
مِنَّـا المُلُوكُ وفِينَـا تُنْصَبُ البِيَـعُ

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ، وَكَانَ غَائِبَاً، فَحضَرَ فَلَمّا انْتَهَى الزِّبْرِقَـانُ بنُ بَدْرٍ مِنْ قَصِيدَتِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِحَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ: قُمْ يَا حَسَّانُ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِيمَا قَالَ. فَقَامَ حَسَّانُ فَقَالَ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا:

إنَّ الـذَّوَائِبَ مِنْ فِهْـرٍ وَإِخْـوَتِهِمْ
قَـدْ بَيَّنُـوا سُنَّـةً لِلنَّـاسِ تُـتَّبَـعُ

فَلَمَّا فَرَغَ حَسَّانُ مِنْ قَصِيدَتِهِ، قَالَ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ: وَأَبِي، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمُؤَتَّى لَهُ، لَخَطِيبُهُ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيبِنَا، وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا، وَلأَصْوَاتُهُمْ أَحْلَى مِنْ أَصْوَاتِنَـا. فَلَمَّا فَرَغَ القَوْمُ أَسْلَمُوا، وَجَوَّزَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَحْسَنَ جَوَائِزَهُمْ[١].

وَفِي هَؤُلَاءِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَـادُونَكَ مِنْ

---

(١) سيرة ابن هشام.

وَرَاءِ الحُجُـرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَـوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرَاً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وَلَمَّـا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُـولِـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ﴾[2]. اشْتَـدَّتْ عَلَى ثَابِتٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وَطَفِقَ يَبْكِي، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِمَـا كَبُرَ عَلَيْهِ مِنْهَا، وَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ أُحِبُّ الجَمَالَ، وَأَنْ أَسُودَ قَوْمِي، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لَسْتَ مِنْهُمْ، بَلْ تَعِيشُ بِخَيْرٍ، وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، وَيُدْخِلُكَ اللَّهُ الجَنَّةَ».

وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَـوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَـرُوا لَهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُـرُونَ﴾[3]. وَكَـانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ. فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّـارِ. حَبِطَ عَمَلِي. وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينَـاً.

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان ٤، ٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٢.

فَفَقَـدَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فَـانْـطَلَقَ بَعْضُ القَـوْمِ إِلَيْهِ، فَقَـالُوا: تَفَقَّـدَكَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مَا لَكَ؟ قَـالَ: أَنَا الَّـذِي أَرْفَعُ صَـوْتِي فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْهَرُ لَـهُ بِـالقَـوْلِ. حَبِطَ عَمَلِي. أَنَـا مِنْ أَهْلِ النَّـارِ. فَأَتَـوْا النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ». قَالَ أَنَسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ.

وَرُوِيَ أَنَّ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّـا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَعَدَ فِي الطَّرِيقِ يَبْكِي فَمَرَّ بِهِ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ مِنْ بَنِي العَجْلَانِ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟ قَالَ: هَذِهِ الآيَـةُ أَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ نَـزَلَتْ فِيَّ، وَأَنَا صَيِّتٌ، رَفِيـعُ الصَّوْتِ. فَمَضَى عَاصِمُ بنُ عَدِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَغَلَبَ ثَابِتاً البُكَاءُ فَـأَتَى إِلَى امْرَأَتِـهِ جَمِيلَةَ ابْنَةِ عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ، فَقَالَ لَهَا: إِذَا دَخَلْتُ بَيْتَ فَرْشِي فَشُدِّي عَلَى الضَّبَّةِ بِمِسْمَارٍ. فَضَرَبَتْهُ بِمِسْمَـارٍ، وَقَـالَ: لَا أَخْرُجُ حَتَّى يَتَـوَفَّانِي اللَّهُ تَعَـالَى أَوْ يَـرْضَى عَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَتَى عَاصِمُ بنُ عَدِيٍّ،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ. فَقَالَ: اذْهَبْ فَادْعُهُ لِيَ. فَجَاءَ عَاصِمُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى المَكَانِ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِ الْفَرْشِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُوكَ. فَقَالَ: اكْسِرِ الضَّبَّةَ. فَخَرَجَا فَأَتَيَا النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟». فَقَالَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا صَيِّتٌ وَأَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيداً، وتُقْتَلَ شَهِيداً، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟» فَقَالَ: رَضِيتُ بِبُشْرَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَرْفَعُ صَوْتِي أَبَداً عَلَى صَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وَنَنْظُرُ إِلَى إِيْمَانِ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ وَكَيْفَ ارْتَعَشَ قَلْبُهُ، وَارْتَجَفَ فُؤَادُهُ، وَكُلُّ جَوَارِحِهِ مِنْ سَمَاعِ تِلْكَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، وَخَافَ خَوْفاً شَدِيداً، وَأَصَابَهُ الرُّعْبُ مِنْ أَنْ تَكُونَ قَدْ نَزَلَتْ بِحَقِّهِ فَيَكُونُ عَمَلُهُ قَدْ حَبِطَ وَذَهَبَ كُلُّ مَا قَدَّمَ هَبَاءً مَنْثُوراً.

وَتُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ. وَارْتَدَّتِ العَرَبُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَاسْتَنْفَرَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المُسْلِمِينَ لِقِتَالِ المُرْتَدِّينَ، وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَوَّلِ الَّذِينَ خَرَجُوا، وَحَمَلَ رَايَةَ الأَنْصَارِ، وَانْطَلَقَ مَعَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى اليَمَامَةِ. وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ لِقَاءٍ مَعَ المُرْتَدِّينَ، فَقَالَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ وَسَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: مَا هَكَذَا كُنَّا نُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَا

(١) سورة الحجرات: الآية ٣.

لِأَنْفُسِهِمَا حُفْرَةً فَدَخَلَا فِيهَا فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما. وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ كَانَتْ بِيَدِهِ رَايَةُ المُهَاجِرِينَ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ زَيْدِ بنِ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرُوِيَ أَنَّ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا رَأَى مَا رَأَى مِنَ انْكِشَافِ المُسْلِمِينَ خَرَجَ وَقَدْ تَحَنَّطَ وَنَشَرَ أَكْفَانَهُ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ، وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ. وَتَقَدَّمَ الصُّفُوفَ وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرَأَى رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي لَمَّا قُتِلْتُ بِالأَمْسِ مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فَانْتَزَعَ مِنِّي دِرْعاً نَفِيسَةً، وَمَنْزِلُهُ فِي أَقْصَى العَسْكَرِ، وَعِنْدَ مَنْزِلِهِ فَرَسٌ يُسْتَنُّ[1] فِي طُولِهِ، وَقَدْ أَكْفَأَ عَلَى الدِّرْعِ بُرْمَةً، وَجَعَلَ فَوْقَ البُرْمَةِ رَحْلاً، فَائتِ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ فَلْيَبْعَثْ إِلى دِرْعِي فَلْيَأْخُذْهَا، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْلِمْهُ أَنَّ عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ كَذَا، وَلِيَ مِنَ المَالِ كَذَا، وَفُلَانٌ مِنْ رَقِيقِي عَتِيقٌ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ: هَذَا حُلْمٌ

---

(١) يستن: يرفع يديه ويطرحهما معاً ويضغط برجليه.

فَتُضَيِّعَهُ. فَأَتَى الرَّجُلُ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ، فَوَجَّهَ إِلَى الدِّرْعِ أَحَدَ الجُنْدِ فَوَجَدَهَا كَمَا ذَكَرَ. وَقَدِمَ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُ. فَأَنْفَذَ أَبُو بَكْرٍ وَصِيَّتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَاسْتَشْهَدَ يَوْمَ اليَمَامَةِ عَامَ أَحَدَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ وَلَا تُذْكَرُ تِلْكَ المَعْرَكَةُ إِلَّا وَيُذْكَرُ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِمَا أَبْلَى فِيهَا.

الفهرس